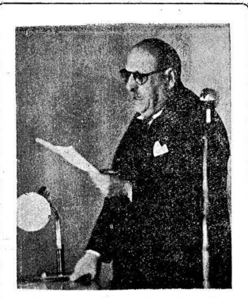
كلمة فخامة رئيس الجمهورية



فخامة الرئيس الشيخ بشاره الخوري يفتتح مهرجان ابي العلاء المعري الذي اقامته وزارة التربية اللبنانية

•

تفضل حضرة صاحب الفخامة ، الشيخ بشاره خليل الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية بهذه الكلمة السامية يحيي بها « الاديب » بمناسبة اخراج هذا الجزء الخاص عن ابي العلاء المعري . ويسرنا أن تزين بها صدر هذا العدد الممتاز شاكرين لفخامة الرئيس جميل عطفه وكريم رعايته لكل جهد ثقافي عربي .

•

الف سنة تنقضي على ميلاد رجل ، والف عام ينصرم من حياة عبقرية ، فلا تزيد السنون المتطاولة اسمه الا اشراقاً ، ولا تصيب الاعوام المتعاقبة نتاجها الا بصقل يجلو تلك العبقرية الفذة .

ان هذا العمر المديد والاعمار التي ستتلوه كفيلة وحدهــا بتمجيد ذلك الرجل وتقديس تلك العبقرية .

ولبنان السباق في حمل امجاد لغتنـا ، والمتنبه اليقظ لواجباته في طليعة الشعوب العربية ، لم تفته المبادرة الى احيــاء ذكرى الفيلسوف الشاعر ، وهو في غمرة جهاده المظفر ، في سبيل حريته ، واستقلاله ، وكرامته .

وانه ليسرني ان تكون الصحف اللبنــانية عامة ، ومجلة الاديب الراقية بصورة خاصة ، قد افسحت صدرها للمساهمة في هذا الواجب القومي ، على اوسع نطاق تبيحه الظروف الراهنة .

وهذا العدد الخاص من مجلة الاديب الزاهرة دليل آخر على تحسس لبنان مهمته ، في صعيد الفكر ، وقيامه بذلك الواجب على اكمل وجه .

واني اذ اهنىء صاحب هذه المجلة الاديب لارجو له ولاسرة « الاديب » دوام التوفيق والازدهار .

بشاره الخوري



دولة الرئيس رياض بك الصلح يتلو من بيانه الوزاري
القسم الخاص بثقافة لبنان ومعارفه

كلمة دولة رئيس الوزراء

•

وكذلك تفضل حضرة صاحب الدولة رياض بك الصلح رئيس الوزارة اللبنانية بهذه التحية الكريمة الى ابي العلاء المعري والى الاديب . والاديب اذ تشكر دولة الزعيم ، أجمل الشكر ، على عنايته بوجه لبنان الثقافي الصحيح ، ترجو ان تكون هذه البادرة الطيبة طليعة تنظيم اصلاحي شامل لكل شؤون الثقافة والفكر في لبنان .

•

اذا شاق اللبنانيين ان يعنوا بتكريم الفيلسوف احمد بن عبدالله بن سليمان المعري ، لانقضاء الف عام على مولده ، فانما يسوقهم الى هذا التكريم شعور طاف بضخامة الثروة الفكرية التي تركها الجدود للاحفاد ، واذا همّهم ان يتباروا في تمجيد الغابر العربي ، والاشادة بالتراث القومي فلكي يتسابقوا في التدليل على حقيقة ذاتهم ، كأمة عريقة في اصولها وانسابها ، مجيدة في تاريخها وآدابها .

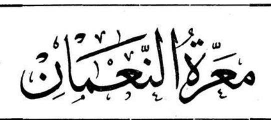
ان المعري واحد من مئات الجهابذة العرب الذين حفلت الانسانية بثمار عبقريتهم ، ونعمت بفيض علومهم ، غير انه ، وهو المحروم من نعمة البصر ، قد نفذ بنور البصيرة الى اعماق المجتمع ، وسبر غوره ، وذهب في الرأي والفلسفة مذاهب شغلت الكتّاب والنقّاد ، وتشغلهم الى ما شاء الله . .

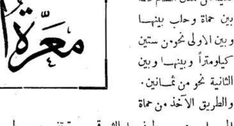
لقد عرف المعري قيمة نفسه ، وحقيقة ذاته عندما قال :

واني ، وان كنتُ الاخير زمانه ، لآتٍ بما لم تستطعه الاوائل ؟!

فلا عجب اذن ، ان جد اللبنانيون ، شعباً وحكومة ، لاحياء ذكراه ، واستقصاء آثاره ، واكتناه مناحي الفكر والادب عنده ، ولاجل ذلك نظمت وزارة التربية الوطنية اللبنانية ، في الامس القريب ، مهرجان المعري الحافل ، ولاجل ذلك ايضاً ، اصدرت اسرة الاديب هذا العدد الممتاز من مجلتها الراقية ، لتضيف مأثرة جديدة الى المآثر العديدة التي يسديها ابناء الوطن اللبناني الى لغة الضاد بسهرهم على احياء تراثها ، وتعزيز مكانتها ، ونشر آدابها في الشرق والغرب . ولا مراء في ان هذا العدد الممتاز الخاص بالمعري ، دلالة ناطقة بنتاج ثقافي جليل ، تسجله مجلة الاديب ، فتستحق على مجهودها أطيب الثناء .

رياض الصلح





معرة(*) النعمان مدينة قديمة من مدن الشام قائمة بين حماة وحلب بينهـا وبين الاولى نحو من ستين كيلومتراً وبينهـا وبين الثانية نحو من ثمـانين. والطريق الآخذ من حماة الى حلب يمر من طرفهـا الشرقي . وترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٦٥ متراً وطولها ٦١ درجة واربعون دقيقة وعرضهـا ٣٥ درجة و٤٥ دقيقة . وليس فيها ماء يسبح على وجه الارض وانما شرب اهلها من آبار تجمع من ماء المطر وركابا تنبع من باطن الارض منها ما هو ملح ومنها ما هو عذب وبساتينها تسقى من الركابا بواسطة دواليب. وليس لهذه المدينة تاريخ مختص بها يستطيع الانسان ان يقف منه على ما كانت عليه قبل الاسلام ولا ابقت الايام من آثار عمرانهـا الظاهر ما يدل على ما بلغت اليه لان توالي الكوارث والحروب عليها طمس معالمها ومحا آثارها .

وهذا لا يمنع الانسان من ان يحكم عليها بطريق الاستنباط والقياس على غيرها من المدن الشامية بانها جزء من بلاد الشام شاركها فيما تتابع عليها من المصائب من الغزاة والفاتحين من قتل وسبي وحرق وهدم وما شاكل ذلك من المنكرات التي تقترفها ذئاب البشر وقد شهدت ما يشهده غيرها من الفراعنة والاشوريين والفرس واليونان والرومان وغيرهم لان هذه الاصقاع كانت ولا تزال ميدانا تتطاحن فيه المطامع .

وقد عثر المنقبون فيها على شيء من المباني القديمة والمعابد المتهدمة والنواويس ومعاصر الزيت والآبار المطوية بالحجارة الضخمة وفيها كثير من الآثار المدفونة ولو اتيح لها من ينقب عنها لرأى ما يدل على انها كانت مدينة عظيمة آهلة بالسكان غنية بزراعتها وصناعتها واهلها يضيفون كل اثر قديم فيها الى الرومانيين .

في سنة ١٥ للهجرة افتتح ابو عبيدة مدينة حمـاة ومر بالمعرة فصالحه اهلها على مثل صلح اهل حمـاة ولما استخلف معاوية ولى النعمان بن بشير الانصاري حمص واضاف اليه المعرة فقيل معرة النعمان وقيل النعمان الذي اضيفت اليه غيره وقيل جبل.

وفي سنة ١٧٠ جعلها الرشيد من العواصم ، ثم تعاقبت عليها دول مختلفة فكانت تارة من عمل حماة واخرى من عمل حلب وثالثة من عمل حمص ورابعة اقطاعـاً لامير وكان لها في كل عهد نصيب وافر من النكبات من قتل وسبي واحراق وتخريب ورعي زرع وقطع شجر. واذا سلمت من اذى متغلب نالت قسطاً وافراً من عبث البداة واهل الدعارة فان نجت منه اصابها حظ عظيم من جور الطبيعة ما بين زلزال يقوض اركانها وطاعون يفني سكانها وقحط يبيد انسانها وحيوانها فان سلمت من كل ذلك قيض الله لها من ابنائها من ينوب مناب المتغلب ويسد مسد العيارين والدعارين ويفتك اكثر مما يفتك الطاعون والزلزال وهي لا تزال تنسج على هذا المنوال وتحتذي على هذا المثال.

ومن استقرى ما ألمّ بهـا من المحن والكوارث يعجب كيف كتب لها الخلود ولم تمح من صحيفة الوجود واليك طرفاً مما نزل بها بصورة مجملة .

في سنة ٢٠٨ هدم عبد الله بن طاهر حصون المعرة .

في سنة ٢٤٥ سقطت كنيسة هناك الكبرى من الزلزال.

في سنة ٢٨٨ حاصر المعرة جهير بن محمد التنوخي وطالت الحرب بينه وبين واليها ثم انصرف عنهـا. في سنة ٢٩٠ اوقع ابو الحجر المؤمل بن المصبح بأهل المعرة وقتلهم قتلًا ذريعاً.

وقتل صاحب الشامة القرمطي بضعة عشر الفاً منهم وظل يقتل وينهب ويحرق خمسة عشر يوماً .

وذكر ابن خلدون ان ذكروية داعية القرامطة سار من حمص الى حماة وبعلبك ثم الى سلمية فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم ونهب سائر القرى من كل النواحي .

وفي سنة ٣٢٥ اغارت بنو كلاب على المعرة .

وفي سنة ٣٢٩ يبس فيها شجر الزيتون بسبب الثلج والبرد.

وفي سنة ٣٥٧ افتتح نقفور ملك الروم المعرة، واحرق المسجد واكثر الدور واذاق اهلها من النكال ما لا تحمله الجبال .

وفي سنة ٣٥٩ صالح قرعونه غلام سيف الدولة ملك الروم على ثلاثة قناطير من الذهب عن حق الارض وسبعة قناطير عن خراج بلاد حلب والمعرة وغيرهما.

وفي سنة ٣٦٤ حاصرها بكجور واحرق احد ابوابها باب

* ينشر قريباً الاستاذ سليم الجندي كتاباً عن تاريخ المعرة وآثارهـا والادوار التي مرت عليها . وقد اختار للاديب هذا الفصل الموجز.

حمص . وفي سنة ٤١٧ تصدى صاحب الماخور الى امرأة فقتله الناس واحرقوا الماخور فحاصر المعرة صالح بن مرداس سنة ٤١٨ ونصب عليها المجانيق واعتقل سبعين رجلا من اعيانها وقطع وزيره على اهلها الف دينار فشفع فيهم ابو العلاء. ففك الحصار واطلق السجنى بعد سبعين يوماً وفي سنة ٤٤٠ هدم سورها خليفة بن جهان .

وفي سنة ٤٥٢ كلف اهلها بعمل السور .

وفي سنة ٤٥٧ صارت اقطاعاً الى هرون بن خان اخذها حرباً وخراجاً. وفي سنة ٤٦٠ غرم تاج الدولة اهلها مبالغ غظيمه ونهب قراها الشرقية .

وفي سنة ٤٩٢ افتتحها الصليبيون فقتلوا ما يزيد على مائة الف وهدموا السور والبروج واحرقوا المساجد ولم يبقوا ذخيرة الا استخرجوها. وفي سنة ٤٩٣ تحالف رضوان ومبارك امير بني كلاب فرعوا زرع المعرة واشتد الغلاء بسبب ذلك.

وفي سنة ٥٢٩ اخذها عماد الدين زنكي من الفرنج .

وفي سنة ٥٣١ رماها ملك الروم بالمجانيق .

وفي سنة ٥٥٢ خرب اكثرها بالزلزلة .

وفي سنة ٦٤٦ قدمها التتر وهدموا القلعة والسور .

وفي سنة ٦٦١ اغار عليها صاحب سيس الارمني .

وفي سنة ٦٩٩ اخذها التتر .

وفي سنة ٧٤٨ نهبها سيف بن فضل واشياعه واعوانه ورعوا الزروع والكروم والقطن والمقاثي وقطعوا السابلة .

وفي سنة ٨٠٣ افتتحها تيمور .

وما بين ذلك وقبله وبعده ذاقت الامرين ولقيت الاقورين وحسبنا ان نجتزىء بهذا القدر لنقيس عليه ايامها الخالية .

ذكر بعض المؤرخين ان للمعرة سبعة ابواب احدها باب شيث عند القبر المنسوب اليه وبينه وبين المعرة الآن نحو كيلو مترين وذكر آخر ان قبر يوشع عليه السلام داخل المعرة وهو الآن في آخر طرفها الجنوبي الشرقي فاذا صح ما قيل فهي مدينة عظيمة وآثار الابنية الشاخصة في اطرافها الى اليوم تدل على انها كانت عظيمة قديمة كما قال ياقوت.

ويظهر من كلام ابن جبير وابن بطوطة وشيخ الربوة وغيرهم انها كثيرة الاشجار واكثر شجرها الزيتون والتين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام واللوز والمشمش والتفاح والرمان وكثير من الفواكه ويتصل الثقاف ببساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وانها اخصب البلاد واكثرها ارزاقا .



المعري بريشة قيصر الجميل

وقد كانت فيها مدارس آهلة بطلاب العلم ومساجد عامرة بالمصلين والمعلمين والمتعلمين ثم اصابها ما اصابها مما اسلفنا ذكره فتقوض عمرانها وقل سكانها وصوح نبتها واخذت في التأخر في عهد الحكومة العثمانية. ولكنها بعد الحرب العامة دبت فيها روح الحياة الجديدة فهب اهلها للعمل واستيقظت حكومتها ففتحت فيها شارعاً يشق المدينة من الشرق الى الغرب وقد قامت فيه ابنية حديثة على الطراز الحديث وانارت المدينة بالكهرباء وشرعت في اعداد الوسائل لجر الماء اليها وقد عني اهلها بالزراعة فعسى ان تعود الى سيرتها الاولى وتسترد مكانتها السابقة .

ولعل احسن ايام مرت عليها ما بين القرن الثالث والسابع فقد كانت اوسع ماتكون عمرانا وازهرحضارة واكثر رجالا من العلماء والشعراء والحكماء والمؤرخين والقراء والمفسرين وغيرهم .

ولكن شيخنا ابا العلاء منذ ظهرفي هذه المدينة اخمل كل نابه، وصغر كل عظيم من اهلها وصرف الناس عن النظر اليهم بالنظر الى عبقريته وابداعه وشغلهم عن الانصراف الى آثار غيره بالاشتغال في آثاره فكانوا كالنجوم وكان فيهم كالشمس اذا ظهرت اخفى ضوؤها كل شارق وقد فطنت الامة وحكوماتها الى جلالة هذا الرجل الفذ فشيدت ضريحه على نمط يليق به واعدت العدد للاحتفال بذكراه بعد الف سنة من مولده .

دمشق — سليم الجندي

ابو العلاء المعلم

بقلم الدكتور اسحق موسى الحسيني

تناول الكتاب شخصية ابي العلاء من جميع نواحيها ، حتى يكاد الباحث المجتهد لا يجد ناحية خالية من الدرس والبحث . وقد رأيت وانا اقرأ سيرة ابي العلاء في كتب المتقدمين ناحية لم يطرقها احد من قبل ، اما سهواً واما استخفافاً . تلك هي شخصية ابي العلاء المعلم .

وقد بدت لي هذه الشخصية واضحة غاية الوضوح ، طريفة غاية الطرافة ، حتى لأكاد اقول ان ابا العلاء كان معلماً اكثر منه شاعراً وكاتباً وفيلسوفاً ، وانه لم يخلد على الزمن بشعره ونثره وفلسفته ،بل بهذه الرسالة « التعليمية » التي حملها زهاء نصف قرن وجعلت من بيته الصغير « دار علم » في الاسلام ، يجب ان تذكر الى جانب تلك الدور التي كانت منتشرة في امهات المدن الاسلامية في المشرق والمغرب ، والتي مهدت باذكاء روح العلم والمعرفة في طلاب العلم في جميع الاقطار العربية لقيام تلك المعاهد الكبرى التي نسميها تجوزاً الجامعات الاسلامية كالنظامية والمستنصرية .

وهذه النقطة الاخيرة مسألة عرضية لا اطيل البحث فيها . ولكني لا أرتاب في ان مدرسة ابي العلاء هيأت النفوس احسن تهيئة للاقبال على طلب العلم ،وان هذه التهيئة لا بد من ان تكون احد العوامل الخفية التي ادت الى ظهور المعاهد الكبرى ، والتي يهملها التاريخ عادة فيما يهمل من العوامل التي لا يلمسها الناس .

ولعل من حسن التوفيق ان اجد نصاً في كتاب ابن العديم يذكر « ان الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة ابي شجاع فاتك متولي حلب واعمالها يحمل هذا العالم الى مصر ليبني له « دار علم » يكون متقدماً فيها ، وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده وان عزيز الدولة نهض للوقت وسار الى معرة النعمان واجتمع بابي العلاء وقرأ السجل . وكتب الى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك فأعفاه وسومح بترك ذلك كله .

واذا كان ابو العلاء استعفى من قبول هذه الدار فلا شك في انه آثر البقاء في « دار علمه » المتواضعة التي كان يتوارد اليها الطلاب من جميع اطراف البلاد العربية ،وهذا دليل سلبي ، ولكنه ينهض مع فقدان النص الصريح بالتسمية، دليلا على ان ابا العلاء ما رفض دار القاهرة الا ليبقى في دار المعرة قانعاً بما حوله ، وبمن يفد عليه من طلاب علم :

قصدتك طلاب العلوم ولا ارى
للعلم باباً بعد ذلك يقرع
مات النهى وتعطلت اسبابه
وقضى التأدب والمكارم اجمع

لم اجد في كتب المتقدمين وصفاً لدار ابي العلاء . وكل ما قيل انها كانت داراً حسنة يأويها . وقد حججت سنة ١٩٣٧ الى المعرة وقصدت الدار فوجدت في احدى غرفها ضريراً يعلم على طريقة الكتاب ووجدت في اخرى شاهدة عبث بها وثالثة مقفلة مهجورة . وهذا ما رآه الاستاذ سامي الكيالي عند زيارته لها . ويقول الاستاذ ان الغرفة الثانية لا يزيد طولها على ثلاثة امتار وعرضها على مترين .

وعلى كل ففي هذه الدار ذات الغرف الثلاث جلس ابو العلاء للتدريس . ولعله اتخذ غرفة لمضجعه ، واخرى لمصلاه وثالثة لخدمه ويستأنس من نص رواه تلميذه ابو زكريا التبريزي انه كان يقعد للتدريس في مسجده . وليس ما يمنع ان يتسع المسجد لطلابه اذ المعقول انهم وفدوا عليه في اوقات مختلفة . واطول مدة قضاها عنده احد طلابه — الرئيس ابو المكارم الابهري — اربع سنين . واقام التبريزي اكثر من سنتين . توارد عليه الطلاب من اليمن ومكة والعراق والجبل والشام وديار مصر والاندلس .

يزورني الناس هذا ارضه يمن   من البلاد وهذا داره الحبش

ولم يمر بالمعرة وزير او فاضل الا قصده واستفاد منه او طلب شيئاً من تصنيفه . ولكن علمه تجاوز من حضره الى من لم يحضره فكتب اليه كثير من طلاب المعرفة من مختلف الطبقات،واجابهم جميعاً لا برسائل قصيرة بل بكتب وافية ضخمة . فهذا امير يسأله ان يؤلف كتاباً برسمه فيضع له كتاباً — اسمه تضمين الآي — في اربع مائة كراسة . وهذا واعظ يستعين به فيضع له كتاباً — اسمه المواعظ الست — في خمسة عشرة كراسة — وهذا كاتب قليل الصناعة يلتمس منه ما يستعين به على الكتابة فيضع له كتاباً — اسمه السجع السلطاني — في ثمانين كراسة . وهذا صديق يعتب فيكتب اليه «رسالة الغفران» . وهذا مسافر يطلب شيئاً يستعين به على شؤون دنياه فيضع له « سجع المضطرين » . وقس على ذلك عدداً كبيراً من الكتب والرسائل يشهد له بالمروءة والبر ،وبانه كان معلماً لعدد لا يحصى من طلاب المعرفة .

وعلم الشعراء مكانته (التعليمية) وتمكنه من اللغة والادب فعرضوا عليه شعرهم وحكموه بينهم . فهذا ابو نصر المنازي

يدخل عليه في جماعة من اهل الادب ، وينشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر وينشد المنازي قصيدته :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ   سقاه مضاعف الغيث العميم

فيحكم له ابو العلاء انه اشعر من في الشام . ثم يلقاه المنازي في جماعة من اهل الادب في بغداد ، وابو العلاء لايعرف منهم احدا فينشد كل واحد ما حضر من شعره ، وينشد المنازي .

لقد عرض الحمام لنا بسجع   اذا اصغى له ركب تلاحى

فيقول له ابو العلاء : ومن في العراق عطفاً على قوله ومن في الشام . وهذا كاتب ينفذ اليه نسخة من شعر البحتري لتصحح ، فيثبت له الاغلاط كأنه حاضر للقراءة . وهذا امير يبعث اليه نسخة من الحماسة يسأله ان يخرج في حواشيها ما لم يفسره المفسّر فيفرد له كتابا مقداره اربعون كراسة . وهذا طالب علم من اليمن يقع اليه كتاب في اللغة سقط اوله واعجبه جمعه فحمله معه الى الحج ، وعرضه على الادباء فلم يجد احداً يرشده . فدل على ابي العلاء فاجتمع به ، وعرفه ما حمله على الرحلة اليه . وما قرأ الطالب منه شيئاً حتى عرفه ابوالعلاء . وذكر له اسمه واسم مؤلفه واتم له النقص .

كان ابو العلاء كسائر علماء القدامى يلم بكل موضوع ، ولكنه تميز باحاطته بمفردات اللغة احاطة تكاد تكون منقطعة النظير . وطغت عليه هذه الظاهرة حتى افسدت عليه بعض كتبه . وقد علم طلابه ما علم . فعلم الحديث والفقه واللغة والشعر وما يتفرع عنها من نحو وغريب وعروض وما اليها . ووضع فيها الكتب منها ماهو تأليف ومنها ما هو شرح . فشرح كتاب سيبويه ، وخطبة ادب الكاتب ؛ وفسر شعر ابي تمام وشعر المتنبي . وذلك عدا شعره ونثره الذي كان يمليه على طلابه ويشرحه لهم ، ويجمعه في كتب منفردة . وتجاوزت رسالته « التعليمية » الافراد الى الجماعات . ولنسأل هنا : اكان ابو العلاء معلماً اولا ومصلحاً اجتماعيا ثانياً ام العكس ؟ والذي اراه ان كلا الرسالتين تنبعثان من منبع واحد . فالمعلم الحق هو مصلح . والمصلح الحق هو معلم . ورسالة المصلح والمعلم واحدة . واذا خلت رسالة المعلم من الاصلاح كانت رسالة جوفاء لا لب فيها ، واذا خلت رسالة المصلح من التعليم كانت دعوة بلا وسيلة . وابو العلاء كان معلماً حقاً . جمع بين طرفي الرسالة احسن جمع . علم من طلب العلم من قريب او بعيد . وعلم من لم يطلب العلم لا من قريب ولا من بعيد . وجعل للثاني عليه حقاً كحق الاول او يزيد .

رأى الناس يحكمون العاطفة بدل العقل فقال لهم :

* فشاور العقل واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمه النادي
* كذب الظن لا امام سوى العقل   مشيرا في صبحه والمساء
* نكذب العقل في تصديق كاذبهم   والعقل اولى باكرام وتصديق
* خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه   ولا يرجون غير المهيمن راج

وراى شرائع الناس افسدت ما بينهم فقال لهم :

* ان الشرائع القت بيننا احناً   واودعتنا افانين العداوات
* اذا رجع الحصيف الى حجاه   تهاون بالشرائع وازدراها .

ورأى الناس يطلبون المستحيل بالمستحيل فقال لهم :

* ازرى بكم يا ذوي الالباب اربعة   يتركن احلامكم نهب الجهالات
ودّ الصديق وعلم الكيمياء واحـ   ـكام النجوم وتفسير المنامات

ولست اطيل في شرح هذه المبادىء التي قامت عليها مدرسة ابي العلاء العامة ، فقد تناولها اكثر الذين كتبوا عنه حتى تضخمت شخصية ابي العلاء المصلح وطغت على سائر النواحي . والكتّاب معذورون في ذلك ، لا لانهم جهلوا ابا العلاء العالم ، وابا العلاء الشاعر ، وابا العلاء اللغوي ، وابا العلاء الكاتب ، ولكن لان ابا العلاء تفرد بهذه الرسالة واضفى عليها من روحه ، واكسبها قوة من بيانه . يضاف الى ذلك ان الناس في عصره فهموا الادب فهما ضيقاً . فهموه على انه بيان جميل رائع فحسب . وفهموا التعليم فهما قاصرا ، اذ حسبوه وسيلة لنقل المعارف فحسب . فجاء ابو العلاء وابان لهم رسالة الادب ورسالة التعليم كما يجب ان تكونا . فبهتهم حينا وبهرهم واثار اعجابهم في سائر الاحايين . لنوازن بين شعر ابي العلاء في اللزوميات وبين هاتين البيتين اللذين اوردهما بديع الزمان معاصر ابي العلاء — على لسان ابي الفتح .

النـاس حمر فجوّز   وابرز عليهـم وبرّز
حتى اذا نلت منهم   مـا تشتهيه ففرّز .

وعلى ضوء هذه الموازنة يزداد فهمنا لرسالة ابي العلاء ، المعلم الحق ، ونراها اشبه بالبرق اللامع في دياجير الظلمات .

وكيف كانت علاقة هذا المعلم بتلاميذه ؟

لا شك اولا في انه لم يتقاض من تلاميذه اجرا على تعليمهم . بل نحن نجد غير نص يشير الى انه كان يجري على جماعة منهم رزقا . وقصة ابي زكريا التبريزي شاهد صدق على ذلك . فقد روى انه حين قدم عليه اعطاه صرة فيها ذهب لينفق منه عليه وليتفرغ هو الى الاستفادة . فاخذ ابو العلاء الصرة ووضعها عنده . وتقدم الى وكيله واجرى للتبريزي ما تدعو اليه حاجته فتناول ذلك مدة مقامه في المعرة ، وهو يظن انه من ذهبه الذي دفعه الى الشيخ . فلما اراد الانصراف الى بلده دفع اليه ابو العلاء صرته بعينها . فحاول التبريزي ان يحمله على اخذها فامتنع .

سر ابي العلاء

لم لم يتزوج ؟

فرض له مرجحاته

اعد الاستاذ امين الخولي كتاباً عنوانه « راي في ابي العلاء » وهو بحث دقيق واسع ينتهي الى تقرير نتائج نلخصها للقراء فيا يلي ، الى ان يروا مقدماتها في الكتاب الذي سيطبع قريباً :

١ – ابو العلاء لم يقف في مسألة المعرفة ومنهج التفكير عند رأي بعينه ، بل ذكر كل ما فيها من آراء متقابلة .

٢ – ابو العلاء تتقابل آراؤه في كل شيء عن الدين والدنيا ، حتى ليستطاع وضع ثبت بمتقابلات معانيه التي قال فيها نعم ، كما قال لا ، واكثر منها .

٣ – ابو العلاء خاضع للناموس النفسي العام – ناموس مركب النقص – في حياته كلها ، وبهذه الحال النفسية يعلل تقابل آرائه .

٤ – هل ابو العلاء قد منعه من الزواج والنسل ، مانع جنسي ، لا الفلسفة ، ولا الزهد ؟ ولهذا المانع اثره النفسي الخطير الذي لا يجهل .

٥ – ابو العلاء رجل وجدان ، دقيق الحس عميق الادراك ، صادق التعبير جداً ، جريء التعرض للمعاني والخواطر ، لم يعمد الى تقية ولا استخفاء قوى اليقظة لنفسه ، قد صورها في آثاره ادق تصوير واصرحه ، وقد كاد ابو العلاء يكون ، بل قد كان في الادب العربي ، الرجل الذي وجد نفسه وتحدث عنها في صدق موثر ، وشجاعة باهرة ، وبدقة تثير الاعجاب ، فما جعل نفسه قيثارة لاطراب الاخرين ، ولا نايا تصفر فيه رياح اهوائهم او امجادهم .

والنتيجة الخامسة من هذه النتائج، نجد مقدماتها في فصل من بحث الاستاذ ، عنوانه « بين قول ابي العلاء وفعله » وقد خص « الاديب » بالقسم الخاص بهذا الغرض في تعليل عدم زواج ابي العلاء ، وفيه يقول :

بقلم امين الخولي

الاستاذ في كلية الآداب

في جامعة فؤاد الاول

ويبدو بره بتلاميذه في رفقه بهم وعطفه عليهم . ومن ذلك ما رواه التبريزي انه بينا كان قاعداً في مسجده يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه دخل فجأة جار له من بلده فتغير من الفرح . فقال له ابو العلاء : ما اصابك ؟ فحكى له انه رأى جاره بعد ان لم يلق احداً من بلده منذ سنتين . فقال له قم وكلمه . فقال التبريزي حتى اتم السبق . فقال ابو العلاء قم انا انتظرك فقام وكلمه ثم عاد .

واراد حساده ان يدسوا له في غير مسألة : فكانوا يغررون ببعض طلابه يدفعون اليهم الاسئلة ليحرجوه . وكان هو يدرك ذلك فلا يثور ولا يعنف ولا يزيد على ان يهدد بفراقهم .

ولم نعلم انه كلف احداً من تلاميذه ان ينسخ له . وانما وكل ذلك الى اقربائه ومن في جرايته . وخص ابن اخيه ابا محمد – الذي تولى قضاء المعرة زمن عمه – بكتابة الاجازة والسماع . وحتى هؤلاء الاقرباء والنساخ نالوا فوق ما يجب لهم من الشكر والعطاء . وقد اعتبر جميل ابن اخيه ابي محمد كجميل امه .

ولكن اسمى مظاهر البر بتلاميذه يبدو في هذا العمل الذي لا نجد له نظيراً في تاريخ المعلمين ذلك هو تأليف الكتب برسمهم وعلى اسمائهم . فوضع « ضوء السقط » لتلميذه ابي عبدالله الاصبهاني . ووضع « عون الجمل » – شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل – لخادمه وابن خادمه ابي الفتح ابن ابي هاشم . ووسم كتاباً من كتبه « بالمختصر الفتحي » باسم ابي الفتح السابق . وذلك عدا ما الف لطالبين شتى من غير تلاميذه .

وقد كنا نحسب ان رجلا في علم ابي العلاء ومزاجه وحاله الجسماني معرض لغرور ينتابه ، او للفظة نابية يوجهها في حال غضب لمن يجب عليهم احتماله من قريب او تلميذ . ولكنه بريء من هذا براءة صاحب الرسالة العامل بها او قل براءة المعلم الحق الذي يأخذ نفسه بالفضائل قبل ان يأخذ بها غيره .

ولست مغاليا بقولي ان ابا العلاء المعلم المصلح الثائر على الترهات والاباطيل ، الساخط على المظالم والآثام ، هو ابو العلاء الحق ، وهو ابو العلاء الخالد على الزمن وهو ابو العلاء الذي نذكره كلما افتنت العقول وذرت قرون الشياطين ، وبغى باغون افاكون او دجالون .

فما احوجنا الى رجل جريء صريح مثله ! وان كنا لا نجد في هذا العصر نظير ابي العلاء . فلنقرأ كتبه لعل فيها بعض العزاء .

القدس اسحق موسى الحسيني

... اما قناعة ابي العلاء بما كان يصيب من رزق جار محدود، فشيء قريب ممن كان له مثل حال ابي العلاء النفسية، ولكن هذا الرزق كان – كما قلنا قريباً – يكفيه مع زوج بدل الخادم، فلم لم يتزوج ابو العلاء؟ أكان حقاً يحرم النسل كما تقول هذه الاخبار؟ أكان ذلك رأياً فلسفياً له؟ اما انا فلا اقف عند ذلك ولا اقتنع، بعد الذي رأينا من مختلف رأيه في المرأة وفي النسل، كما في غيرهما. فلماذا جانب ابو العلاء المرأة؟

انه يتحدث عن زواجه في اللزوميات، فلنتبع متفرق هذا الحديث، لعلنا نظفر منه بجواب.

هو يقول:

انا للضرورة في الحياة مقارن	ما زلت اسبح في البحار الموّج
وصرورة في شيمتين، لانني	مذ كنت، لم احجج ولم اتزوج

ثم يقول:

اسير عن الدنيا وما انا ذاكر	لهـا بسلام ان احداثهـا خمس
صرورة ما حالين ما لكعابها	ولا الركن، تقبيل لدي ولا لمس
ولم اورث النصف الفتاة ولم ترث	بي الربع، بل ربع تطاول او خمس

فهو يجمع بين الحج والزوجة، في انه صرورة عنها، ومقارن للضرورة، كما يجمع بين الحج والزوجة، في حديثه عن غيره ممن يصيبونها وليسوا بأغنياء، اذ يقول:

قد يحج الفتى، ويغنى بعرس وهو من صرة اللجين صرورة

وهذا الجمع بين الحج والزواج يلفت النظر، ويثير السؤال، أهو يقدر الاستطاعة في العملين ولا يد له بها؟ ام ماذا؟ لقد بين هذا في الحج بوضوح اذ قال:

لا ملك لي وارى الدنيا تحاصرني وما حججت، وقد لاقيت احصارا

والاحصار هو المنع من الحج لعجز او مرض، يعقد له الفقهاء فصلا في كتاب الحج ليبينوا احكامه. ونحن نعرف ان ابا العلاء محصر عن الحج بضعفه وعجزه، اذ لا يستطيع بنفسه كما يقول. وأغلب الظن انه لا يجد في كبرته القدرة على نفقة السفر لهو لخادم، وهو يتحدث عن الحج والعجز مرة اخرى في قوله:

ولم اقض فرضاً في منى وبلادها وكم عاجز قد زارها متنفلا

وقد تكون فيه اشارة ما الى عجزه عن الحج...

كل هذا لفت نظري الى فرض: ان ابا العلاء قد عجز عن الحج والزواج او أحصر كما يقول، ما دام يجمعهما هذا الجمع وهو فرض لا بعد فيه. ولو تابعنا البحث عن هذا الفرض في شعره، لوجدنا ابا العلاء يتحدث عن اسرار في حياته، تارة تكون اسرار الكون، والمعرفة، وتارة تكون غير ذلك. ومن حديثه في الاسرار قوله:

طوى عنك سراً صاحب قبل شيبه فلما انجلى عنه الشباب جلاه

فهل يكون هذا السر الذي جهر به في شيبه، متصلًا بشبابه والزواج؟؟ ممكن ان يكون ذلك. ثم هو في حديثه عن حياته سامرياً – (أي وحيداً) يقول لامساس، كما قال السامري في بني اسرائيل – يعود لذكر سر فيه عذره فيقول:

ولم 'يطل سامري حديثي	بل عشت في الدهر سامرياً
لو علم العـاذلون سري	لاصبح القوم عاذرياً

فهل هو السر الذي يمس الزواج؟ قد يرجح هـذا، اذ هو يعلل الوحدة السامرية، ويعين عليه كل ما سبق من حديثه عن الزواج.

ونمضي قدماً فنراه يقول جهرة – في صراحته، وشجاعته التي عرفناها، وفي دقته التي اودع بها خواطره آثاره الادبية – يقول:

ولم يبق في دهره اجري	هواني فليناً عني هواني
وعندي سر بذي الحديث	كنت عنه في العالمين النواني
أذا رملة لم تجيء بالنبات	فقد جهلت ان سقتها السواني

أفلا يرجح هذا ان السر يخص الزواج، وانه محصر عن الزواج؟ وهلا 'يرى في البيت بعده، عن الرملة المجدبة، لا صواب في سقيها، ما يرجح هذا؟ لا أتحرج من ان ارجح واطمئن، الى ان ابا العلاء قد منعه من الزواج مانع مادي، وانه احصر عن الزواج احصار المحصر عن الحج. وفي كل حال، هو فرض في فهم الابيات الماضية أضعه بين أيدي الدارسين، ولهم رأيهم في قبوله او رفضه، امـا انا، فباطمئناني اليه، ارد سلوك ابي العلاء في الزواج والنسل، الى سبب مادي جسمي، لا لزهد ولا لفلسفة... وحين يصح هـذا التعليل، يفتح آفاقاً من البحث النفسي لبيان آثار هذا المانع، وهي تؤيد الحـالة النفسية السابقة، بل تستقل هذه الظاهرة بالتعليل والتبيين لنفسية الرجل...

القاهرة

امين الخولي

عُزلة أبي العلاء

بقلم الأب يوحنا قمير

استاذ الفلسفة العربية بجامعة القديس يوسف

نبذته ضوضاء الحياة فال عنها وانفرد
وغدا جماداً لا يجن ولا يميل الى احد ! (نعيمه)



عصر صاخب قلق ، طغت فيه شهوات الحياة ، وكثر كذلك النزاع والفساد ، رأى ابو العلاء نفسه اوهى من ان يصارع الناس ، وافقر من ان ينعم بملاذهم ، وافطن من ان ينخدع بريائهم ، فاعتزل الناس يبغي النجاة من اذاهم ، والتخلص من عناء مخاطبتهم ، وما درى انا سنعود بعـد الف سنة ، في عصر اصخب من عصره واقلق ، فندعوه الى عالم الاحياء ، لنصغي اليه ونتحدث عنه ، ونقول فيه ما يحب وما يكره .

اعتزل ابو العلاء آخر سنة اربعمائة ، وعاش نحو نصف قرن ، يقيه الناس بيت حقير ، ويحرمه الجمال بصر غائر ، ويمنعه الافلات جسد جان : سجون ثلاثة انطوت عليه ، وكأنها اكفان تعاونت الاقدار على نسجها .

ولكن لِمَ اختـار ابو العلاء هذه العزلة ، ورضي عن هذه الاكفان ؟ انه كاد يبلغ الاربعين ، وقد خبر الحياة ، وعرف الناس وطاف عواصم الشام ، وزار آخر ما زار بغداد ، حاضرة الفكر الكبرى ، فهل سئمت نفسه الحياة والبشر ، واتخمته خيرات الارض ، فتوحد زاهداً ناسكاً ؟

انك قد تتوهم ذلك لاول وهلة ، وربما تمادى بك الوهم فخلت ابا العلاء من هواة الكمال او طلاب الآخرة ، ولكنه وهم محض فهذا الهارب من الناس ينشد في وحدته ما لم يجده بينهم ، راحة القلب وهناء البال .

في الوحدة الراحة العظمى ، فآخي بها قلباً ، وفي الكون بين الناس اثقال

في الناس اهواء قديمة تسعى بهم ، اهواء منهومة تعللهم باللذة ، وتغريهم بالمنى ، ولكنها لذة ابداً فائتة ، ومنى ابداً هاربة

اذا اجزتَ مدى منها رأيت مدى ! . . .

وهو قد جارى هذه الاهواء زمناً ، وأمل الهناء وبلوغ الاماني ولكن خدعته الحياة ، آلمته وسخرت منه ، فنفر شاكياً مذعوراً نفرة الطفل من خدعة امه .

فلسفة الشرقي تاريخ قلبه ، وقلب ابي العلاء ، يوم عـاد من بغداد ، قلب حانق مكلوم ، واشلاء آمال غالية ، لهذا ستكون فلسفته في الحياة حنقاً وموتاً ، وعلاجه لاهوائه خنقاً وقطعاً ، مهما كلفه ذلك من وحشة وحرمان .

•

من اهواء الناس القديمة حب الغنى ، يرومون منه رخاء عيش وضمـان غد . وهو لقد صحبه مدة هذا الداء ، وقاده الغرور الى بغداد نفسها علّه يحظى هناك بالمال الوفير . ولكنه اراد الغـاية وأهمل الاسباب ، اراد المال وضن بماء الوجه ، وانفة الشاعر ، فلم يسأل ولم يمدح ، وعاد كما ذهب عديماً او كالعديم . اما اليوم فانه يعود الى فلسفة الشرق القديمة : القنـاعة غنى . له وقف يدر عليه ثلاثين ديناراً في السنة ، فسيقنع بهذا الريع الزهيد ، ينال به قوت اليوم وثوباً من القطن الخشن . سيعتاض عن الخمرة بما تقطره السماء ، وعن لحم الحيوان ونتاجه بما تثمره الارض من عدس وتين وبقول ، لان كل ذلك من حظ المالك الكثير ، ولانه بعد حريص على عقله من المسكر ، حريص على الرأفة بحيوان مظلوم كضعفاء العـالم المظلومين وهكذا سيعيش قنوعاً بما لديه ، زاهداً فيما سواه ، لا يقلقه هم الكسب ، او تذله هبة بشر ، وسيشفى من داء الغنى القديم :

الحمد لله قد اصبحت ذا دعة ارضى القليل ، ولا اهتم بالقوت

•

على ان هناك هوى اعمق من حب الغنى ، وابقى على الايام ، مهما الفى من خيبة وصادف من ألم ، هو هوى القلب يبحث ابداً عن الخل الوفي ، والزوج الامين .

وابو العلاء لم يكن صخرة صماء ، بل قلبـاً رقيقاً حساساً ، يشعر بالانس والالفة ، ويشعر بالحاجة الى قلب يشاطره آلامه ، ويد تمسح دموعه . ولكن بخل عليه الدهر بالصديق ، فخار في نفسه :

أيستثقل النـــاس ظله ، أم الصداقة وهم ونفاق ؟ انه قد لا يكون خفيفاً على الناس ، ولكنه لم ير في صداقات الآخرين – وما اكثر ما تطلع ! – سوى رياء متودد ، واثرة كامنة :

ومـا تحسن الايام ان ترزق الفتى – وان كان ذا حظ – صديقاً يوافقه
يضاحك خلٌّ خله ، وضميره عبوس ، وضاع الود لولا مرافقه

وانكمش ابو العلاء يائساً حانقــاً ، مفضلا استقرار القلب الموحش ، على قلق الامل المخدوع .

ولم يكن ابو العلاء بأقل حاجة الى عطف زوج رؤوم ، تحنو عليه اذا دهمه شر ، وتغذي فؤاده اذا آلمه الفراغ ، وكان يرى في الزواج تآلف قلبين يتبادلان الحب والنعيم ، فشجب تعدد الزوجات والجناية على الضرائر . ولكنّ اسباباً قوية حالت دون زواجه ، اسباباً مادية وروحية معاً . رأى المرأة في عصره ، عصر حضارة شامخة ، وفساد طام ، واخلاق بائرة ، فرابه ما رآه . رآهـا فتنة خطرة ، ولهواً مشاعاً ، تقصد الحمامـــات العامة لرغبة في النفس ، وتخرج الى الاعراس ضلالة للناظرين ، وتؤم اماكن الصلاة معبوداً ينازع ربه ، وتتصدى الزائر والجـــار غواية وسحراً . ان هي الا اغراء صارخ وشهوة تسعى . اما هو فقد فاته الغنى والجمال ، وخطا به العمر ، فمن اين له اشباع رغائب زوج ، وضمانة امانتهـــا ؟ ومن اين له القيام باعباء اسرة ، وهو العاجز عن القيـــام باعباء نفسه ؟ المرأة هناء مغر ، ورفيقة مونسة ، ولكن المرأة رغبات كثيرة ، وعبء ثقيل ، وقلب متطلع ، وآثر ابو العلاء مرة ثانية وحشة القلب الخالي على ريبة الزوج المخدوع ، وهمّ الوالد المعول :

وهون ارزاء الحوادث انني وحيد اعانيها بغير عيال
فدعني واهوالا امارس ضنكها واياك عني لا تقف بحيالي !

●

هذا هو النظام الذي سنه ابو العلاء لنفسه في عزلته . لا غنى ولا صديق ، لا زوج ولا ولد . يد فارغة وقلب خال . شهوة هامدة وروح لا تحس . وكأن صلابة الجماد غاية ما يصبو اليه :

من لي بجسم لا يحس رزية لكن يعدّ كتربة او جلمد ؟!

●

والآن ما عسانا نقول في هذا النظام ؟

نحن لا نضمر لابي العلاء شراً على زهده بالمـــال ، فهذا الزهد حماه من الحركة الباطلة ، وحمى شعره من المدح الفارغ ، فكان لنا شعر فلسفي ، وفن خالص .

على اننا لا نجاريه في تشاؤمه ، لا نشاركه يأسه من وفـاء الناس ، وسوء ظنه في طهر المرأة وامانتها .

الوفاء هبة سامية ، وبالتـــالي صفة نادرة في البشر كالجمال والنبوغ . وقد كان العرب انفذ الناس بصراً في فهم هذه الناحية من الوفاء ، فاكبروه وعظموه ، وتمثلوا بابنـــائه النادرين . كل يحدثك عن وفائه ، وعن خيانة الآخرين ، والحق ان الحياة لم تعد جميع الناس ليكونوا اوفياء ، فتثبت اولا من نعمة الحياة عليك ، واطلب الوفاء في اهله ، اذا اردت السلامة من مرارة الخيبة . وان لم تنعم الحياة ، فلا تكن ظالماً ، لا تطلب من الناس ما لا تطلبه من نفسك ، او ما لا يستطيعونه . وربمـا كان على ابي العلاء ان يقنع بالوفاء اليسير كما قنع بالمال اليسير .

اما المرأة فهي ابداً حديث الناس ، وموضوع نزاعهم . وهي خليقة مزهوة ، يؤلمها الاعراض ، ويفتنها اهتمام الرجل بها ، والتحدث عنها اطراها او نقم عليها . وهذا الزهو اطلاء يحجب عن الرجل ما فيها من تفان وحنان ، ويخدعه غالبـاً عن نواياها ، فيتوهمها شهوة دنسة ، يوم لا تنوي ان تكون سوى أهبة للعين ، وزينة الحيـــاة الدنيا . ولعل لحقد ابي العلاء على المرأة سبباً آخر ، هو امله الضئيل بالحظوة لديها :

ولم اعرض عن اللذات الا لان خيارها عني خنسنه !

ولكن لا ننقمن على ابي العـــلاء . ان هذا المتبتل تفرغ من ملاهي الزواج واعبائه ، وانصرف الى قلبه يستقطر مـــا فيه من يأس ومرارة ، والى عقله يصفي مـــا فيه من اختبار وتفكير ، ليسكب كل ذلك في شعر خالص جمالا وفكراً . وان ابداع الجمال ونثر الفكر لأجدى احياناً من اعطاء النسل وتكثير النوع .

وقـــد لا يكون هذا الخلق الفكري سوى حيلة من حيل الطبيعة . انه يوم انكمش قلب ابي العلاء يائساً من البشر ، ناقمـاً عليهم ، أطل عقله يرسل فيهم النور صلات صافية ، وعلاقـــات جديدة ، لان الانسان اعجز من ان ينسى النـــاس . وقد استهوى البشر هذا النور ، فاذا تلامذة يترددون الى ابي العلاء ، ويراسلونه واذا به يفتح لهم بابه ، ويلي عليهم شعره : هو القلب يضيق الحدود ، ويضع الحواجز ، اما الفكر فينقض ويهدم ، ويمرح من جو الى جو حراً طليقاً .

وانها لعزلة مباركة حرمت ابا العلاء بعض انس وبعض هناء ، لتنعم عليه بالانتاج الخصب ، والاسم الباقي ، وتنعم علينا بفكر غني قلق ، هو من اطرف ما ابدعه عقل عربي خالص .

الاب يوحنا قمير

أبو العلاء يكافح الحياة

بقلم الآنسة ابنة الشاطئ

ماجستير في الآداب من جامعة فؤاد الاول

- تشاؤم ابي العلاء ورده الى دواعيه
- متاعبه في حياته الخاصة
- نضاله مع الدنيا وهزيمته في هذا النضال
- سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه .

خرج ابو العلاء يرتاد آفاق الحياة الانسانية باحثاً متأملاً ، وتصدى لمواجهة مشكلات هذه الحياة على ما فيها من دقة وتعقيد وغموض .

لِمَ خلق الانسان ؟

وماذا يلقى من متاعب الحياة ؟

وماذا يقترف من الاخطاء ؟

والى اين المصير ؟

ومن الطبيعي ان تكون نظرته الى الحياة الانسانية العامة ، متأثرة بحياته الخاصة ، ومن ثم نرى ان نلم بهذه الحياة الخاصة ، ونرصد ما فيها من متاعب قبل ان نصحبه وهو يجتاز مراحل الحياة الانسانية ويرصد متاعبها واخطاءها .

حياة ابي العلاء شاحبة عابسة ، استقبلته الدنيا والشمس تنحدر الى مغربها والكون يتشح بغلالة شاحبة من اضواء غاربة ما لبثت ان ذابت في ظلام ليلة حالكة من ليالي المحاق ! قالوا : كانت ولادته يوم الجمعة عند مغرب الشمس لثلاث بقين من ربيع الاول سنة ٣٦٣ هـ » .

وعجل القدر بأساته فاعتل علة الجدري التي ذهب فيها بصره سنة ٣٦٧ هـ وهكذا شاع الظلام في دنياه وهو بعد طفل يستقبل الحياة واسدل بينه وبين الدنيا ستار حالك السواد قبل ان يمضي من عمره اربع سنوات .

استقبلته الايام عابسة وكشفت له عن اظلم جانب فيها واخذته بالقسوة والعنف ، ولداته يعيشون ويلهون فارغي البال من هموم العيش ونكد الايام .

ومضت اعوام عشرة ، اخذ الصبي نفسه خلالها بالجلد والاستسلام وتكلف الشجاعة والصبر لكنه لم يكد يتجلد للمحنة ويعتادها ، حتى دهمته فاجعة اليمة اذهلته وهاجت احزان ماضيه ، فنكأت الجرح وما كاد يندمل . رحل عنه ابوه الى غير رجعة فولى معه الرفيق الكريم والضمير البار .

هنالك وقف الفتى في تيه الحياة يفتقد العصا التي كان يتوكأ عليها ويهتدي بها في الظلمات ، فألفى يده منها صفراً ، واذا به يخبط في التيه ضالاً جريحاً متعباً .

ولكن بدأ كرمة رفيقة امتدت اليه فردت اليه بعض الجلد وبعض العزاء ، وانثنت الى كلومه تأسوها في حنان الانوثة الرفيقة وحب الامومة البارة . فصمد الفتى لأساته وتجلد لها مرة ثانية ، وانبثقت فيه قوى جديدة تغريه بالنضال . واشرقت في دنياه المظلمة بارقة امل ، فواجه الحياة متجلداً شجاعاً — واندس في دنيا الناس يفرض نفسه عليها ويغتصب مكانه على مائدة الحياة بعد ان نحي عنه . روى المؤرخون انه « كان في اثناء شبيبته يجالس الظرفاء ، ويتصرف في فنون الهزل والجد ، ويلعب النرد والشطرنج ، ويقول انه يحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر » .

وقد غادر قريته بعد ان لزمها خمس عشرة سنة لعله امضاها في النضال بينه وبين نفسه وجمع امره والتزود بما يحتاج اليه من عدة وعزم للنضال في دنيا الناس .

خرج الى بغداد آخر سنة ٣٩٨ هـ ، وانها يومئذ لعروس الدنيا ، ومركز الحضارة الشرقية وملتقى الرواد والتجار ومقام الاشراف من العرب والعجم ، ومقصد الشعراء والرواة والعلماء والفقهاء والطلاب من جميع الانحاء .

لماذا خرج الى بغداد ؟ — سكت ياقوت فلم يزد على ان سجل الرحلة ، وكذلك فعل ابن خلكان وان كان قد جعل الرحلة اثنتين ، وتبعه في ذلك جرجي زيـدان ، ونقله عنه ابن العماد في شذرات الذهب. كذلك سكت الخطيب البغدادي فلم يذكر لنا فيم كانت الرحلة الى بغداد.

وردتها دائرة المعارف الاسلامية الى « اسباب مجهولة » وان لم تستبعد « ان يكون في شبابه قد شعر بقيود الحياة الريفية ونزع الى ميدان اوسع تقدر فيه مواهبه ».

وذكر الذهبي انه سافر اليها متظلماً شاكياً ، تعرض صاحب حلب لما في يده من الوقف الضئيل. وهو سبب شك فيه مرجليوث وسلامون والدكتور طه حسين بك ، لاسباب اوردها في كتابه « ذكرى ابي العلاء ».

ورد الدكتور طه حسين تلك الرحلة الى اسبـاب اخرى ، قال انه « يعتقد ان حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش وبغض الحياة السياسية بحلب ، هي التي كونت في نفس ابي العلاء عزمه الرحلة من بلاد الشام الى بلاد العراق »

وقال مرجليوث : لقد يقبل ان ضياع وقف الشاعر سبباً من اسباب رحيله عن المعرة ، ولكنه لا يجعلنا نفرض انه رحل الى بغداد لاسترداده. ورسائله وآثاره لا تذكر شيئاً عن هذا الوقف. وغير مستغرب ولا شاذ ان رجلاً ظفر بحظ من الشهرة ، يرغب في ان يجرب حظه في العاصمة ».

اما ان ابا العلاء كان يبغض الحياة السياسية في حلب ، فأمر لا نشك فيه ، واما هذه الثروة التي راح ينشدها في بغداد فامر غير مستغرب لولا ان ابا العلاء نفسه قد الح في انكار انه ذهب يستكثر من الغنى وهو يقول : واحلف ما سافرت استكثر من النشب» وهذه جملة املاها مطمئناً رزينا منصرفا الى نفسه وخوطره املاها في رسالته الى اهل المعرة ، وهي رسالة مطمئنة لم تصدر عنه سريعة ولا مرتجلة وانما صدرت عن روية وتفكير ، كان رأيه فيها : « ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه سليل الفكر الطويل » .

ابو العلاء كما رأيت ينفي ان يكون قد سافر يستكثر الغنى وهذا يبدو مخالفا لرأي الدكتور طه حسين بك. ولكنا لا نبرىء ابا العلاء من الرغبة في سعة العيش وان كنا نصدقه في قوله انه لم يسافر استكثاراً من النشب ، فليس ببعيد ان يكون قد رغب في الثروة ولكن الثروة لم تكن غاية بل كانت وسيلة الى غاية اخرى كان يرجوها في بغداد. والا لبقي في بغداد حين عرض اهلها عليه اموالهم عرض الجد ، فوجدوه غير جذل بالصلات ولا هش الى معروف الاقوام.

ما هذه الغاية البعيدة التي راح ينشدها في بغداد ؟

حب العلم وطلب الشهرة ؟

نعم ولكنا نضيف اليها غاية اخرى نتلمسها من حالته النفسية في تلك الفترة الفاصلة بين طوري حياته.

كانت غايته تأييد نضاله مع الدنيا ، واعلان الناس بتفوقه وامتيازه.

يبدو لنا من تفهم حالته النفسية وطول صحبته انه خرج الى بغداد يؤيد نضاله على الدنيا ، وانتصاره عليها ، هذا النضال الذي بدأه في شبيبته وتمثل لنا فيه ، تحديه للدنيا وتظاهره بالاستخفاف بمتاعبها. ولقد سمعت مـا رواه المؤرخون عن مجالسته الظرفاء ، وتصرفه في فنون الهزل والجد ولعبه النرد والشطرنج ، وحمده الله على العمى. وظهر هذا النضال واضحاً في شعر الشباب. فقد قال في ذلك العهد :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم ... بإخفاء شمس ضوءها متكامل
يهم الليالي بعض ما انا مضمر ... ويثقل رضوى دون ما انا حامل
واني وان كنت الاخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الاوائل
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي ... على انني بين السماكين نازل
لدى وطن يشتاقه كل سيد ... ويقصر عن ادراكه المتناول
ينافس يومي فيّ امسي تشرفاً ... وتحسد اسحاري علي الاصائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه ... فلست أبالي من تغول الغوائل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي ... ولو مات زندي ما بكته الانامل

هذا هو حديث النفس التي تناضل عن حقها في الحياة وتعلن بامتيازها وتفوقها ، وتتحدى الايام بعجزها عن النيل منهـا ، مهما اكثرت من مصائبها واثقلت من احمالها.

لمثل هذا خرج ابو العلاء الى بغداد. خرج يؤيد نضاله على الدنيا وانتصاره عليها. خرج يعلن الناس بمكانه ويفرض نفسه عليهم ، ويدفعهم الى الاعتراف به ويعرض طبيعته الممتازة وذكاءه النادر ، ليثبت ان الايام لم تهزمه وان محنته لا تحول دون تفوقه وامتيازه.

واذكر هنـا ما رواه ياقوت ، عن قصة الكلب : قال انه دخل على الشريف المرتضي وهو ببغداد فعثر برجل فقال من هذا الكلب ؟ فاجاب ابو العـلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً !.

تلك قصة اوردها ياقوت في معرض الحديث عن ذكائه ونقلها

عنه السيوطي ، ونقلها كذلك تيمور باشا فأوردها في فصل « في مبلغ علمه وذكائه » . ولكني اوردها هنا لشيء غير التندر بذكائه والاشادة بعلمه ، انني اقف عندها طويلاً فألمح وراءها معنى بعيداً . هي تكشف لي عن عزم ابي العلاء على النضال ، وتعلن تحديه للدنيا والنـاس ، واصراره على ان يفرض نفسه عليهم ، انه يقول لقد امتحنتني الايام ، ولكنها لم تهزمني ! افسحوا لي مكاني بينكم ، فان محنتي لا تحول دون تفوقي وامتيازي ! من شاء فليتقدم لمنافرتي والكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

خرج ابو العلاء اذن مناضلاً عن نفسه ، يطلب مكانه الجدير به فماذا لقي في بغداد وكيف كان النضال ؟

اما الناس فاعترفوا به وافسحوا له مكانه بين الخاصة الممتازين واما الدنيا فتصدت له ساخرة بما اصطنع من جلد وما تكلف من شجاعة : رأته يتحداهـا فساقت ما زهده في النضال وكفه عنه وانت تذكر كيف اخرج من مجلس الشريف المرتضى ذليلاً مهاناً وتذكر قصته مع ابي الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي اذ استأذن عليه فقال : « ليصعد الاسطبل (الاعمى) ولست في حاجة الى ان نذكر لك اثر ذلك في نفس شاعرة دقيقة الحس ، قليلة التصبر ، شديدة الكبرياء ، كنفس ابي العلاء » .

كان هذا كفيلاً بان يجعل مكانه في بغداد ، في دنيا الناس ، قلقاً غير مطمئن لكنه تجلد ليهيئ نفسه للعودة الى دنياه ، وساعده على التجلد ان الحياة العلمية في بغداد في ذلك الحين كانت تهيء له غير قليل من المتاع ، وكانت حفاوة البغداديين به تربطه اليهم وتحببهم اليه وقد افسحوا له مكانه الجدير به ، فتأثر بتقديرهم ، ورأى في البقاء بينهم لوناً من الوان الوفاء والاعتراف بالجميل .

وجاءه خبر من معرة النعمان ان امه مريضة فازعجه عن بغداد او قل عجل باخراجه منها . فقد يبدو لنا انه كان على نية الرحيل مرضت امه او لم تمرض — ولست انسى انه قـال يعلل رحيله عن بغداد :

اثارني عنكم امران ، والدة لم ألقها وثراء عاد مسفوتا

ذانكم سببان ظاهران للسفر ، ولكنه انما تعلل بهما ووراءهما سبب بعيد ، هو ما قدمنا من قلق مكانه في بغداد ، ودقة حسه لما لقي فيها .

لو انه ترك بغداد لمرض امه حقاً لعاد اليها بعد ان ماتت . ولو انه تركها لفشله في طلب الثروة لردته اليها الاموال التي عرضهـا البغداديون عليه عرض الجد فيما يقول ، انما هي تعلة الرجل المتعب ، الذي اجمع امره على الرحيل والعزلة . اجل ، لم يكن رحيله عن بغداد فجأة حين ازعجه مرض امه ولم يكن اجماع امره على العزلة ، نتيج الساعة ، ولكنه سليل الفكر الطويل ، ثم كان مرض امه وعجز ثروته الضئيلة عن مؤاساته على العيش في بغداد فعجل بالسفر . كان في نيته ان يرحل دون ان يحدد متى وكيف ، فجاء خبر مرض امه ، مؤذناً بموعد الرحيل .

اخذ الطريق الى امه وان نفسه لتهفو الى ساعة يلقاها ، فيغرق آلامه في حنانها الكبير ويستمد السلوى والعزاء ، وعاودته ذكرى ما لقي في بغداد ، ولكنه اعتصم بذكرى امه ، وتمثل له ما سوف يلقى من نعيم وراحة بين احضانها ، وانه لغارق في تأملاته ، معتصم باحلامه ، اذ ماتت امه فتداعى للمصاب وتمت المأساة . صحا الرجل من غفوة احلامه على صوت الفاجعة الجديدة فادرك في يقظة مباغتة انه ضائع الحيلة امام مصائب القدر وكوارث الايام . هنالك عزم على وضع حد للنضال الذي ارهقه ، ومضى يبهم بكلمات نائحة نادبة ، ويلهو باحزانه ويتفنن بتصويرها ، وكأنه يستمريء طعمها « ياقاب لعل اسودك زنجي من ولد حام . . . الا تبتئس لاول من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع من تقوض الاقربين ؟ يا شمال ألم يحزنك شلل اليمين ؟ اقمت وتحمل الناس ، وان لحاقي بالظاعن لوشيك . عند الله احتسب ما رزئت من اهل ولقيت من هم كاد الغربيب له يشيب ، وتعب رسخ ألمه في الاعضاء » .

رحمك الله من ساكنة رمس ، اصبحت حياتك كأمس
فان ينقطـع منك الرجـاء فانه سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

لا آمل بعدها خيراً ، ولا ازيد في المحن الا ايضاعاً وسبراً . ياساوة الايام موعدك الحشر . موعد والله بعيد . . . وحزني لفقدها كنعيم اهل الجنة كلما نفد جدد ، وشرحه املال سامع وافنـاء زمان » .

هكذا انتهت الرحلة وآوى المتعب الى بيته فاذا الظلام يكتنفه . وقد اختفت منه الابتسامة الوحيدة التي اشرقت في أساه ، وتلاشى شعاع النور الذي اضاء في حياته المظلمة آب المسافر من سفره وحط رحاله بعد ان اتم التجربة . كانت الحياة كما رأيت قد اخذته بانواع من القيود فثار ولكن ثورته لم تفكها وانما تحطمت على صخرة الاحزان . حاول ان يشغل عنها بالناس والدنيا لا ينساها في زحمة الحياة ، ولكنه وجد هناك ما ازعجه عنها وما ملأ نفسه مللاً وتعباً .

وعـاد يلتمس العزاء في احضان امه ولكن امه قد مضت

ومضى معها العزاء . هنالك زهد في دنيا الناس وصدف عما تركت له من تافه الملذات . « وانطوى على ياس ومجانبة الناس ».

هذه حياة الرجل قبل العزلة وهذه هي متاعبه وآلامه ، فهل استراح في عزلته وهدأ الى اليأس وكف عن النضال ؟

ظن الكثيرون ان ابا العلاء حين اعتزل قد راض نفسه على الرضى بما قدر له، والاستسلام لما اريد به، والصبر على ما امتحن به ولكن الحقيقة ان ابا العلاء لم يذق لذة الصبر وان تكلف الصبر. ولم يرض بمحنته وان تظاهر بالرضا والاستسلام . انما رأى الرجل انه ضائع الحيلة لا يملك لنفسه شيئاً ، فانطوى على نفسه ، يعالج همومه ، ويتكلف الصبر ، والصبر عنه بعيد .

حديثه عن مأساته : —

ونحن نتركه آلان يحدث عن مأساته فسنرى في حديثه مرارة مؤثرة وأنيناً مكنوماً ، وصراخاً ابح ، وشكاة موجعة باكية . .

قال في اللزوميات :

رب متى أرحل عن هذه الد   نيا فاني قد اطلت المقام
لم ادر ما نجمي ولكنه   في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي   ولا عدوي يتخشى انتقام

والعيش سقم للفتى منصب   والموت يأتي بشفاء السقام

*

ويلكم ان رأيتموني يوماً   حبة في الثرى فلا تلقطوني
بت كالواو بين ياء وكسر   لا يلام الرجال ان يسقطوني

*

اجامل الناس ولو أنني   كشفت ما في السر اخزاني
أسيت من نقصي ولكن ما   يظهر من غيري عزاني

*

اراني في قيد الحياة مكلفاً   ثقائل اشي تحتها واطابق

*

من عفرة القوم ان كنوا وليدهم   ابا فلان ، ولم ينسل ولا بلغا
كالسيف سمي قطاعاً وما ضربت   به الاكف ولا في هامة ولغا

*

عرفت صروفه فأزمت منها   على سن بن تجربة مسن
وافقرني الى من ليس مثلي   كما افتقر السنان الى المسن

*

اذا لم يكن خلفي كبير يضيعه   حمامي ولا طفل ، ففيم حياتي

*

اذا طفئت في الثرى اعين   فقد امنت من عمى او رمد

*

فيا دار الخسار الى خلاص   فاذهب في الجنوب او الشمال

مباراة ابي العلاء المعري

*

تقيم « الاديب » مباراة تقدم فيها مئتي (٢٠٠) ليرة لبنانية جائزة لاحسن بحث جديد من ابي العلاء المعري. وقد قدم هذه الجائزة الوجيه نقولا بك ابراهيم سرسق

١ — الاشتراك في المباراة مباح للجميع

٢ — يجوز للمشترك ان يتناول في بحثه أي جانب شاء من جوانب ابي العلاء المعري على ان ترى لجنة المباراة فيه طرافة وابتكاراً.

٣ — يجب ان لا يقل البحث عن ثلاث صفحات من الاديب ، وان لا يكون قد نشر قبل الآن.

٤ — تنتهي مدة قبول الابحاث في ١٥ ايلول « سبتمبر » ١٩٤٤ وتعلن النتائج في جزء تشرين الاول من الاديب

٥ — تحكم بين المتبارين لجنة تختارها الاديب وتعلن اسماء اعضائها مع اعلان النتيجة.

٦ — للاديب ان تختار من ابحاث المباراة ما تشاء للنشر على صفحاتها بعد اعلان نتيجة المباراة.

٧ — ترسل الابحاث الى « الاديب » ضمن ظرف يكتب عليه « مباراة ابي العلاء ». ويذيل البحث بتوقيع مستعار ويوضع الاسم المستعار والاسم الحقيقي ضمن ظرف صغير مرفق بالبحث.

وظلم ان احاول فيك ربحاً ولم اخرج اليك برأس مال

*

وهون ارزاء الحوادث انني وحيد اعانيها بغير عيال
فدعني واهوالا امارس ضنكها واياك عني لا تقف بحيالي

*

واصبحت في الدنيا غبينا مرزءاً فأعفيت نسلي من اذاة ومن غبن
فان تحكمي بالجور في توفي ابي فلن تحكميه في بناتي ولا في ابني

*

وقال في الفصول والغايات :

ما اضيق علي دنياي ! وانت المفزع اذا بطل كل احتيال .

يانفس العبر ، لا تبغين على الغير ، اما اصلك فقد ذهب ، واما الفوع فلا فرع لك ، انما انت كشبا عشى ماء مطحلبا .

ان جناحي لهيض ، طرت في الصعيد ، فوقعت غير بعيد ، والله منهض المنهاضين اصبح وابيت ، وانا الضعيف الهبيت ، ولو شاء خالقي لجعلني القوي المزير .

يانفس ، كأني بك وقد بنت ، عن غير ابن الك ولا بنت ، طالما رنت وارنت ، فالان خبت وخبنت ، اما عملك فشنت ، اردت الزين فما زنت ، فرحمك الله اذ حنت . . . اي خير لم يبدني ، والاجل يحذني ، يقطع سببي ويجذني ، كأن الايام تخذني ، تأكلني فتلذني ، والله العالم بعبده اذا جالت فيه الظنون .

طلبني الزمان بوتر ، ورماني بالقتر ما ترك لي غير فتر ، غير ملق جسد تحت الصفاح .

الله مملك الملوك وانا معترف مقر ان شهد الدنيا مقر وان عتبها مقتقر ، اعوزني فيه مسكن آرز اليه واستكن ، وتبوأت الناسجة بين المناب .

اضحك فلا ضحك ، وانا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ، فعلي بالاسف ما دعت الحمامة حماما ! انما انا كرجل بلي بالصدى لا يجد ورداً ولا مورداً فهو ظمآن ابداً ان ورد عزوفا وحده مضفوفاً ، وان صادف نزوعاً ، اعوزته الآلة والمعين .

ارتفع والقدر يكبني ، يألبني دائما ويلبني ، كم استنمر وانا من البغاث ! كم بت وظللت ، فقد سئمت الحياة ومللت ! كم ابللت من المرض فما بللت .

أي صديق لي وأي نسيب ؟ اني في الوطن لغريب !
لا اعتدل ابداً ولا استقيم ! مغبون في الدنيا غبين . . .

●

والذين يظنون ابا العلاء قد زهد في المجد والشهرة مخطئون ، فقد كان الرجل شديد الكبرياء والاعتداد بعلمه وذكائه ، حريصاً على ان يعرفها الناس ، شاكراً من يعرفها ، ساخطاً على من ينكرهما .

كتب الى ابي قاسم المغربي في رسالة الاغريض : وجعل الله رتبته . . . لا تنخفض ابداً فقد جعلني ان انحدرت عرف شأني ، وان غبت لم يجهل مكاني .

وقد غضب حين تلي عليه كتاب ابي الحسن التكتي البصري ان قصر اسمه وحرفه فاسماه محمداً ابا العلاء ، قال رداً عليه : « اما السمة فغيرها ، واما الكنية فقصرها ، فانا لله وانا اليه راجعون — هذا امر الله — ليس هو من ضعف الشاعر ولا من وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، والاتفاق الردي ، لمن سمي وذكر .

« ولا يقل سيدي الشيخ ، ادام الله عزه : قد قصرت الشعراء . . . فانه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته ، ولكنه الغى الضرورات كلها ، ورفض العيوب فلم يستعملها . »

أرأيت كيف غضب المعري وتألم ، وثار واستسلم ؟ أرأيت كيف فزع لقصر اسمه ثم تماسك وظنها ضرورة شاعر . ثم ادركه الشك فمضى يفتقد ضرورة اخرى في رسالة صاحبه ، واخذ يستعرضها في صبر عجيب حتى اتى عليها فاذا بها خالٍ من الضرورات ، بريئة من عيوب الشعر . هنالك فزع ابو العلاء وارتاع ، بدأ يعاتب صاحبه في سخرية ولكن المرارة غلبته فهتف في حزن وشكوى « وانا ثبوتت من ذلك لاني قصير الهمة قصير اليد ، مقصور النظر مقصور في البيت ، فكأني محبوس فيه فما كفاني ذلك مع قصر الجسم ، حتى يضاف اليه قصر الاسم لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لو كنت اطول من ظل الرمح لصرت اقصر من سالفة الذباب قد كدت امصح في الارض كما تمصح الظلال » .

تلك حياة الرجل الخاصة ، فاذا تجاوزتها الى الحياة العامة في حلب وفي بغداد وفي البلاد الاسلامية بوجه عام ألفيت شراً ونكراً . فقد ضمت الدولة شعوبا متنافرة شتى ، واندست اليها لوثات دينية واجتماعية ، شاذة من كل مكان .

كانت الحياة السياسية على حال من السوء يدعو الى التشاؤم . لم يظهر هذا السوء فجأة في ذلك العهد ، وانما تقدمته اسباب وطلائع ظلت تعمل في جسم الدولة حتى صار هرماً منخوباً .

وكانت قوة شخصية الخلفاء في العهد العباسي الاول تؤخر المأساة ، حتى اذا كان العصر الثاني ، ضاعت هذه القوة .

لم يعد للخليفة هيبة ، فهو مراقب مسجون ، ينتظر القتل

والعزل ، لا رأي له في اختياره او عزله ،يثور به الخدم وتستبد به النساء ، ويلعب به الوزراء ويضحك منه الجند ، وتحوطه الاعداء من كل ناحية من بيته وقومه وعدوه . وهو حائر يتردد بين الحرب والسلم – بين الجهر بالعداء والكتمان والمداراة وهوضعيف يقدر فلا يعفو ، ويملك فلا يرحم ، يصطنع الغدر والدس والخيانة بل والسلب المستتر .

والجند ماضون في طغيانهم : يظلمون ويستبدون ويسلبون ويتنافسون حديثهم بالسلاح ، وتفاهمهم بالحراب .

والادارة مكونة من خليط عجيب ، والدولة كالجثة تنهشها ذئاب الاطماع والعصبيات والشهوات .

ولم يعد للدين حرمة فكثر مدعو النبوة والزنادقة واندست الى البلاد لوثات دينية وآراء غريبة شاذة . واصبح التصريح بالسوء شائعاً على ألسن العامة والخاصة ، وشاع الاتجار بالدين والتكسب به .

والجمهور يفتح عينيه على هذا كله ، وهو في ثورة فكرية لم يرها العرب من قبل فكانت ثقافته تزيد من ثورته وسخطه .

وارجع الى ما تختار من كتب التاريخ الاسلامي لذلك العهد فسترى تلك الصورة التي عرضناها له ، بريئة من الغلو والمبالغة والاسراف .

•

في هذه البيئة المنكرة عاش ابو العلاء ومن الحق انها لم تنفرد به وحده وانما كانت بيئة شائعة مشتركة ، فقد شهدها عدد من الشعراء فلم تلذعهم المرارة كما لذعت ابا العلاء . ذلك انه كان متعباً ، وقد اوفت الحياة له كيل الهموم واثقلت كاهله بأعبائها الثقال ، والقت بينه وبين الدنيا ستاراً اسود ، فبدت له مآسي الدنيا مظلمة شديدة الاظلام وعاد الشاعر كتلة من الحس المرهف الدقيق فاذا به يحس اشياء ، يمر بها غيره سراعاً لا يلتفتون . ثم اعتزل الناس ولكن بقيت له نفسه الشاعرة وحسه المرهف وعقله الممتاز ، وروحه الحرة الطليقة فمضى يرصد مهازل الحياة في عصره – ويحس شرورها واخطاءها إحساساً عميقاً مؤلماً ، فتصدر عنه فيما يمليه ، قوية لاذعة مؤثرة .

قال في اللزوميات يتحدث عن فساد الحياة في عصره :

مل المقام فكم اعاشر امة   أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

*

انما هذه المذاهب اسباب   لجلب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة ولا يرقون   لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة   والقرمطي بالاحساء

*

ومن يفتقد حال الزمان واهله   يذم بهم غرباً من الارض او شرقا
يجد قولهم ميناً وودهم قلى   وخيرهم شراً وصنعتهم خرقا

*

لقد تفكرت في الدنيا وساكنها   فأحدث الفكر اشجاناً وتأريقا
أعرق آدم هذا لا يمازجه   سواه ، ام مس من ابليس تعريقا

*

كل الديار ذميم لا مقام به   وان حللت ديار الويل والرهم
وان الحجاز عن الخيرات محتجز   وما تهامة الا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن   ويثرب الآن تثريب على الفهم

*

ويقال الكرام قولاً وما في   العصر الا الشخوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة   وافترتها للمكسب القدماء

*

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى   ولكن لكم فيكم التكاثر والكبر

*

فؤادك خفاق وبرقك خافق   واعياك في الدنيا خليل موافق
تخير فاما وحدة مثل ميتة   واما جليس في الحياة منافق

*

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم   علي صلاة يوم اصبح هالكا
فما فيكم من خير يدعى به   يفرج عني في المضيق المسالكا

وكتب في رسالة الاخرسين يحمل على المتدينين وزيفهم :

« قال رجل من الصالحين : لان يدعو لي رجل اخرس ، أحب الي من ان يدعو لي الف خطيب على الف منبر ، لان ذلك يومىء الى الله سبحانه بلسان ما أفك ولا قال البهتان ، واولئك جديرون ان يكونوا كما قال سبحانه : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » .

وقال في الفصول والغايات :

طفت الآفاق فاذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضمر غيره الفؤاد ، فاخترت الوحدة على جليس السوء .

بهذا الحس الدقيق المرهف وتلك الفطرة القاتمة المتشائمة تجاوز ابو العلاء دنياه الخاصة وبيئته العامة ، ومضى يواجه مشكلات الحياة الانسانية ويرصد متاعبها وشرورها واخطاءها .

القاهرة   ابنة الشاطىء



سراب

الى روح المعري

ما المبتدا ؟ ما المنتهى ؟ ما الغد ؟ هواجسٌ شطّ بها المقصدُ !
من أزلٍ محاولك ، مبهم يطغى عليه أزلٌ أربدُ
لأبدٍ مبتعد ، مغلقٍ يعجّ فيه أبدٌ أبعد
نمشي ، ولا يعلم علامنا حتّام نمشي ، او متى نقعد
نمشي... ويبقى في ضمير المدى ما يمحي منا وما يخلد !
في كل يوم للنهى معبد وينطوي في المنتهى معبد
والفكر ، هذا الفكر في جهده كأنه في ظلمة يجهد
يستشرف المجهول من كوة في وجهها كم من كوى توصد
فكلما أوقد فانوسه وسار شوطاً ، أطفئ الموقد !
هيهات ! ما العلم سوى ومضة تحار فيها الاعين الهجّد
أكلما حلّ الحجى معضلاً يشتق منه معضل أعقد
من غامض نسعى الى غامض فنحن ندنو ، والمدى يبعد
وربما عدنا الى بدئنا نسير ما سرنا ، ولا نقصد
كالكون هذا الفكر ، يجري على دائرة ليس لها منفد !

•

قالوا : نجوم الفلك دوّارة الشمس والاقمار والفرقد
والارض غاز ملهب أصلها تجمدت ، ثم غدت تبرد
والسحب زفرات المياه التي تبخرت من حرّ ما توقد
والنور والصوت اهتزاز يعي ما تبرق الدنيا وما ترعد...
حقائقٌ ، لا ريب ، موثوقة لكنها ، يا ناس ، لا تسعد !
هلّا اجبتم ، يا أهيل الحجى ما الروح ? — هل يحيا بها الجامد ?
ما الذات? ما الاقدار ? ما المبتدا ? ما المنتهى ? ما المهد ? ما الملحد ?
هل يولد الانسان عفواً ، فلا بدءٌ ، ولا رجع ، ولا مقود

أم انه جاء على موعد ... وراح لمّا أزف الموعد
هيهات ! ما العلم سوى ومضة ... من دونها الحالوك الاسود !

•

... ويا رهين المحبسين انقضى ... الفٌ على الدنيا ، وباقٍ غدُ
والناس فيها مثلما خلتهم : ... هذا أخو كيد ، وذا أكيد
يجني على الابناء آباؤهم ... في غمرة يشقى بها الاسعد
والحزن اذ يقضي فتى منهم ... أضعاف بشر عندما يولد
والمرأة المغناج لمّا تزل ... ممقوتةً ... لكنها تعبد
والدين ، هفو القلب ، في مسجد ... والقلب لا يهفو ولا يسجد
والكذب والتنجيم شدّتها ... حبائلٌ ، بالعلم تستنجد
والعقل ، في قدرته ، عاجز ... عن فهم دنياه ، كما تعهد
والسر ، وجه الحق ، في مخبإٍ ... او انه في الكون لا يوجد !

•

الفٌ مضت ، والفكر ماض الى ... ما ليس للتفكير فيه يد
مأساة حمق كالتي مثّلتها ... القطة البلهاء والمبرد
من بعدك الدنيا ، ترى غرها ... فوز الهيولى والهنا الانكد
غاصت بجوف البحر او حلّقت ... راكبة متن الهوا ، تصعد
فلا البخار المصطلي شافع ... ولا الأثير المستحي منجد
والدرب ما زالت على حالها ... شائكة من دونها الفدفد !
والمرء مطوي على ذلةٍ ... غلافها الاعجاب والسؤدد
روايةٌ ، اجزاؤها ادهر ... والدهر في احنائها مشهد
مهزلة القلب الذي لا يني ... مسترشداً ، والعقل لا يرشد
فهذه الظلمة لا تنجلي ... وهذه الجذوة لا تخمد !
والفكر ، ارث العقل ، مستوضح ... يضج فيه الجوهر المفرد
زاغت برقص الآل أبصاره ... وقد نأى عن جفنه المرود
فناء جهداً ، والثرى ناهشاً ... ايمانه ، يهذي بما يجحد
كالحية الحمقاء عضت على ... ذنبها ، من شر ما تحقد

•

الف مضت ، والماء تحت الثرى ... مجهولة ، ما شامها الهدهد
هيهات ! ما العلم سوى ومضة ... من دونها الحالوك الاسود

سليم حيدر





بقلم الياس خليل زخريا

الاستاذ في الكلية العلمانية وفي المعارف اللبنانية

☐

احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر . أجلس مقصوراً في زاوية بيتي ، ناسكاً ، رهين المحبسين ، اتكلم وانا مكفوف البصر في مكفوفي اللسان .

اوثر عصاي على عين تهديني ، او قائد يقودني من الناس لانها مقهية لا تطعم ولا تشره ، ولا تقابلني بما اكره .

رأيت الارض عياناً ، والشمس على مساقط الغروب ، وخيط النهار ينحل في طفطاف العتمة ، فتشاءم المتشائمون ، والبشر في كل زمان يتطيرون وهمست امي ، في اذن ابي ، عبد الله ، شيئاً خفياً ، أظنه شجياً . . . .

ثم تقلبت عيني ، على ترف العلم والنعمة ، ومطارف الجاه والثراء . . . . ثم هجم شبح الجدري على المعرة ، بلدتنا ، ودخل بابنا وانا في اوائل الاربع ، فلم يرتد الا وظفره الحفار في وجهي ، يذهب بيسرى عيني جملة ، ثم يغشي يمناها البياض . فتتلاشى قوة الابصار على تلافيف المحاجر .

وأصبح بصري عن الابصار كليل .

لم أكن أعشى ، كما زعموا ، ولكني كنت اعمى عجيباً ، عاش بصيراً مع اترابه البصراء ، فترة من الزمن ، قصيرة في حساب الناس ، طويلة في حساب من ينظم الشعر وهو في الحادية عشرة ، ومن له ذاكرة ، هي اعجوبة الاعاجيب والاجيال ، لا يسقط من صورها لون ، ولا يفلت من اشراكها وحواشيها طيف ملم ، اوخاطر عابر .

صفحة ، عميقة ، متبحرة ، كأنما هي ردهة الكون المتيقظ المتبحر . . . .

وعين غائرة جداً ، كأنها تنظر بي في السر ، وحدي ، وعين بارزة جداً ، كأني انظر بها في العلانية ، وحدها ، ووجه مجدور يداورهما على جسم نحيف نحيل .

جلد في الرؤيا ، صبور في التأمل البعيد .

وعوالم عديدة مختلفة تتزاحم بشدة على المقلتين فتدخل من المسارب الخفية الى اعماق النفس الباصرة ، فتعمل الحواس عماها لتعيد الى الحاسة المفقودة ، قوى الموجودة :

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

والبيت المتنبي .

. . . وانا لا اعقل ، بوضوح الا الاحمر ، لون الثوب المعصفر الذي لبسته في ايام الجدري ، فأحاول ان احدده توضيحاً للالوان الباقية ، فتتبين لدي على رغم العمى ، وتتكون صورها في المخيلة ، استعداداً لصبها في القوالب اللفظية التي ستخلقها الشاعرية المجنحة خلقاً جديداً غريباً فتؤلف منها وحدات لم تكن في الحسبان .

ومعرفتك لوناً واحداً ، تساعدك جداً على عرفان بقية الالوان .

فالبصريات مقاييس وهمية فرضية ، هي من التقاليد المتوارثة عند الناس ، فالشعراء وهم ليسوا اناساً عاديين ، يتفهمون هذه التقاليد ولكنهم لا يخضعون لها .

والشعر كما قال زُفَر ، خازن الجنان ، لابن القارح :

واحسب هذا الذي يجيئني به قرآن ابليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة وانما هو للجان وعلموه ولد آدم .

ومن تراه يظن ان هذه الصور التي يرسمها الشاعر للاشياء المبصرة هي الاشياء نفسها ، باجزائها وحدودها ، بدقائقها وألوانها .

ومـا تكون قيمة الشعر اذا كان نسخة منتزعة من وجوه الاشياء الملموسة واشكالها ، المحددة .

ان صور الاشيـــاء بنت لحة ، وصور الشاعر الملهم خطوط سرمدية لا يتقنع لها لون مدى الزمن.

فالوردة التي يزرعهـــا الشاعر في الحروف ليست الوردة التي تجدها في البستان محمرة عابقة تموت مع الشمّة في بضع لحة.

والاسد الذي يصفه ليس بالحيوان الذي تلقاه في المأسدة يقضقض العظام ، ويتهيب الليل والافعى ، ويموت موت الثعالب ، وبنات عرس. والضياء الذي يسكبه في الالفاظ ليس بالضياء الذي يسقط من الشموس الدائرة والكواكب المبعثرة ، المندثرة.

والطاووس الذي اشتهاه ابو عبيدة في الجنة ، مطبوخاً في الحل لجـــاه في صحفة من الذهب ليقضي منه الوطر ثم انضمت عظامه بعضها الى بعض ليصير كما بدا ، انمـــا هو طائر لا تجده في مجاهل الادغال ، ولا تلمحه في مشارف الحدائق والجنائن.

ويوم قال هرون بن عبد العزيز لصديقه احمد ابي الطيب المتنبي « وددنا يا ابا الطيب لو كنت معنا فقد ركبنا ، ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبياً ولم يكن لنا صقر ، فاستحسنت صيده ».

فقال : انا قليل الرغبة في مثل هذا . فقال ابو علي « انما اشتهيت ان تراه فتستحسنه فتقول في ذلك شيئاً من الشعر . قال :

انا افعل أفتحب ان يكون الان ؟ قال : أيمكن مثل هذا ؟

قال ابو الطيب : نعم ... واحكمك في الوزن والقافية ايضاً .

وكان كلب المتنبي في قصيدته : « ومنزل ليس لنا بمنزل » كلباً نادراً خالداً لم تشاهد مثله عيون البشر ولا عيون الكلاب .

يكاد في الوثب من التفتل   يجمع بين متنه والكلكل

•

يجلس الشاعر في زاوية منزله او في نفقه المظلم ، اذا شئت ، ويسد المنافذ ، ويغمض العيون لكي لا يحدق فيما يريد وصفه تحديقاً يظهره على دقائقه المعروفة المبتذلة.

ثم يبسط شباكه السطيحة ويحمل بها الى بيته الدنيويات كلها او بعضها ، اذا شاء ، ثم ينضد هذه المواكب تنضيداً جديداً عجيباً ويلعب بها كما يلعب الاعمى الماهر بالشطرنج والنرد فيضم الخريف الى الربيع في بيت واحد ، وينبت الورد مع النخيل في البيداء القاحلة ، ويزرع النجوم مع البر في الارض ، او يزرع البرّ مع النجوم في السماء ليطحنها في رحى الكوثر المجعجعة.

ويعصر الشمس باليدين عصر العناقيد.

ويجمع الليل بالنهار على صفحة واحدة.

لونان من ليل وصبح لوّنا   شَمري وأضفى في الزمان الابد

واذا ثمل ضرب بالانف رتاج الجنة العظيم ، فتنشق الابواب وتحمل الجنة ، على الراحة ، الى المعرة ، لاول مرة منذ البناء ، فتوضع هناك على سجادة لبد امام شيخ عجوز أعمى من تنوخ ، من قحطان ، من هؤلاء العرب الذين خلقوا الناس والارض خلقاً جديداً قشيباً .

•

ها هي الجنة امام عيني المبصرتين ، بشجرها ، وقصورها ، بآنيتها وياقوتها ، بأباريقها الزبرجدية ، وكؤوسهـــا العسجدية ، وجداول رحيقها المختوم .

انهار مختلجة من ماء الحياة ، من شرب منها الجرعة فلا موت .

ومازيّ يصفق الآنية في انهار الرحيق حتى تقترع فيسمع لها اصوات تبعث بمثلها الاموات .

واوان على هيئة الطير السابحة ، ينبع من افواههـــا شراب كأنه من الرقة سراب .

وسمك يلعب في بركة من العسل .

وصنم من احجار يرقص .

وسيف بحر لا يدرك له عبر .

ورياض تزهر في مسايل الماء فيعم الوادي بالشقيق والثمـــار وعناقيد عنب تنادي المشتهي وتنقطع من غصنها بمشيئة الخالق ، محمولة بنفسها الى الفم حملاً .

وانيق الربيع بدركه القيظ   وفيه البيضاء والسحماء

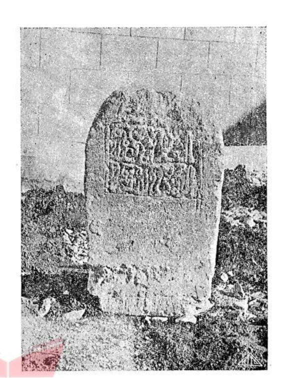
وروضة مؤنقة تلعب فيها حيات اذا انتفضت في الاهـــاب صارت احسن غواني الجنة ، تمر فتفرش عليهـــا اغصان الاشجار ماء الورد مخلوطاً بمـــاء الكافور ومسك عجيب من صنع انامل الله في ساعات لهوه وعبثه .

ورف من اوز ينتفضن فيصرن جواري كواعب يرفلن في الوشي وبأيديهن المزاهر .

وشجرة من الجوز ينشها الله فتونع لوقتهـــا ثم تنفض عدداً عديداً وتنشق كل واحدة عن اربع جوار ساحرات

وسفرجلة او رمانة او تفاحة تكسر فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرق لحسنها حوريات الجنان بين كثبان العنبر وانقاء المسك .

وشباب على افراس من نور تخلّلُ الناس وتنكشف لها الامم والاجيال وتطير في الهواء اذا اشتد الزحام . وبين هذه الافراس جواد كريم اعوجي كأن جسمه من عسجد ، وحوافره من الزبرجد تحسب غرته كوكب ليل ، وجراه أتيّ السيل وتخاله صقراً هوى من أعلى الجبل ، تلمح فارسه كالنجم بالافق لا تُشرع اليه أسنة



شاهدة قبر ابي العلاء قبل ان توضع في موضعها بعد الترميم الاخير، كتب عليها بالكوفي المشجر قبر ابي العلاء ابن عبدالله بن سليمان وقد اتى الزمان على كلمتي (قبر وابي)

•

الرماح ولا يدرك بسوى الطرف اللماح ، وجواد آخر اذا جرى سبح وقذف بفارسه على صخور زمرد ، وجمل من النجب خُلق من ياقوت ودر ومضى بين كثبان العنبر يُلمع ماعاناً اسرع من البرق احياناً .

وشاب جميل يتلألأ وجهه كخد القمر ، ووجه الدينار .

وآخر في يده محجن ياقوت .

ورجل يحتلب ناقة في اناء ذهب .

وجبل عظيم ينزل من السماء من تعلق به من سكان الارض سلم .

عللاني فإن بيض الاماني   فنيت والظلام ليس بفاني
رب ليل كأنه الصبح في الحسن   وان كان أسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو لما   وقف النجم وقفة الحيران
ليلتي هذه عروس من الزنج   عليها قلائد من جمان

وحشد من الجن تعيش في مدائن ذات ادحال مظلمة واوداء مشجرة ، وهي ان شاءت صارت حمامة او عصفوراً وان شاءت صارت ريحاً هفّافة او حية رقشاء .

وابليس صديق بشّار يضطرب في الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد والزبانية تفتح عين ابن برد بكلاليب من نار . ونساء :

اخذن كريش طاووس لباساً   ومسكاً بالضحى متلفعات

والهلال والثريا كأنهما حبّان اجتمعا للوداع فاعتنقا :

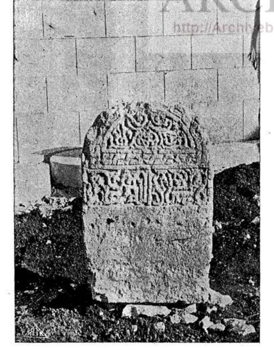
وسهيل كوجنة الحب في اللون   وقلب المحب في الخفقان
مستبداً كأنه الفارس المعلم   يبدو معارض الفرسان
يسرع اللمح في احمرار كما تسرع   في اللمح مقلة الغضبان
ضرّجته دماً سيوف الاعادي   فبكت رحمة له الشعريان
قدماه وراءه وهو في العجز   كساع ليست له قدمان
ثم شاب الدجى وخاف من الهجر   فغطى المشيب بالزعفران

وشيخنا ابو العلاء متربع في صومعته على بساطه الخشن ، وعينه العظيمة تركز منذ الف عام جدران الفردوس في صعيد المعرة . لن تغيب صورة الجنة عن ارضنا لان عين ابي العلاء البصيرة ، رحبة كالسماء تسع الناس والدنيا . . .

الياس خليل زخريا

•

ظهر شاهدة قبر ابي العلاء وقد كتب عليها : رحمة الله عليه



أبو العلاء المفكر الحر

بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي

◙

حينما يسير السائح في صحراء قاحلة يطير فرحاً عندما يهتدي الى واحة يانعة يتدفق فيها نبع صاف زلال ، فيستريح من وعثاء السفر ويروي ظمأه من مائه العذب ، دون ان يكلف نفسه عناء البحث عن اصل ذلك الماء الذي تجمع في هذا المكان النائي . ولعل من يفكر تفكيراً سطحياً يزعم ان الماء قد انبجس فجأة دون مصدر سابق ، وهو كامن في بطن الارض منذ الازل وسيبقى فيها الى الابد ، ولكن عالم الطبيعة لا يعرف هذا الجمود ، فالتحول المستمر هو سنة الكون ، وكل نبع نراه امامنا لابد له من اصل استقى منه ، فذرات هذا الجسم البراق الصافي قد اتت من محل بعيد ، من البحر الواسع ، فتجمعت في الجو كغيوم ، ثم هطلت كامطار وعلى حسب كميتها وما ابتلعته من غاز الفحم جرفت معها بعض ذرات الاتربة وحملت بعض اقسام الصخور ، فتعكر الماء واضطرب في سيره الى ان استقر في مكان معين ، فالمواد الترابية المختلطة بالماء ترسبت في قرار الينبوع رويداً رويداً وما انحل بها سكن حيث سكن الماء . وكذلك الفكر البشري فأنه لا ينبجس فجأة الا بعد ان يستقي من خضم بعيد ، وعندما يهطل في الشخصية يضم معه ما تهضمه النفس وما لا تهضمه ، فتتجمع في قرارتها نزعات عديدة ، فتضطرب المشاعر وتتعكر النزوات ، فالا يمتزج بالروح يترسب ببطء ويبتعد عن الذات ، وما تمثله العقل امتزج تمازجاً قوياً ، وهكذا في دور النضوج تتكون الشخصية ذات الميزة الخاصة .

لا ادري هل يحق لي هذا التشبيه المادي في عالم الفكر ، العالم المجرد عن المادة ام لا ؟ ام اني استوحيت هذه الصورة من عالم الشهادة ، لاني ما ولجت الى مملكة العقل الا من باب العالم المحسوس . وبزعمي ان هذه الطريقة صائبة في كوننا الارضي ، اما ما فوق ذلك فما اوتينا من العلم به الا قليلا .

انه لصعب جداً على ضوء هذه القاعدة ان نخال عبقرية فذة انبجست امامنا فجأة كعبقرية ابي العلاء الخالدة على مدى الدهور ، فاذا كنا عاجزين عن تحليل شخص عادي يعيش بين ظهرانينا ويريد ان يصدقنا الخبر بما يعانيه من ازمات نفسية ، فما بالك بنابغة يود ان يكتم لنا الخبر ، فيشير ويرمز ، وتفصلنا عنه مسافة الف عام من عالم الزمن الماضي الذي لا رجوع له .

ان ما يجلب نظرنا في حياة هذه الشخصية التشاؤم ، ولربما كان لذلك مبرر فيما انتابه من العمى ومن قساوة البشر التي شاهدها ، ولكن ذلك لا يشكل سبباً جوهرياً اذا لم يكن هناك دافع نفسي يحمل على هذا الامر . ويمتاز ، الى جانب ذلك ، بتهكمه على هذه البشرية وعقائدها ومذاهبها واديانها ونحلها ، وعلى اطلاعه على الحركة الثقافية التي كانت في عصره . ومن دواعي الابتهاج ان نرى انه لم يتأثر بفلسفة يونانية رغم انه علم شيئاً عنها ، فقد بقي عربي النزعة نقاداً للاخبار بصورة هائلة ، لا اعرف اديباً عربياً غيره جاراه او قاربه ، ومن سخرية الاقدار اننا لا نقيم له وزناً في النقد الادبي . فان كنا نفخر به فانما نفخر بالنبوغ العربي باجلى مظاهره ، فهو يمثل الفكر العربي الصافي البراق .

حتى ان بعض من ادّعى الادب قد ضرب صفحاً عن كثير مما تفوه به المعري ، فعندما نشر رسالته الفريدة بدلا من ان ينشرها كاملة ، قد حذف منها اشياء كثيرة ، ولا اظن ان الجراة في عدم التقدير تصل الى هذا الحد ! وما يدريك لعل فيما حذفته ايها الاديب قيمة عظيمة ، فالحكم لا يبنى على نص ابتر ، بل على نص كامل ودراسة جدية ، وكم يحتاج المعري الى دراسات جدية .

ومن الخطأ جداً مقارنة رسالة الغفران للمعري بالالعوبة الالهية لدانتي ، فأن كان هناك تشابه فبالموضوع فقط اما من جهة المعالجة ، فهناك فرق كبير . تمتاز اناشيد دانتي بالصور الخيالية التي ابدعها مثبتاً بذلك عقائد عصره ، اما ابو العلاء وان كان لا يجاري دانتي بسمو خياله وابداعه الفني ، ولكنه يفوقه بالاستقلال الذاتي والحكم الشخصي على النزعات السائدة في عصره ، فهو في هذه الرسالة ينادي بالرجوع الى العقل والى حياة البساطة ، كما ينادي بذلك في « لزوم ما لا يلزم » . فهو مفكر واديب ومصلح ، ويشبهه بعض المستشرقين من هذه الناحية بتولستوي الاديب الروسي الشهير . ومهما يكن من غموض في مذهب ابي العلاء فهو قد انتقل اخيراً من الشك الى اليقين . وبالرغم من كثرة تلاميذه والمعجبين به ، فان مدرسته قد تلاشت ، ولم يتح لاحد من تلاميذه النجباء ان يحمل الجذوة المتقدة التي اشعلها المعري كما اتيح لافلاطون الفيلسوف الالهي ان يتابع حمل شعلة استاذه سقراط وان في هذا الامر لعجباً ولسراً غامضاً .

لم يكن المعري مبتكراً الا بعد ان قام بدراسات واسعة ، ولولا هذه الدراسات لما اتانا بشيء يستحق الخلود — ومن العبث ان يحاول الانسان ابداعاً قبل ان يتعلم من غيره تعلماً جدياً . وان في حياة ابي العلاء دليلا كبيرا وحجة بالغة في هذا الزعم فانه من الخطأ الاعتقاد بامكان الابتكار دون الالتفات الى من سبق ، واذا نظرنا الى ابي العلاء باعتباره مفكراً لظهر لنا انه مطلع على مشاكل زمانه اطلاعاً مدهشاً ، ولا يكتفي بالاطلاع بل يحاول ان ينقد ويناقش بجرأة وحرية ، فهو من هذه الناحية يؤلف بين ما تعلمه من غيره وبين ما ابدعه من ذاته . لقد كان الناس قديماً يسعون تبيان مصادر الشخصية حتى اذا اثبتوا ان جل ما قاله مفكر قال به الاقدمون انكروا عليه كل حق مكتسب ، اما اليوم فلم تعد طريقة بيان الافكار المأخوذة والآراء المستمدة في البحث الادبي طريقة عصرية ، لان ذلك لا يبين لنا خصائص طابع الشخصية وميزاتها ، فالمعول اليوم على طريقة فهم الشخصية لهذه الاراء والافكار المتعلمة من جهة وما فعله الشخص المبدع لهذه الاشياء المقتبسة من جهة اخرى .

جرياً على ما قررناه لابد لنا ان نطالع امهات المذاهب التي عالجها المعري ورأيه الخاص في ذلك ليتضح لنا جلياً اننا هنا امام شخصية لا تقبل الاشياء على علاتها بل تدقق وتمحص مبينة بذلك الرأي الخاص كما وصل اليه العقل السليم والفطرة التي لم تهدمها عوامل التقليد الاعمى .

ان اول ما يجلب نظرنا في ابي العلاء نقده لرجال الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، فتراه يقول :

رويدك قد غررت وانت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ... ويشربها على عمد مساء

يقول لكم غدوت بلاكساء   وفي لذاتها رهن الكساء

اذا فعل الفتى ما عنه يُنهى   فمن جهتين لا جهة اساء

اما ما ينسب اليه من الشعر : « في اللاذقية ضجة . . . الخ » فان صحت النسبة اليه فهو يتعجب من تفاتل اهل الاديان مع ان الحقيقة المبهمة الغامضة واحدة . اما التدين الظاهري فهو في نظره رياء : « ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تديناً وانما يجعل ذلك تزيناً . يريد به ان يصل الى ثناء ، او غرض من اغراض الحالية ام الفناء . ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيا بطن ملحدون » .

يضيق المجال عن ذكر جميع الآراء التي ذكرها في هذا الصدد وما اتهم فيه جميع اهل الاديان والمذاهب .

اما قاسه مع الفلاسفة فنستدل عليه بقوله : « فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسق ملكه على اركانه ، مازج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الاطباء واصحاب الهيئة واهل المنطق ، فمالت منهم طائفة كثيرة . » وينقل لنا خبراً عن خادمة كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان ابي منصور محمد بن علي الخازن صاحب رسالة ميزان الحكمة الشهيرة التي عثر عليها احد المستشرقين الروس في ايران . ولم نجد اي ذكر لفيلسوف اسلامي او يوناني الا ذكر ارسطوطاليس ورد عليه :

لو صح ما قال رسطاليس من قدم   وهب من مات لم يجمعهم الفلك

ومذهبي في البرايا كونهم شيماً   كالثلج وانقار منه الجون والحلك

ان تسأل العقل لا يوجدك من خبر   عن الاوائل الا انهم هلكوا

ويأتينا برأي آخر عن الفلاسفة :

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا   ان المنية كسرها لا يجبر

كذب يقال على المنابر دائماً   افلا يميد لما يقال المنبر

وللمعري تفسير خاص للزمان والمكان فينتقد اولاً قول القائل ان المكان ثابت والزمن يجري ويتحول :

اما المكان فثابت لا ينطوي   لكن زمانك ذاهب لا يثبت

قال الغوي لقد كبت معاندي   خسرت يداه بأي امر يكبت

والمرء مثل النار شبت وانتهت   فخبت وافلح في الحياة المخبت

وحوادث الايام مثل نباتها   ترعى ويأمرها المليك فتنبت

واذا الفتى كان التراب مآله   فعلى م تسهر امه وتربت

ان كانت الاحبار تعظم سبتها   فاخو البصيرة كل يوم مسبت

هذه الفكرة الفلسفية العميقة اذا صحت نسبتها اليه يكون حكيمنا العربي دان لمذهب هرقليط بالجريان الدائم والتحول المستمر ، واذا لم يقتبسها عن احد فيكون فيها مبتكراً الى حد بعيد . ومما يؤيد هذه الفكرة ايضاً ما نسب اليه في رسالة الغفران : « وقول بعض الناس الزمان حركة الفلك لفظ لا حقيقة له . . . . والصواب ان يقال ان الزمان شيء كما تشتمل عليه الظروف . فاما الكون على رأيه فلا بد من تشبثه بما قل وكثر . ويتمثل باشعار كثيرة من جملتها قول ابي صخر :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ولكن يفكر في علاقة الخالق بالزمان والمكان فيقول :

قلتم لنا خالق حكيم   قلنا صدقتم كذا نقول

زعمتموه بلا مكان   ولا زمان الا فقولوا

هـذا كلام خبيء   معناه ليست لنا عقول

اما باقي المشكلات الفلسفية المحضة على النهج اليوناني القديم فلا وجود لها في تفكير المعري ، فهو حكيم عربي اكثر من ان يكون فيلسوفاً يتتبع خطوات الاقدمين من بني الاغريق . ومن الغريب في تفكيره ان نجد له رأياً يذكرنا باخوان الصفاء لا ندري ايهما اقتبسه عن الآخر :

يجوز ان تطفأ الشمس التي وقدت   من عهد عاد واذكى نارها الملك

فان خبت في طوال الدهر جمرتها   فلا محالة من ان ينقض الملك

مضى الانام فلولا علم حالهم   لقلت قول زهير ايه سلكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا   منه فكيف اعتقادي انهم هلكوا

فاذا كان المعري هو المبتكر لهذه الفكرة فقد سبق لافوازيه بقانون بقاء المادة بعصور ، اما نقصان نور الشمس الذي يعلل اليوم تعليلاً ينطبق على نظريات الراديو الفعال فيجوز ان يكون اقتبسها المعري عن القرآن « اذا الشمس كورت » اي تناقص نورها . وما يوجب اعجابنا ايضاً تشبيهه للروح بالطير بكيفية تذكرنا برسالة الطير لابن سينا :

رب روح كطائر القفص المسجون ترجو بموتها التسريحا

ويتعجب من الطبيب الذي يلحد في الخالق :

عجبي للطبيب يلحد في الخا   لق من بعد درسه التشريحا

يخال للانسان بعد ما ذكرنا ان المعري كان من المعتزلة ، لانه ايضاً يعتمد على العقل في تفسير الدين ولكننا اذا درسنا رسالة الغفران نراه يهاجم هذه النزعة مهاجمة عنيفة : « . . ان شيخ المعتزلة غير طاهر الردن ولا الذيل ، قد صير الجدل مصيدة ، ينظم به من الغي قصيدة ، وحدثت عن امام لهم يوقر ويتم ، وكأنه من الجهل ربع ، انه كان اذا جلس في الشرب ، ودارت المسكرة ذات الغرب ، وجاءه القدح شربه فاستوفاه ، واشهد من حضره على التوبة لما اقتفاه . » ويقول شعراً :

وجدت الناس في هرج ومرج   غواة بين معتزل ومرجي

والمرجئة هي التي لا تعطي كبير اهمية للاعمال وترجي كل شيء للايمان .

ولا يكتفي في مهاجمة رجال المعتزلة بل يهاجمها كمبدأ ايضاً : « كم متظاهر باعتزال ، وهو مع المخالف في تزال ، يزعم ان ربه على الذرة يخلد في النار ، بله الدرهم وبله الدينار ، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم . . . . . . »

ومعتزل لما اوافقه ساعة   اقول له في اللفظ دينك اجزل

او :

اله قادر وعبيد سوء   وجبر في المذاهب واعتزال

ولم يكتف في ذم مذهب معين من المعتزلة بل هاجم ايضاً خصومهم الاشاعرة مؤيدي السنة : « والاشعري اذا كشف ظهر غي ، تامنه الارض الراكدة والسمي . انما مثله مثل راع حطمة ، يخبط الاعماق الدهماء المظلمة . . . » ويتعدى تهكمه حتى على ابي الهذيل العلاف : « ويحكي عن ابي الهذيل العلاف انه كان يمر في الاسواق على حمار ويقول يا قوم احذروا توبة غلامي ، وكان له غلام يعد نفسه للتوبة فسقطت عليه آجرة فقتلته . . . . »

أما المتصوفة فلا تسل عن نقده اياها ، وخصوصاً في صورة بطلها الحسين بن منصور الحلاج: « فاما الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور، واذا كانت الامة ربما عبدت الحجر ، فكيف يأمن الحصيف البحر . » وتهكم مذهب الحلولية ذاكراً بأن الحلاج قال للذين قتلوه ، اتظنون انكم اياي تقتلون انما تقتلون بغلة المادراني ، وان البغلة وجدت في اصطبلها مقتولة . ويتعجب ابو العلاء بوجود من يرفع شأنه ويجعل النجم مكانه ، وقد بلغه ان ببغداد قوماً ينتظرون خروجه وانهم يقفون بحيث صلب على دجلة يتوقعون ظهوره ، ويعلق علـى ذلك « وليس ذلك ببدع من جهل الناس » . ويروي المعري شعراً لاحد الفتيان الذين عاصروا الحلاج :

ان يكن مذهب الحلول صحيحاً فإلهي في حزمة الزجاج
عرضت في غلالة بطراز بين دار العطار والثلاج
زعموا لي امراً وما صح لكن هو من افك شيخنا الحلاج

ويزعم ابو العلاء ان هذه المذاهب قديمة تنتقل في عصر بعد عصر . ومما يرويه ايضاً ان فرعون كان على مذهب الحلولية فلذلك ادعى انه رب العزة، ويحكي شاعرنا عن رجل منهم انه كان يقول في تسبيحه ، سبحانك سبحاني وغفرانك غفراني ، ويعتقد ان هذا هو الجنون الغالب ومن يقول هذا القول معدود في الانعام ، ما عرف كنه الانعام ، ويروي لنا بيتاً دوّنه دون ان يذكر مصدره :

انا انت بلا شك فسبحانك سبحاني
واسخاطك اسخاطي وغفرانك غفراني
ولم اجلد يا ربي اذا قيل هو الزاني

ويرى ايضاً ان الحلولية قريبة من مذهب التناسخ ، ويحدثنا فيما يحدثنا في رسالته عن رجل من روؤساء المنجمين من اهل حران اقام في بلد الشاعر زماناً ، فخرج مرة مع قوم يتنزهون فمر والثور يكرب فقال لاصحابه لا شك في ان هذا الثور رجل كان يعرف بخلف بحران وجعل يصيح به يا خلف ، فاتفق ان خار الثور ، فقال لاصحابه الا ترون الى صحة ما خبرتكم به . ويقص لنا حكاية اخرى ذكرها على قبيل التهكم ان رجلا رأى في منامه كأن ابوه يقول له ابني ان روحي قد نقلت الى جمل اعور في قطار فلان واني قد اشتهيت بطيخة ، قال فأخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملاً اعور ، فدنوت منه بالبطيخة فأخذها اخـذ مريد مشته . ومن الغريب ان المعري لا يعير ادنى اهتمام لمذهب وحدة الوجود مع انه حسب المصادر التي بين ايدينـا قد توغل في مذهب الحلولية توغلاً لا بأس به .

لا يقف المعري على مهاجمة شواذ الصوفية ، بل يهاجمها كمذهب :

صوفية ما رضوا للصوف نسبتهم حتى ادعوا انهم من طاعة صوفوا
تبارك الله دهر حشوه كذب فالمرء منا بغير الحق موصوف
ان اثمر الغصن فامتدت اليه يد تجنيه ظلماً فليت الغصن مقصوف

او :

صوفية شهدت للعقل نسبتهم بأنهم ضأن صوف نطحها يقص
لا ترقصن مهيرات مكرمة فللمهارى قديماً يعرف الرقص

وعلى ما يظهر انه في اخريات حياته قدر مذهب الصوفية ، فقد ذكر لنا في رسالة الغفران : « واما ابو بكر الشبلي رحمه الله فلا ريب انه من أهل الفضل وارجو ان يكون سالماً من مذهب الحلولية وانشدني له منشد :

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى ففزت بوجدي
واذا كان في القيامة نودي اين اهل الهوى تقدمت وحدي

غير ان المعري يستمر في نقده اللاذع لفكرة المهدي والشيعة والقرامطة والاسماعيلية ، ومن يعتقد بالتنجيم وسيطرة الفلك وغير ذلك ، مع تبيان مذاهبهم واظهار نقاط الضعف فيهم ، معتقداً ان لا هادي سوى العقل :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

وهو يزعم ايضاً ان هذه المذاهب المتعددة ما هي الا لجذب الدنيا الى الرؤساء :

انما هذه المذاهب اسبا ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

ظن كثير من المدققين ان ابا العلاء زنديق ملحد ، ولكننـا اذا تعمقنا في افكاره نراه لا يهاجم شيئاً بشدة وعنف كما هاجم الملاحدة والزنادقة والدهرية الذين يعتقدون بمنطوق الآية الكريمة « وما يهلكنا الا الدهر » ويقول : « . . ولكن الزندقة داء قديم ، طالما حلم به الاديم» وقد بلغت ثورته على الزندقة والالحاد اقصى درجتها في حملته على ابن الراوندي « واما ابن الراوندي، فلم يكن الى المصلحة بمهدي . واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلا . . . . » . ولا يرى مخرجاً من تلك المآزق الحرجة الا باتباع هدى العقل ، ويروى ان رجال الاديان جميعهم قد نبذوا العقل جانباً . واننا لنرى تشابهاً عظيماً بين شك المعري فيما ورث وبين شك الغزالي الذي اوضحه لنا في المنقذ من الضلال . ولا اريد في هذا الصدد ان ابخس الغزالي حقه ، فالحكماء هم بشر ايضاً يتعلم بعضهم من بعض . اما رسالة المعري نفسها في تحرير الفكر فهي :

« . . والذين يسكنون في الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبر ، لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر ، فلو ان بعضهم الفى الاسرة من المجوس لخرج مجوسياً ومن الصابئة لاصبح لهم قريباً سياً . واذا المجتهد نكب عن التقليد ، فما يظفر بغير التبليد . واذا المعقول جمل هادياً ، نقع بربه صادياً . ولكن اين من يصبر على احكام العقل ، ويصقل فهمه ابلغ صقل . هيهات عدم ذلك فيمن تطلع عليه الشمس ، ومن ضمنه في الرمم رمس . الا ان يشذ رجل في الامم يخص من فضل بعمم . ربما لقينا من نظر في كتب الحكماء ، وتبع آثار القدماء ، فالفيناه يستحسن قبيح الامور ، ويتذكر باب مغمور . ان قدر على فظيع ركبه ، وان عرف واجباً نكبه . كأن العالم سعوا في افقاد ، فهو يعتقد شر اعتقاد ، ان اودع امانة خان ، وان سئل عن شهادة مان ، وان وصف لعليل صفة فما يحفل اقتله بها قال ام ضاعف عليه الاثقال ، بل غرضه فيما يكتسب وهو الى الحكمة منتسب . ورب زار بالجهالة على اهل ملة وعلته الباطنة ادهى علة . وان البشر لكما جـاء في الكتاب العزيز كل حزب بما لديهم فرحون . »

ان مطرقة النقد التي حملها شاعر المعرة يريد بها بلغة نيتشه ان يحطم الالواح القديمة ليبني على انقاضها الواحاً جديدة تكفل لبني البشر سعادة خير من هذا الشقاء الذي يرسفون تحت نيره .

اما صلته بالشعراء والادباء فهي قوية جداً ، فبجانب ما خلفه لنا المعري كادب مبتكر ، نقد ادبي واسع يعرفنا الاصلي من المنتحل حسبما وصلت اليه خبرته. ولربما كانت رسالة الغفران اقدم اثر عربي في النقد الادبي ، يبين لنا فيها الطبيعة البشرية ، جالباً دقة نظرنا الى قضيتين هامتين من تلك الطبيعة ، وهي الكذب في الروايات لترويج الاثار الادبية ، والنسيان وهما لعمري عاملان جديران بالاهتمام ، ولا يبعد ان يكون ابن خلدون استقى مذهب النقدالتاريخي من مذهب النقد الادبي للمعري ولو أعار عالمنا العربي اهتمامه لمذهب المعري في النقد لما جرى وراء الخرافات والتضليلات بل لاهتدي به الى ما هو خير وابقى ، ولتمكن بالفكر النقاد الممحص ان يتابع سير المدنية .

ولم يسلم الادباء من نقد ابي العلاء، بل قال فيهم :

بني الاداب غرتكم قديما
زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم الا ذئاب
تلصص في المدائح والسباب


المعري بريشة جبران

اضر لمن تود من الاعادي وامرق للمقال من الزباب
اقارضكم ثناء غير حق كأنا منه في مجرى شباب
أأذهب فيكم ايام شيبي كما اذهبت ايام الشباب
معاذ الله قد ودعت جهلي فحسبي من تميم والرباب

يستشهد المعري بآية قرآنية على غريزة النسيان في الانسان : «وحسبك شهيداً على ذلك الاية المتلوة في قرآن محمد (ص) ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » ، وقد ذكر عن بعض العلماء ان الانسان سمي انساناً لنسيانه ، واحتج على ذلك بقولهم انيسيان وفي الجمع اناسي ، وقد روى عن ابن عباس قول الطائي :

لا تنسين تلك العهود وانما سميت انسانا لانك ناس

يذكر لنا المعري القول المأثور عن آدم لما قتل قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيح
واودى ربع اهليها فبانوا وغودر في الثرى الوجه المليح

ويعلق شاعرنا على ذلك بقول آدم لما صودف في الجنة : « .. ابني انكم في الضلالة منهوكون، آليت ما نطقت هذا النظم ولا نطق في عصري، وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة الابالله ، كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم ابيكم ثم على حوآء امكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك الى الارض .. »

رغم هذا التهكم اللاذع والنقد المر فهو يرى في اعجاز القرآن آيات لأولي الالباب : « واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن الحجة ومقتد ، ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ص) ، كتاب بهر بالاعجاز ، ولقي عدوه بالارجاز ، ما حذي على مثال ولا اشبه غريب الامثال ، ما هو من القصد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوي الارب وجاء كالشمس اللائحة ، نوراً للمسرة والبائحة . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع ، او الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع . وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

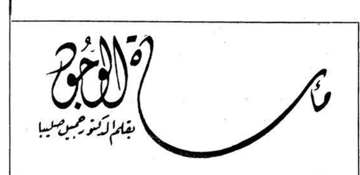
حارب ابو العلاء الخمر والميسر محاربة شديدة ، معتقدا ان السكر محرم في كل الملل ، حتى انه ذكر عن بعض الهنود بأنهم لا يملكون عليهم رجلًا يشرب مسكرا ، لانهم يرون ذلك منكراً .

على اننا يجب انلا نفهم بان المعري يحب الفوضى في المجتمع البشري بل يريد ان تسود في العالم روح المحبة والاخاء والوئام. نعم كان منتقدا للاديان لانه لم ير في معتنقيها المثل الاعلى الذي تصبو اليه نفسه ، ولكن مما يدلنا على تبجيله للاديان ما رواه : « .. وما عنيت بالكتابي من نسب الى توراة وانجيل ، دون من نسب الى القرآن البجيل . على انه لا بد من امانة مفترقة في البلاد ، تكون للخير من التلاد ، وانها في الاخرة لأشرف . »

بعد مضي الفسنة على وفاة المعري نجد انفسنا امام شخصية فذة جديرة بالتذكر ، وهذه الذكرى يجب ان توقظ فينا روح المعري الوثابة الحرة الطليقة العربية الصميمة والتي ترى رغم ذلك العالم كله ووطنها ، نجد انفسنا بحاجة الى ان نقتبس من روح ذلك الانساني الكبير المعروف اسماً والمنبوذ فعلا من قلوب البشر حافزاً يدفعنا الى الاخاء والانسانية ، اني اقول ذلك لما نراه من البغضاء والشحناء المتأججة فى قلوب البشر ، والا لرأينا صورة الكون اليوم غير الصورة الحزينة ، ولتلاشت العداوة بين الناس كما يتلاشى الثلج اذا سطعت عليه اشعة الشمس الحارة ، ونختم المقال بقول شاعرنا العظيم :

والخير يهمس بينهم ويقام للسوآت منبر

حلب
محمد يحيي الهاشمي




عضو المجمع العلمي العربي

من قرأ لزوميات ابي العلاء المعري وتعمق في ادراك معانيها ، علم ان وراء التشاؤم الذي اشتملت عليه ايمـاناً بالخير والوجود والكمال .

فما هي حقيقة الخير في الفلسفة العلائية ، وما هو الشر ، كيف تولدّ الشر ، ولماذا عم جميع ظواهر الوجود .

ان الخير عند ابي العلاء المعري محبب الى النفس ، وعلى المرء ان يفعله لانه خير ، ولانه أحسن وأفضل من الشر . ولو لم يكن للخير من الفضل الا حسنـه في المسامع لكفى بذلك دليلاً على ضرورته . وافعل الخير للخير نفسه ، فان كافأك الناس عليه ، نلت ثوابك في هذه الدنيا ، وان لم يجزوك بشيء فان الله لا يضيع أجرك .

نعم ان الخير اذا قيس بالشر كان أقل منه انتشاراً ، واضيق نطاقاً ، وأسرع انقضاء . فالشر كثير ، مشتهر المكان معرّف ، اما الخير فقليل لا يلمح الا من وراء خمار . وانت اذا نظرت الى الخير في هذه الدنيا ، وجدته قد وفر للاشرار . وفي الناس من يدعي الخير وهو كاذب ، وفيهم من يدعو اليه ويتوهمه في الزمان واهله ، وهو خيال باطل . ولكن الخير والشر ممزوجان في هذه الدنيا :

« فكل شهد عليه الصاب مذرور »

وفي العالم أضداد متقابلة ، ففيه خير وشر ، وغنى وفقر ، وعدل وظلم ، وعقل وغريزة ، ورشاد وضلال ، وحياة وموت .

« وكم فيك يا بحر من لؤلؤ ولكن لجك لا ينحسر »

ونحن لا نميز اللؤلؤ من الصدف في تيار الزمان العكر ، فيخيل الينا ان الصدف اكثر فيه من اللؤلؤ ، وان الزمان كله كدر :

« لا ازعم الخير مازجاً كدراً بل مزعمي ان كله كدر »

ولكن كيف تولد هذا الشر ، لماذا اوعز الله به الى الدهر ، لماذا لا يتغلب الانسان عليه بتسليم امره الى الاله القادر الحكيم العادل المتفرد بالكمال ، لماذا لا يتبع طريق الرشاد ، ما باله لايتخذ عقله اماماً .

السبب في ذلك كله يرجع الى طبيعة الزمان والمكان وحقيقة الوجود . لقد عرف ابو العلاء الزمان في رسالة الغفران بقوله : الزمان شيء اقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات . وهو في ذلك ضد المكان لان اقل جزء منه لا يمكن ان يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف .

وهذا التعريف يوضح لنا اسباب حدوث الشر وكثرته . فقد فرق ابو العلاء بين الزمان والمكان فجعلهما ضدين ، وجعل كلاًمنهما ينقسم الى اجزاء . فكل جزء من اجزاء الزمان يشتمل على الكون كله ، وكل جزء من المكان لا يشمل الا على نفسه . فاذا اجتمع الزمان والمكان احتويا الوجود كله ، واجتماعهما هذا هو علة الشر . ولو بقي الزمان وحده من غير ان يشتمل على المدركات كلها، وبقي المكان وحده من غير ان يتصل بالزمان ، او لو بقي الاله وحده دون ان يكون هناك زمان ولا مكان لما اشتمل الوجود الا على الخير .

ان تيار الزمان قد عكر صفو الوجود . ففي كل حركة وتأليف كدر . أنظر الى حلول الروح في الجسم . لقد كانا قبل اجتماعهما ساكنين وديعين ، فلما اجتمعا شقياً . فتفرد الشيء خير من تألفه بغيره ، وكل الفة تجر النقمة .

« الجسم والروح من قبل اجتماعهما كانا وديعين لا هما ولا سقما
تفرد الشيء خير من تألفه بغيره وتجر الالفـة النقمـا »

ثم انظر الى اجتماع العقل بالغريزة ، والرجل بالمرأة ، والانسان

بالانسان، انه يولد الضلال ، ويكثر الفساد .

« اذا كثر الناس شاع الفساد كما فسد القول لما كثر »

فاذا اردنا ان نلقى الخير فلنرجع الى الاصل ولنتفرق.

« اذا ما تفرقنا خاصنا من الاذى »

لنجرد العقل من الغريزة ، ولنمتنع عن الزواج ، ولنهجر اللذات ، ولنرغب في العزلة ، ولنتحرر من قيود الزمان والمكان ، ولنطلب الموت .

« فالمسك يزداد من طيب اذا سحقا »

وسواء أشئنا ام أبينا ، فان الدهر مهلكنا . ونحن لم نقع في الحياة باختيارنا ، بل جئنا اليها على كره . وسنرحل عنها بالرغم منا ، فنموت لاننا حلفاء نقص . وكل ما هو مركب ومؤلف لا بد له من التفرق ، فينقلب الكدر عند ذلك الى صفو ، والظلام الى نور .

والوجود جسر بين عدمين، ونحن نجتاز هذا الجسر على سفينة الزمان مسرعين ، فنجد آخره اكثر ظلاماً من اوله .

« نمر سراعاً بين عدمين مالنا لباث كأنا عابرون على جسر »

تمخر بنا سفينة الحيــاة بحر الوجود بين ماض قد اندثر ، ومستقبل آت سيندثر ، فلا يصفو لنا عيش ولا يهدأ لنا بال ، لاننا عالمون باننا سائرون الى الموت .

« كأن الدهر بحر نحن فيه على خطر كركاب السفين »

ولا نستطيع ان نسترجع لحظة من لحظات الزمان الماضي، كما اننا لانستطيع ان نخفف سيرنا او نلقي مراسينا .

« يموج بحرك والاهواء غالبة براكبيه فهل للسفن ارساء »

فيحطمنا ريب الزمان كاننا زجاج لا يعادله سبك . وسواء أكنا على ربوة ، اوفي لجة من لجج البحر ، فان تيار الزمان سينالنا، وسيفني انفسنا ، ويمحو كل رسم . وكأنه قد اوعز الينا بالفناء فلم نصبر لموجه . لقد وعظنا فما فهمنا عظته ، وكلمنا في صمت فلم نسمع نداءه . الا ان الزمان قصيــدة ، والدهر شاعر من شعراء الآفات . فتارة يفوه بشعره للناس، فيفكر فيما يقول ، وتارة يرتجل ما يقول من غير تفكير . انه ليغيظنا بقوافيه الرتيبة ، ويخيفنا بصمته المظلم ، فيكر علينا كرة عمياء صماء تارة مظلمة واخرى مضيئة ، وتهب ريحه مرة من الجنوب واخرى من الشمال ، فلاحيلة لنا بتأديبه وتهذيبه ، لانه غدار ختار ، لا يخشى وعيداً ، ولا يرعى عتاباً ، ولا يشعر بما يفعل ولا يجود بالسرور . انه أحمق أخرق ،قد صوب سهامه الى قلوبنا ، فاصابتنا في أحلامنا وآمالنا . ان جوهره مفعم بالتناقض . فكلما عللنا النفس بالامال ، اشتقنا الى الموت ، وكلما توقعنا العدل لم نجد الا الظلم . انه لينسي كمي الحرب صارمه ودرعه وينسي فتاة الحي حجولهـا . لقد شرب الانام في اول الدهر صفو الحياة ، ولم يتركوا لنـا في آخره الا الكدر . لقد خرف الدهر ، واصبح الان شيخاً عليلاً من غير ان يصيبه داء . فلا ضمانة في شخصه ، ولا اطمئنان الى حكمه ، لانه اعجم ظالم ، قد جعل الشر ترجمانه .

« أعجم قـد بين الرزايا وجعل الشر ترجـمانه »

وربما كنا نحن احسن حالا من اهل العصور القادمة ، فاول الدهر أحسن من آخره ، لانه سيزداد كـدراً على مر العصور ، وسيعم الشر بتعقد الحياة . فلا خلاص لنا من الاذى الا بالموت . فلنستعد اذن للموت بالاعراض عن اللذات ، والابتعاد عن جابة الحياة . فان الحياة ستزول كما تزول الاحلام .

« وكيف اقضي ساعة بمسرة واعلم ان الموت من غرمائي »

فانت ترى ان الدهر لم يوصف بأحسن مما وصف به في شعر ابي العلاء، وان مأساة العالم لم تكتب باسلوب اعمق وأروع من أسلوب اللزوميات . وما هذا الحنين الى الموت الا حنين نفس مستغيثة ، تريد ان تترك تيار الغريزة الصاخب وتلجأ الى سكون العقل . ان اجسامنا اذا عادت الى الارض ولحقت بالعنصر الطاهر ، ارتاحت من التعب والعناء . فما لنا اذن نخاف طريق الردى . ان طريق الردى هو خير الطرق .

اننا لا نفيق من السكر المحيط بنا الا اذا كشفنا الغطاء عن فكرة الموت ، وادركنا طريق العقل والرشاد ، وآمنـا بالله والكمال والخير .

« اذا كنت بالله المهيمن واثقاً فسلم اليه الامر في اللفظ واللحظ »

فوجود الله المهيمن على الدهر، والنور المحيط بالظلمات، والعقل الهادي الى الرشاد ، كل ذلك سيولد في قلوبنا عزاء واطمئناناً ، ويقلب سخطنا الى رضاء ، وقسوتنا الى رحمة . ان الاله الذي خلق العدل كما خلق الظلم سينقذ الانسان من براثن الدهر، وسيرفعه الى الملأ الاعلى . وكل من ادرك مأساة الحيــاة وتعمق في فهم حكمة الموت، علم ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . ولعمري، ان الله هو خير الذخر في كل شدة ، فمن طهر بجوفه مهجته ، أصبح اقوى من الموت ، لابل أقوى من الدهر .

دمشق جميل صليبا

المعرّي يضع أُصول فلسفةٍ جديدة

بقلم عبد الله العلايلي

طريف ان نعرف ان ابا العلاء طالع بفلسفة جديدة، واستوت في نفسه عناصر فكر جديد أطاف بالوجود وما وراء وغلغل يستكشف أسرار الحياة، وكان سبيله الى هذا الفكر أشد طرافة. والدارسون عرفوه شاعراً او فيلسوفاً او شيئاً غير واضح بينهما، وعرّفوه للناس كذلك في شكل من هذه الاشكال.

والذين زعموا فلسفته وقفوا عند حد انه حكى افكاراً من فلسفات شتى، ثم جهد في ان يلائم بينها، وقد اخفق في رأي فريق اخفاقاً عبر عن عدم تمثيل وهضم، ووفق في رأي فريق توفيقاً معجباً. ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طائفة تنكر عليه الفكر، وان اضافت اليه الخطرات المتاورة المتذائبة(1).

وأية من هذه الدراسات جاءت معبرة عن جهد وعن تفهم احياناً، ولكن سبيل نقصها انما تأتى من انها عالجت فكر المعري في آثاره، ولم تقف ابداً عند ظروف هذا الفكر تستوحيها وتتخذ منها اقباساً اليه، فأتت وهي ذات نتائج ملتوية على نفسها وغير صادقة ايضاً.

اما نحن فلسنا نجد بدأ من درسه والوصول اليه او بتعبير آخر الوصول الى ما انبنى عليه فكره وداخل هذا الفكر، على ضوء الملابسات التي صاحبت الفكر العام عهد المعري والتي عاشها في شكل مباشر قريب.

والملابسات الفكرية التي نعنيها ونحاول الدلالة عليها هي:

(أ) رسائل اخوان الصفا.

(ب) رمزية الباطنية الحرفية.

(ج) تأوّج البحث اللغوي.

ولكي نتحقق من الصرح الفلسفي المشيد الذى سواه المعري بكلتا يديه واقامه اقامة المدل المبتكر، ينبغي لنا ان نتناول ولو في مثل الالمام هذه الملابسات، ونوضح كنهها واثرها وكيف استحالت وتخلقت في ذهن المعري السري بالالهام والخصب والسري من وجه آخر بالتعقيد او العمق.

(1) المتاورة المضطربة الثائرة والمتذائبة من قول العرب تذاءبت الريح هبت من كل مكان فعل الذئب الذي يجيء من هنا وهناك ومن كل مكان موهماً انه ذئاب كثيرات حكاه قطرب عن سيبويه راجع نزهة الالبا في اخبار الادبا لابن الانباري ترجمة قطرب.

رسائل اخوان الصفا: في معرفة مؤرخي الفكر العربي شيء كثير عن هذه الرسائل وعما تركت من آثار في شتى الحقول، ولكن شيئاً مهماً فاتهم التنبه اليه والتنبيه عليه وهو انها لم تقف عند حد التأثير فقط، بل استبدت بالفكر العربي وطبعته طيلة قرن ونيف، حتى ليستقيم لنا ان ندعو الحقبة القائمة من اواخر القرن الرابع حتى اواخر القرن الخامس بعصر اخوان الصفا الفكري. ولو شئنا تتبع آثار هذا الفكر في مختلف نواحي الانتاج والنظر الفلسفي التجريدي بل والحياة ايضاً، لالفيناها كثيرة جلية في أبعد حد. بيد ان شيئاً من هذا لا يعنينا الآن بقدر ما يعنينا معرفة ان هذا العصر الفكري اشتمل حياة المعري من اقطارها واستبدت به آثاره، الى ان تهيأ له العروج الى افقه الجديد واشراقه بجرارة جديدة الحياة جديدة الالوان.

فمما لا ريب فيه ان الرسائل كانت موجودة متداولة سنة ٣٧٣هـ على ما يتضح من كلام ابي حيان التوحيدي، والمعري ولد سنة ٣٦٣ هـ وقد امتدت(1) الرسائل الى كل مكان واتصلت بأثرها الى ازمان طويلة، بله اهتمام الوسط بها اهتماماً شديداً لم يقتصر على طبقة دون اخرى او فئة دون ما عداها، حتى لكأنها المفاجأة الحقيقية تبث الدهشة التي تذهب بالنفوس شيئاً بعد شيء الى الاستنامة لجديدها في قصد ودون القصد. ويقظة قوى المعري كانت في جو عابق بسحرها، فمضى مستنيماً يفكر على نهجها ويأتم رسومها.

رمزية الباطنية الحرفية: كانت الباطنية شيئاً راسخاً ازمان المعري، فقد نجحت دعاوتها ونجح وجودها وقامت بمحاولات

(1) راجع عيون الانباء لابن ابي اصيبعة في ترجمة الكرماني واخبار الحكماء للقفطي والامتاع للتوحيدي وجلاء العينين للالوسي وكشف الظنون لملا كاتب جلبي وموسوعات العلوم العربية لاحمد زكي باشا.

كبرى هنا وهناك.

وكانت هذه الباطنية تسلك مسلك استنطاق الحروف وتعتبر الحرف كائناً حيـاً له جسد ودم وروح وعقل، وبسبيل ذلك استخدمت (حساب الجمل) لاستنطاق الحروف عن موحيـات الاوضاع الفلكية، وما تدعوه (بالتنكيس) وهو شبيه بالجناس التصحيفي لاستنطاق الكلمة والجملة. وقد تبلورت رمزيتها هذه في فنون شتى من الشعوذة[1]، ونحن نجد عنـاصر هذه الرمزية في الرسائل جلية واضحة.

تأوج البحث اللغوي: لم يبلغ البحث اللغوي في عصر مبلغه عصر المعري، فقد نفضت اليد منه على كل اشكاله وتألفت له فلسفة خاصة كانت غنية خصبة، حتى لقد تحيز على انه غاية في ذاته وزاد في تحيزه اعتبار العصر الذي اسقط القيم الادبية في كل انواعها الى الالفاظ.

فكان من تزاوج هذه الملابسات للفكر العام وتفاعلهـا في نفسه واستحالاتها في كيانه المعنوي، ما أعده لانبثاق فلسفي مدهش لم يستخدم للتعبير عنه قوالب الفلسفة التي كان يراها عتيقة بالية، ويراها ايضاً افتعالاً من افتعالات الفساد بل تصوراً من تصورات الباطل المغرية بأنها الحقيقة:

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح[2] هان ما صعبا

فما أحراه وقد هدي الى فكر جديد ان لا يصطنع في التعبير عنه أية القوالب التي انتفخت وتملأت من وحي الاباطيل، وانمـا استحدث فلسفة ومنطقاً فلسفيـاً وألفاظاً في هذا المنطق ولتلك الفلسفة.

وقبل ان نشير الى شيء من بنائه الكبير الشامخ، يجدر بنا ان ندور قليلا مع ادوار استحالته لنرى كيف ابتدأت وتكاملت ثم تفرعت.

نشهد المعري في بداءته يحيا في عالم لغوي من كل اقطاره مثل الرياضي الذي يسبح في عالم لا نهائي من الاعداد، يحيـا في العدد ويحيا فيه العدد. فقد بدأ ثقافة لغوية خالصة انقطع اليهـا، وزاد بانقطاعه الى عالمه اللغوي الخالص انطفاء حاسة هي اشد الحواس في الكائن جذباً الى واقع المادية الصماء.

اذن فالمعري ليس له مما يصله بالواقع المادي الاصم الا الأضعف

(1) المعروفة باسم القنطخارية والزايرجات وما يشبهها.

(2) سترى بعد في سلسلة بحثنا عن فلسفة المعري ان هذه الفقرة تحمل أهم جانب من نظرية المعرفة عنده وكم تبدو مع التأمل غنية خصبة.

تشويقاً وتأثيراً، فلم يشده واقع المادية اليه ويغشي عليه بغمرته بل ظل طلقاً من الاسار أسر المكان الجمود.

انه ليس يشهد سوى صور الالفاظ كما يفترضها، وهي تحيا فيه ويحيا فيهافيطمئن ويغتبط وتشوقه كثيراً فيستلذها ويتذوقها. انه يحس بكيانه فيها، وهي أي الالفاظ في حسه ينبوع يتدفق مثل شلال الى هاوية الوجود، فيروقه سماع هديره الذي هو هدير ذاته في ذات الوجود. وكان هذا الافتلات من اسر المكان، اول قادمة نبتت في جناح نسرنا العظيم الذي اطل علينـا في هذا الدور بوجه الشاعر الملتمع بالفكر.

ونشهد المعري مرة اخرى يتقلب في حلب وهي منزل من منازل المعرفة يومذاك، يعب كل ما وصلت اليه يده غير متحرج ولا متأثم، وكان في حلب والمسافات القريبة منها نشاط للبـاطنية، وقريب جداً ان المعري اتصل به اثرهـا وهدأ ذاهلا يرشف رسائل الاخوان بنهم.

وما هو حتى عصفت به هدأة الذهول ومـا هو حتى هب في نفسه الاعصار، واذا به يعود الى المعرة حاملا أعقد ازمات الفكر التي لبث طويلا وعانى كثيراً حتى تهدى الى حلها. وقد تداعى في متناوح هذا الاعصار كل ما كان في نفسه قائماً ثابتاً، فيطل علينا في هذا الدور بوجه الشاعر الحائر بالفكر في قسم من اللزوميـات بدأه في المعرة[1] قبلما رحل الى بغداد.

وهو تحت هذا الاعصار او الازمة الهائجة هب يطلب المعرفة من جديد على غير الشكل الذي طابه من قبل في حلب، فتلك معرفة التلقين وهذه معرفة النقد والاستحالة. وهنـا نشهد المعري مرة ثالثة يضطرب في الارض ومع الناس، ولكن زادته مشاهداته يأساً واسى وزادته استفزازاً انشطه الى الثورة ومده بالنقد الساخر والضحكة الصفراء المتأكلة.

والمعري يقفل من رحلته البغدادية التي وصلته بكل فكر لكل فئة، ويطل علينا بوجه الشاعر الناقد للفكر الاصطلاحي بالفكر الاصطلاحي نفسه الذي هو ادل على التهافت، وهنا يبرز جلال السخر عند المعري وجماله.

ورغم مـا هو فيه من اعصار دائر على الفكر الاصطلاحي عنده وعند الناس، ورغم مـا تداعى بين يديه من صروح الاصطلاحات الجوفاء، ظل مؤمناً بالقيمة اللغوية وانها تبطن سراً

(1) راجع معجم الادباء لياقوت في ترجمة المعري.

عميقاً . وزاده ايماناً ما رآه في رسائل الاخوان التي مضت تقرر سريان القوى وهي الاصوات والنغمات ، اولاً في عـالم السماوات ثم في حركات الهواء ثم في حركات النبـات ثم في اجسام الحيوان ثم في عالم الانسان . وان لكل صوت صفة روحانية تختص به خلاف صوت آخر . وان اصل الحركة هو النفس وان الصوت منفعل من حركتها وسريان قواها في الاجسام ، والصوت مفهوم وغير مفهوم والمفهوم هو الصوت الحيواني ، والصوت الحيواني على ضربين منطقي وغير منطقي والمنطقي يتحيز في اللغة . وان للاصوات ألواناً ومشمومات . . ثم هي تعلل لماذا كانت الحروف « ٢٨ » وانهـا العدة التامة ، فان منـازل القمر كذلك واعضاء جسم الانسان كذلك ، واللغة التامة هي العربية ، فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوان . وان احكم الكلام ما كان ابلغ ، وأتقن البلاغة ما كان افصح ، وأحسن الفصاحة ما كان موزوناً متفقاً ، واصح الموزون ما كان غير متزحف [١] » .

فايمان المعري بالقيمة اللغوية وما خلفته الرسائل في نفسه ، رده رداً عنيفاً الى طلب حل اللغز في اللغة ، ولا سيما وان القائلين بالترتيب الكوني ترتيباً عددياً مثل اصحاب الرسائل يوحدون [٢] بين العدد واللغة من حيث ان كلا منهما يرتد الى وحدة لا تنقسم ، كما وان العدد حد غير ناطق على حسب التعبير الباطني ، وما هو حتى تهدى الى المفتاح الذي يحل اللغز في كل شيء في الوجود والحياة والفكر .

وهنا احس بانه قد ادرك وقد ادرك وحده ، فانكفأ على نفسه متجرداً فوق خضم الاباطيل مطلاً من افقه الشامخ بوجه الشاعر الفيلسوف الكامل ، فقد أعطى فلسفته المنقطعة النظير التي نعرضها الآن عرضاً كفهرس فقط ونبرهن عليها تباعاً من بعد بتفصيل وتطبيق .

يتصور المعري الكون كلا لغوياً ، والتركيب اللغوي غير نهائي فهو كالابدية في اتساعها وامتدادها وعمقها . وكما يرجع التركيب الى الفاظ فحروف فأصوات فنأمات خفية يطفح بها استعداد الحي طفحاً ذاتياً ، والحي يمضي فيركبها الى غير نهاية ، وهو اذ يركبها يركب فيها رجفات استعداد الذات مثل رجفات الاوتار .

كذلك الكون والوجود والحياة ، تنحل في سلسلة تباسطها الى ان تستوي في الله استواء الصوت في ذات الحي .

واول انبثاق هو رجفة او فيض الاستعداد الالهي ، الذي بدأ نأمة ثم مضت تتحيز شيئاً بعد شي لتتركب شيئاً بعد شيء ، حتى

---

(١) راجع رسالة اللغـات ورسالة الموسيقي ورسالة العدد من رسائل اخوان الصفا . (٢) راجع رسائل الاخوان ج ٣ ص ١٥٠

تتعقد وتستقر سلسلة منظومات الانبثاق في الحياة والاحياء ، مثلما تتعقد وتستقر سلسلة منظومات التفاعيل في القافية .

وفي المعقد تظهر انواع الفساد الا عند من رزق القدرة على التزام ما لا يلزم ، الذي هو في القافية احكامها وتعريتها من الضعف والتسامي بها الى فوق ، وهي تنتج شيئاً قليلاً . والانسان هو قافية الحياة في سلسلة المنظومات الانبثاقية الكونية ، والتوحد هو التزام مـا لا يلزم وهو ارتهان المحبس وبه يتجرد الحي ويعلو ، وكما ان التزام ما لا يلزم لا ينتج سوى القليل في الشعر كذلك هم قلة الذين يتوحدون ويصطفون ، وعلى التوحد المطلق تدور كل فلسفته او شريعته وهو يرى ان التوحد درجة فوق التوحيد .

وهذا التصور اللغوي في الكون ينتج ان الله منفصل بالذات متصل بسريان الاستعداد الالهي ، وينتج عدم جواز التناسخ لانه فرع القول بان الترتيب الوجودي قائم على مثل المتوالية العددية فلا يزيد ولا ينقص . اما القول بالترتيب اللغوي فانه يقتضي ان الكون قائم على مثل المتوالية الهندسية ، التي تجر الى القفز في التكاثر .

والانبياء قوم متوحدون ساروا مسير القافية حتى بلغت اسمى منازلها في التزام ما لا يلزم ، كما ادرك التوحد اسمى منازله في توحده هو ، وبهذا حقق في نفسه لعبة المتنبي :

صار جداً ما مزحت به رب جد جره اللعب

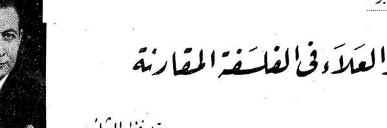
ولعل هذا سر احترامه وتقديره له وائتمامه به .

والشرائع مناهج المتوحدين وهي متفاوتة في صفة التكامل فهاجم نواحي النقص فيها . ونظرية المعرفة عنده : التأمل الخالص على منهج لغوي . ومنطق التوحد الفلسفي : الاحسان في استخدام الاشتقاق وادراك تعاشق الالفاظ التي هي حدود ناطقة والتي تحوي مؤثرات حية . واسلوب التوحد : القصة المتوحدة اي الملغزة الرامزة والشعر المتزم فيه والنثر المحكم احكام هذا الشعر . والانسان الكامل : هو المتوحد وذلك لان الواحدية هي بدء البسيط او الجزئية ونهاية المركب او الكلية . والانسان الاكمل : هو المتوحد الصرورة . ومن هذا يظهر كيف نبتت فلسفته على شكل آخر عند ابن باجة الذي انحرف بها عن التصور اللغوي الى التصور الفلسفي الاصطلاحي . ومن الخطأ الظن بان المعري حارب النسل بناء على فلسفته ، وانما اخفقت دعوة التوحد وشعر باخفاقها فيئس من الاصلاح البشري ، فنادى بالتهديم ، نادى بخصي الحياة [١] .

عبد الله العلايلي

---

(١) سنأتي بشواهد كل هذا فيما سننشر من دراسات مفصلة في الموضوع .



بقلم فؤاد الشايب



حسن حظ البشرية أن عاش بها في مختلف ادوارها ، هؤلاء الشاكون الساخطون ، المتشائمون ، الذين زرعوا الكراهية واقوال الشر ، ليحصدوا هم انفسهم او يحصد من بعدهم ، غلالَ الحب واعمال الخير . كأنهم طوائف النحل تسرحُ جاهدة ، تجرُسُ(*) المرّ . فتجريه في رضابها شهداً عذباً .

ولا أرى حتى في (متشائمي الانحطاط) انفسهم من خياميين وبودليريين ، ودوستويفسكيين ، استثناء يشين الانسان ويسيء الى حظوظ الانسانية . فلقد كان هؤلاء في عصورهم شارات تفسيرية ينهل من وردها المصلحون ، وآيات مبينة يسترشد بوحيها الباحثون والصالحون . فلخصوا ألغاز الحياة بأسرها في حياتهم ، وأغنوا الاحياء بسجلات اعمارهم عن الف سجل ، فحملوا وتحملوا اوزار عصورهم ومعاصريهم لان نفوسهم الشاعرة كانت وحدها اشدّ احساساً وتلقحاً بالمحيط ، واليقَ بالعبء ، واجدر بالتضحية .

ولقد صبّ المجتمع المتسكع في الضلال نقمته بلا تمييز على نوعين من انواع المتفوقين . فمن النوع الاول ، المصلحون . ومن النوع الثاني المتشائمون ، فكان الاولون اصحاب رسالة الحق ، والاخرون المبشرين بها الصرعى في تمهيد سبيلها . وان بدا هذا القول للناظر الى الاشياء من خارجها تناقضاً فما هو الا الالفة في توازن الحياة ، والانسجام في إعمال عناصرها مجتمعة . فالمتشائمون هم الشعراء الذين انذروا والمصلحون هم الشعراء الذين بشروا . ونزعة الاصلاح ، كالشعور بالفساد ، كلاهما من بواعث نهضات التطور والابداع .

•

يمكننا تقسيم التشاؤم الى ثلاث مدارس او ثلاثة انواع :

نوع سلبي يقتصر على عرض الناحية السوداء من الحياة . وليس سلاحه او أدوات عمله على الغالب سوى التصوير والتهويل . ومن قبيل هذا النوع دوستويفسكي .

ونوع ايجابي ضعيف الايجابية ، يشترك مع النوع الاول في تهويل عنصر الشر في الوجود . ويفترق عنه ، بارادة انسانية مخلصة ، تستهدف الصلاح ورفع الحيف ، ودرء الظلم . ومن قبيله المعري وشوبنهور ، ثم دوهامل الفرنسي وهكسلي الانكليزي وهما من أعداء العصر الآلي ، بقدر غير متساو (١)

ونوع ثالث ايجابي هو (التشاؤم البنّاء) اذا صحّ التعبير . جمع اليه النقيضين : تشاؤم سلبي هدّام لكل ما هو من اوضاع واخلاق ومصطلحات قائمة . وتفاؤل بامكان ان يستعيض الانسان عن الفاسد بأوضاع واخلاق ومصطلحات اسمى واعدل وأجدر بالانسان . ومن هذا القبيل فريدريك نيتشه . ولعله وحيد هذه المدرسة .

وانه ليجدر بنا قبل دراسة الفلسفة المعرية دراسة مقارنة ، ان نجعل من دراسة التشاؤم وتحليله توطئة لا بد منها .

فالتشاؤم عقدة نفسية ذات دوافع داخلية وخارجية متفاعلة ، هي منه العناصر المركبة .

فالارادة هي العنصر الاول من عناصر التشاؤم وهي حجر الزاوية في فلسفة المتشائمين . ويغذيها ابداً في طبائعهم ، احساس مرهف ، ووعي دقيق ، وشوق زاخر ، نحو مثل عليا ينزعون اليها نزوعاً مستمرا مطلقاً ، قد يرون اغراق نفوسهم ببطولة في سبيلها —

(*) جرست النحلُ الزهرَ رعته .

(١) يذهب جورج دوهامل في تشاؤمه من (المدنية الآلية) مستعبدة الانسان الحديث ، مذهباً يقول انه خير للانسان ، عبد الآلة ، الرجوع الى الطبيعة وبساطتها البدائية . ويعد من الكتاب الانسانيين .

بتعبير نيتشه – سبيلًا من سبل التقرب منها او تحقيقها . ولا ريب ان الصوفية ، من بعض وجوهها ، كفكرة ، مـا هي الا التعبير الشرقي عن ارادة متشائم . ولشرح ذلك غير هذا المجال .

وثاني عناصر التشاؤم هو الألم . والالم نتيجة حتمية لحيـاة الارادة وعملها . ففي بحث عقده الكاتب المعاصر (توماس مان) عن شوبنهور ، ابى ان يعترف بتقسيم دارسي المتشائم الكبير الى فيلسوف ارادة وفيلسوف تشاؤم قـائلًا ان شوبنهور فيلسوف الارادة والتشاؤم معـاً . وفلاسفة الارادة لن يكونوا الا من المتشائمين . اذ ما هي الارادة بالواقع سوى الرغبة المندفعة ترتطم بالمقاومة ، والشهوة الجارفة يكبلها العجز . والعجز الحيران يغمره الالم ؟! فعالم الارادة لن يكون سوى عالم الالم .

فالارادة المشبوبة يكبتها العجز فتعيش مغمورة بالعذاب . . . تلك هي قصة المعري ، ونيتشه وشوبنهور . وتحت هذا الرواق تعيش فلسفة التشاؤم . وهنا صار بامكاننا ان نقف ريثما قبل استكمال البحث في عناصر التشاؤم الاخرى .

ان النقطة التي يلتقي عندها هؤلاء الثلاثة الكبار ، لا تلبث ، وهم في غمرة الملتقى ، ان تصبح مفترق الطرق ، ينتشرون منه ، ويختلفون ، ويتناقضون . فقد وجد شوبنهور منفذاً لالمه واضطرابه ، ولا بد لكل متشائم من نافذة ، فراح يقرر ان الانسان الشقي – بمجرد كونه ولد لينضم الى جماعة الاشقياء – يصح ان يكون نجد ذاته (تاج الخليقة) وهو اسمى اشكال الارادة وابعدها تطوراً . وبمثل هـذا يرتفع الفيلسوف الغريق ليلتقي في فكرته عندئذ ، رافدا التشاؤم والانسانية . وكان بقدر كرهه الحياة ، عطوفاً محباً لهذا المخلوق الرائع السامي التطور .

وكان لابي العلاء منفذ آخر مختلف . فأبان عن ارادته وألمه ابانة شرقية صرفة ، بالزهد ، والعزلة والانقطاع عن الدنيا . ولو انه في اعماقه القصية حيث ترسف ارادته مغلولة لم يكن يطيق العزلة في الدنيا والاخرة :

ولو اني حبيت الخلد فرداً لما احببت بالخلد انفرادا

وطوى حاجاته ، وقلم اظافر شهواته ، وقنع من الدنيـا بالكساء الخشن ، والحصير البالي ، والطعام التافه مع انه لذو حاج وحاج يطالب بها الوجود .

. . . وألقي الموت لم تخد المطايا بحاجاتي ولم تجف الجيـاد ؟!

ثم :

حاجي ؟ نظم جمان والحياة معي سلك قصير فيـأبى جمهـا القصر
اما المراد فجم . . . لا يحيط به شرح ، ولكن عمر المرء مختصر

انه الزهد بالدنيا التي يتمثلها ، رغب فيها كلها ، ففاتته كلها ، فرغب عنها كلها . وهنا حيث يشرق المعري نحو الزهد ، يغرب نيتشه نحو الجهـد . فيبدأ الفيلسوف الالمـاني من حيث انتهى الفيلسوف العربي . والفرق بينهما هو الفرق بين الشرق والغرب – بلا ريب – والعرب والجرمـان ، والقرن الحـادي عشر والقرن التاسع عشر . وليس هذا الفرق مدى التباعد بين المعري ونيتشه فحسب ، بل المدى الفارق بين نيتشه والانسانية كلها . وقل : الامكانية الانسانية . فلقد اراد الفيلسوف الالماني شيئاً عظيماً ، والقى في الارض بذور تعاليم ، لو لم يتعهدها احفـاده بالسيـاج والعوسج ، ليحصدوها من بعد قتاداً وزقوما ، لما نمت وطاعت .

فقد وضع نيتشه (ارادة القوة) وبشر بانسانية مثالية . رجالها آلهة ، وطبقتها الحاكمة نبلاء . فضيلتهم ان لا يتقيدوا لمفهوم العالم المتداول للفضيلة ، وسر السمو في اخلاقهم ان يطرحوا ما عرفوا حتى الان من مقـاييس الاخلاق . ويقضي ذلك ان يكدح الانسان جاهداً للتفوق على ذاته باستمرار ، حتى الكمال . ومن شريعة التفوق الاجهاز على كل ضعيف عاجز عن السمو . فان عـاش ، فرتبته هي الدنيا في (سلم الاخلاق) مع زمرة العبيد الذين لاعمل لهم سوى الخدمة والطاعة والاخلاص (هكذا تكلم زرادشت)(١)

وقد لزم نيتشه ، كالمعري ، العزلة الرهيبة ، يتألم من العوز والحرمان ، ووجع الجسد ، ممجـداً ارادة القوة ، مقدساً الالم ، يصرخ من اعماق العزلة وقد تخلى عنه اقرب اصدقائه : « أنا محاط بالجليد ، ويدي تحترق بالصقيع . . . »

ولا ريب في ان المعري كان يكتوي ذات يوم في محبسيه بجحيم الصقيع ، الذي ارتمى فيه نيتشه . ولكن احتراقه ، كان نوراً دافئاً ، وادعـاً ، كزهده ، وكان مثـالا للتواضع ، والبر والاحسان ، واحتقار الظلم والقوي الغاشم . يبشر بدين الرفق

---

(١) يرى فريق كبير من دارسي (نيتشه) الحياديين، ان تعاليم الفيلسوف، يجب ان لا تعتبر (سابقة) اسس عليها الاحفاد المبدأ النـازي . وليس صحيحاً الى حد ان الفيلسوف ابو النظام الالماني الحالي . فلم يكن نيتشه عنصرياً بالمعنى الرائج . كذلك لاشبه بين (الاسياد) الذين بشر بهم ، واسياد المانيا الحالية كما ان (السيـادة) التي ارادهـا ، لم يقصد حصرها في الدولة الالمانية . ويمكن القول ان (مبدأ العنف) لم يطلقه (زرادشت) لاعتبارات عملية او وطنية مقصودة بل هو فني على الغالب . ان اعتباراً واحداً يجعل من الفيلسوف ابا للنازية وهو اعتبار (لاحق لضعيف) . على ان ثمة من سبق نيتشه الى هذا . ولعله لو شاهد المانيا اليوم – كما يقول جوليان بندا – لتنهد وقال : « ما كنت اريد ذلك . . ؟! » عسى في ايراد هذا الشرح ، ايضاح تقتضيه ضرورة المقال – ف –

بما لم يبشر به احد قبله او بعده. فاستكبر حتى الجراحة في الطب رفقاً بالجريح وبراً بالجرح :

فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم   ولا تلزموا الاميال سبر الجرائح

ولم يحرم لحوم الحيوان، فحسب، بل بيض الطير لان اكله فجيعة لها في نسلها، بل جني النحل، لانـه انتاج خليقة تعبت وجهدت، وما فعلت ليستحلي الانسان ثمار كدحها. ان هذا لظلم، «والظلم شر القبائح.»

وكان نيتشه في احتراق، صلفاً وكبرياء ووتراً مشدوداً. وأما احتقار الظلم فمبدأ لامكان له في مذهب ارادة القوي، وتعاليم زرادشت النيتشوي، لانه اعتبار متوارث قديم يجب ان يُزال في بناء (الاخلاق الجديدة)، بناء يبيح كل شيء في سبيل الانسان الاسمى. حتى ان الانتحار المرذول في الخلق القديم، عمل بطولي عظيم، في سبيل تفوق الانسان الجديد على الانسان العتيق.

فغاية ابي العلاء في ارادته واحتراقه، يكشر لها نيتشه من القطب المقابل ساخراً، مهزئاً دعاتها من انسانيين، مقعدين، وسلميين واخلاقيين — جماعات الانحطاط البشري — ومن علماء اقتصاد، يعملون على تقسيم الارزاق بالعدل والمساواة. اذ لا عدل ولا مساواة، وليست السعادة غاية في ارادة القوة. بل القوة والتفوق.

ولا ننسى ان التباين الظاهر بين اتجاهي الفيلسوفين، لا يثنيهما عن نقطة العناق الواحدة وهي هنا، نزوعهما، نحو اهداف عليا، ومطامح بعيدة، تنوء بها الامكانية الانسانية.

اما (التفوق) الذي نشده نيتشه وانشد في مجده، فهو شيء من نفس ابي العلاء، على شكل مختلف. فالتفوق عند نيتشه هجوم ... وعند المعري دفاع. وهو كذلك عند الاول طبع جعله للناس مذهباً، وعند الثاني صفة نفسية ذاهبة بين الطبع والانطباع. اقوى دوافعها وابرزها، اعتزاز الفيلسوف بكرامته كعالم صالح، يُطعن في علمه وصلاحه. ثم عماه، وما يرافق هذه العاهة الكبرى، من شعور بالنقص المركب.

فراقب ابا العلاء في حالة غير عادية. يتغنى بالتفوق تغنياً نتشوياً :

... وكم من طالب أمدي سيلقى   دوين مكاني، السبع الشدادا

. . . .

لي الشرف الذي يطأ الثريا   مع الفضل الذي بهر العبادا

ولو ملأ السها عينيه مني   أبرّ على مدى زحل وزادا

افل نوائب الايام وحدي   اذا جمعت كتائبها احتشادا

اما منخس هياجه، وشعوره بتفوقه، فهو هذا العدو الذي يتطاول...

ويطعن في علاي وان شسعي   ليأنف ان يكون له نجادا(1)

وما هذا من روح ابي العلاء، ان هو الا صريف الاسنان. ان ذاك الا نقمة الضرير، يغمض على القذى، ولا يغضي عنه الاذى. فهو ينافح عن كونه في الحياة حياً سوياً. واذا لم يشأ الاعداء، فهو في مرتبة اعلى من مراتب الاحياء دونيه..

على ان طبع التفوق السليم، الطبع الذي يعرب عنه الفيلسوف الشاعر، عن شعور او لا شعور مطوي من رواسب الذات، فان آياته البينات، على ما ارى، تطل في قصيدة (عللاني). حيث يصف وصفاً يبذ به المبصرين وهو ضرير، كما انه اراد في حياته ان يبز المحسنين وهو على حصير.

فاسمع آيات التفوق في قصيدة لايتسع لكلها المجال :

عللاني فان بيض الاماني   فنيت، والظلام ليس بفاني

ان تناسيتما وداد أناس   فاجعلاني من بعض من تذكران

رب ليل كأنه الصبح في الحسن   وان كان اسود الطيلسان

قد ركضنا فيه الى اللهو لما   وقف النجم وقفة الحيران

. . . .

فكأني ما قلت والبدر طفل   وشباب الظلماء في عنفوان

ليلتي هذه عروس من الزنج   عليها قلائد من جمان

وكأن الهلال يهوى الثريا   فهما للوداع معتنقان.

قال صحبي في لجتين من الحندس   والبيد اذ بدا الفرقدان

نحن غرقى، فكيف ينقذنا نجمان   في حومة الدجى غرقان ؟!

وسهيل كوجنة الحب في اللون   وقلب المحب في الخفقان

مستبداً كأنه الفارس المعلم   يبدو معارض الفرسان

يسرع اللمح في احمرار كما   تسرع في اللمح مقلة الغضبان

ثم شاب الدجى وخاف من الهجر   فغطى المشيب بالزعفران

ونضا فجره على نسره الواقع، سيفاً   ... فهم بالطيران

فأي تفوق ؟! وهل كانت جياد التفوق، تلهب ظهورها ارادة محمومة، تجري في دم الشاعر سراعاً نحو القصب، عندما كان ينظم ؟! هل كان الشاعر يباري ؟! ام هي آية عفوية من آيات التفوق ؟!

•

ثم ان هناك (الشك) كعنصر ثالث من عناصر التشاؤم، عاش في ضمير المتشائمين بقدر يتراوح بين الكثرة والقلة، والظهور

---

(1) الشسع، خيط في النعل او الحذاء.



بعض آثار ابي العلاء المعري وبعض الكتب التي ألفت عنه كما تبدو في جانب من المعرض الذي اقامته دار الكتب اللبنانية

والاستتار . والشك ابو العلم وداء العقل المعالج داءه . الشك (زنزانة) مظلمة ، قبع فيها الفيلسوف العربي ، الى جانب محبسة ، وقد تكون محبسه الثالث . ولقد كان الشك كبلًا يضاف الى ارادته المغلولة، وغذاء خالداً لالمه الكبير . فكم حاول الفيلسوف ان يبترد باليقين ويوسع لنفسه آفاق المعرفة الكاشفة دون جدوى! وكان في كل محاولة استكشاف ، يرتد كليلا عاجزاً ، يعبر عن لاعجه وشكه ، بشتى انواع التناقض والقلق ، حتى لتكاد ترى في كل بيت وبيتين او اكثر ، نفس المضطرب المعذب الذي اطلق صرخة « غير مجد في ملتي واعتقادي . . . »

لقد وقف موقف الشاك العاجز ، امام باب الابدية ، وقد ابهم عليه لغز الموت بعدما ابهم عليه لغز الانسان الحي ، وكان يردد باوزان مختلفة واساليب مختلفة :

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة ... اي المعاني باهل الارض مقصود!

لم تعطنا العلم اخبار يجيء بها ... نقل، ولا كوكب في الارض مقصود

وكاد ان يحل لغز الانسان الحي بذكاء عجيب وبصيرة نافذة ، فقضى بأن الانسان شرير بالطبع ، وان عقله المعول عليه ليس كافياً بعد في ردعه واصلاحه . فوضع ابو العلاء بذلك مفتاح السر بيد العلماء منذ الف عام .

ولكن ما هو الموت ؟! وما حيلة العقل امام اللغز ؟! ماقيمة الحياة ، ما قيمة المال ، والعافية ، والحياة غايتها الموت ! اسئلة كان يتخبط فيما تفتحه امامه من مجاهل فما ابعد المرحلة وما اقصى الغاية !

وفي هذا التيه العظيم ، المغيب في سديم الظلام ، وعلى ابواب الموت المغلق . وفي اشد حالات الوجد والعذاب ، نلتقي بشخصية ابي العلاء الكبرى ، وقد انطوى فيها (حب الحياة) وهو عنصر التشاؤم الرابع .

فاي قلب كبير ينبض بحب الدنيا في شك الفيلسوف وشكواه! واي اعلان لسريرة الحب وراء كل كلمة تجأر بالعنف وتنضح بالمرارة ؟!

انك اترى الفيلسوف في سديم الغيهب الطامي ، ذاك البشري، الذي لا يحب العزلة السوداء ، ولو ولجها كارها ، ولا يتنازل عن حاجاته وان كان الزهد بها مظهر شوقه اليها .

انك ترى الرجل الشغوف بالحياة ، المؤثر لها ، يطالعك حبه من وراء قوله :

ان حزنا في ساعة الموت ... اضعاف سرور في ساعة الميلاد

بل يصارحك :

والروح في حب دنياها معذبة ... حتى يقال لها بيني عن الجسد

وتراه يشفق على نفسه ، ونسله من اقتراف الجريمة الكبرى في اعطاء حياة عاقبتها الموت . فلا الفجيعة في بصره وسعادته ، وقد هانت ، لتخفف عنه بعض عذابه اذ يتصور قدرية المصير الداهم . وهو ان يلعن الحياة، فكالمحب الذي يلعن الحب وهو عاشق ولهان . ان الاعمى البائس المحروم ، الذي يود لو يحمل مصائبه واعباء

نفسه وعقله ، عبر الحياة متسكعاً دامياً . وحسبه منها ان يعيش ويقهر الموت . وانى له ذلك ؟! فسيبقى ذاك الشقي بالموت ، المتيم بحبه الحياة ... معاً .

من هذه النقطة الدقيقة في مرحلة التشاؤم انطلق نيتشه ليغالب الضعف والموت ، تعبيراً عن اجلاله للحياة وتقديسه لها . ومن هنا ايضاً ، من نفس النقطة ، وبنفس الاحوال ارتد المعري قبل تسعة قرون ولكن ليعبر عن حبه الحياة باستسلامه لهـا ... ويعود الرجلان ليفترقا ثانية وثالثة ...

انحنى ابو العلاء للحياة ، رغم تصبره طوراً وزهده طوراً ، كما انحنى قبله وبعده الكثيرون من جبابرة النقمة ، فماشى جحافل اعدائه ، واطبق جفنيه على القذى . فان يئس من الاحياء ، فلم ييأس من الحياة ؟! فكان حبه اقوى من المه ونقمته وعزلتـه . ولعله كشف لنا نصف فلسفته في ابيات :

ولما ان تجهمني مرادي	جريت مع الزمان كما ارادا
وهونت الخطوب على حتى	كأني صرت امنحها الودادا
أأنكرها ؟! ومنبتها فؤادي	وكيف تنكر الارض القتادا

فامعن ريثاً في قول الرجل وراقبه في الدورة الاخيرة من المعركة ، ينحني لارادة الحياة — ارادة كالحها نيتشه بارادة القوة — ويرجوك الا تعتب عليه اذا شكا . ومـاذا يستطيع الا اعلان الصلح مع الخطوب كأنه معها على الفة وود ! الا تستحق الحياة هذه الهدنة الهنيئة ؟! ولكنها ليست الهزيمة على كل حال .

وهنا يبتعد المعري عن نيتشة ، ليلتقي بدوستويفسكي ، على صعيد « حب الحياة » لقاء جميلاً .

فاقـرأ في دوستويفسكي الذي صمم اوروبا بتشاؤمه ، قولاً لبطل من ابطال رواياته (ميتيا كرامازوف) يخاطب اخاه ، وقد حكم عليه بالنفي الطويل الى سيبيريا :

« اليوشا ... ! في هذه الآونة الاخيرة ، اكتشفت في نفسي انساناً جديداً . ماذا يهمني ان احمل المعول في مناجم سيبيريا طول عشرين عاماً ؟! حقا ان هذا لم يعد يخيفني ؟!

ان (ميتيا) في الرواية هو دوستويفسكي في الحياة . افلا ترى الى المقاومة الانسانية الجبارة ، تلين لتمنح رزاياها الوداد ؟!

ومن يقرأ ادب دوستويفسكي الاسود ، ويتـابع احوال مشرديه ، وبؤسائه الناقمين ، يدرك بلا شبهة ، ان النقمة الكبيرة على الدنيا ، انما تقابلها اخوة صادقة للحياة ، وعلوق حريص بها . فليس بدعاً ان نسمع احد اشخاص رواية (المراهق) — ادوليسان — لدوستويفسكي يصرخ : « اعطني ثلاثة اعمار .. فهي لن تكفيني جميعها .. » . وكم دوت صرخات المعري بهذا النداء !

ولم يكن دوستويفسكي الا الحقيقة التي عاشها ابطاله في الادب . فقد كتب في دفاتره الخاصة يقول : «لا ادري اين قرأت قصة محكوم بالاعدام ، يفكر في الساعة الاخيرة قبل قبض حياته ، ان خيراً له ان يعيش مربوطاً الى قنة الهاوية ، وسط العواصف تنوش جسمه ، واقفاً على اخمصيه ، وحيداً ، معذباً ، الف عام ... من ان يموت فوراً . بل يريد ان يعيش .. يعيش ويعيش . !؟

وكتب الى اخيه عام ١٨٤٩ قبل نفيه الى سيبيريا : « حقاً ان لفي الانسان خزاناً هائلا من الفعالية مـا كنت اظنها على هـذا القدر .. » . وكتب الى اخيه ايضاً : « انها لجريمة ان تخور قوانا » . وكتب قبيل النفي : «اخي ... انا لم اجزع ولم ابك .. ان الحياة في كل مكان هي الحياة والحياة فينا وليست في العـالم الذي يحيط بنا .. »

وفي كل هذا تهوين للخطوب وصفاتها . وفي كل هذا صدق نفس سوداء ما ترى فوق حب الحياة حباً ولا بغضاً . وحسبك ان تعلم ان صاحب هذه النفس هو مولد شخصية (راسكولينكوف) في (الجريمة والعقاب) .

•

ان دراسة التشاؤم وبسيكولوجية المتشائمين ، تغدو مع الزمن من اجدر الدراسات العربية بالعناية والاستقصاء . فالدراسة هذه ، انما تجمع الى اللذة الفنية العلمية ، فائدة خلقية جليلة ليس انكار خطرها سوى جريمة تقترف . فقد طالما أسأنا — أساء مثقفونا والدهماء معاً — فهم التشاؤم ، فأوغلنـا في ادب اسود بكـاء خواء ، لن يبدل حكمنا الصارم عليه ، كون بعضنا فيه مطبوعين ، واكثرنا مقلداً مزوراً . ولست ادعي انني فيما اوجزت من خطوط والوان ، قد ابنت ابانة كافية . وقد اكون بحاجة الى اكثر من حديث .

فاولئك هم المتشائمون ، اولئك هم الافذاذ الذين طالما شغلوا عصورهم والاجيـال بعدهم في دراستهم وتحليل فلسفتهم ، فكم رُجموا ورُحموا . وكم فهموا واسيء فهمهم حتى ساعدت اكتشافات التاريخ الحديثة المعززة بالبيولوجيا والبسيكولوجيا على اكتشاف الجوهر الثمين في نفوس رجال — اغرقوا نفوسهم ببطولة — فداء للحياة ومثلها العليا .

دمشق — فؤاد الشايب

أعمى


المعري بريشة فروخ

دفعت به الى خارج البيت ليمضي الى الملعب ، فيلهو ويمرح مع اترابه ، فانطلق الولد في تثاقل وتراخ ، لانه كان يؤثر عزلة البيت على كل شيء ، حيث يخلو الى نفسه ، كما يخلو اليهـا الصوفي ، في ساعات الاشراق الروحي ، وما كان في مقدور الأم ان تدرك تلك المتعة السامية التي تجتاح كيان الولد في خلوته الرائعة ؛ اذ كانت هذه الخلوة في نظرهـا ، مدعاة الى تلاشي رواء حياته قبل الاوان . وليس اخلق به واجدر بمثله ، غير صبا ماقع ، ينطلق وراء مباهج الدنيا ، فيقطف منها الجني الرطيب . وتحت تأثير هذه العاطفة المجردة ، كانت تدفع الولد . فكان يمضي وئيد الخطى ، يجر نفسه جراً ، حتى اذا وصل الى الملعب احتوته زاوية قصية ، فكان شأنه فيه لا يختلف عن شأنه في البيت . وتراه امه وقد عاد ، نظيفاً كالثلج ، لطيفاً كالندى ، عطراً كالشذى . فيساورها العجب ، وتنتابها الدهشة . فقد جرت عادة الاولاد ان يعودوا الى البيت ، وقد علاهم الغبار والوحل حتى الدم في بعض الاحايين ، اما هو فكأن هالة قدسية تحوطه بالعناية ، فلا يناله ضير ولا ينزل به شر .

وذات يوم لحقت به الى الملعب ، فبصرت بالقديس الصغير في محراب زاويته وهو محتب حبوة ناسك هندي . يا الله ! الى اين ينتهي المطاف بهذا الغلام ؟

ولاح لها من وراء سجف الغيب ، كأنه فكرة ، وفكرة عظيمة تحمل للعالم أسمى ما تنشده الانسانية من حقيقة وخير وحرية . لقد خرج من يدها . انه في يد القدر وحده ، وهو الذي يتصرف بمقدراته ، ويتحكم بحياته . مثل هذا المخلوق مثل حلم يتفتح عن امل مبهم . وان وراء هذا الامل آفاق لا حدود لها ولا نهاية . بغتة غضت الطرف امام هذا المرئى الذي تجلى لها ، فقد كاد يخطف بصرها ويذهب به . ولو علمت ان ما تكشف لها ، سيذهب ببصر ولدها ، لمـا تركته وحده ساعة ولا دقيقة . ولكن القدر كان اصدر حكمه ، وما كان في وسع الام ان تقف في وجه هذا الحكم .

•

تشرئب الروح الى الملأ الاعلى ، بحالة عفوية ، وقد شملها صفاء مطلق ، فالروح الواعية عن طريق الحدس ، هي التي تصل الى هذه الحالة وتنتهي اليها ، وان عليها ان تجتاز سبيلاً وعراً صعباً منهكاً . هنالك من تقف في اول الطريق ، وهنالك من تصل الى نصفه ، وهنالك من تصل الى نهايته ، وهنالك من تقف على عتبة باب المحراب . . . كم من روح احرقها النور واستحالت الى رماد .

•

انطلق الولد وقد بسط القدر يده فوقه . كان ذلك في صباح يوم مشرق وضاء ، وفي زاوية الملعب جلس ابو العلاء ، وتجلى له الحلم قليلاً قليلاً ، وبدا له النور شيئاً فشيئاً . كان كل مـا حوله يدعوه الى التلاشي فيه ، وبغتة أحس بان بصره يمتد به الى اكثر من نطاقه المألوف ، وانه يمتد في تلك الآفاق السحرية الاخاذة ، ولكن كان ذلك الى حيث لا رجعة .

ولما نهض الولد ، عثر فاعتمد يده حتى استقام ، ولما خطا خطوة سقط . لقد غمت عليه الحياة فصاح :

— يا رفاق اين انتم ؟ فاقبلوا اليه واخذوا بيديه . — أواه ان الليل هبط سريعاً هذا اليوم .

ونظر الاولاد بعضهم الى بعض وهمسوا : — أعمى !

دمشق — نسيب الاختيار

بين أبي العلاء وسيف الدولة

بقلم محمد روحي فيصل

لما اصدر الاستاذ سامي الكيالي كتابه « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » ألقى على نفسه وعلى قرائه هذا السؤال القيم الخطير : أترى المتنبي مديناً بشهرته الى سيف الدولة ام ان الأمر بالعكس ؟ » وبدا له أن هذا السؤال مفتاح كل حديث عن سيف الدولة ، وانه لكذالك ، ولكنه ذهب « الى ان الامير الحمداني هو الذي ألهب شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه ، وبعطاياه وهباته ، وهو الذي ساعد على ذيوع اسمه وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه به وبتفضيله على غيره من الشعراء » . وعلى اساس هذه العظمة الذاتية المنبثقة من شخص سيف الدولة لا المكتسبة من شاعرية المتنبي — على هذا الاساس مضى يدرس حياة الامير الحمداني ، ويستعرض حروبه وغزواته ونضاله في سبيل العروبة والاسلام . ولا ريب أن التاريخ يمده بالمادة الخصبة التي تشد من أزر هذا الاتجاه الذي انتهجه في التقدير . فتحت ناظريه ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه عن سيف الدولة كحامي للثغور الاسلامية إذ قال : « ثم لم يزل هذا الثغر وهو طرطوس وأذنه والمصيصة وما ينضاف اليها بأيدي المسلمين ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة حتى ولي العواصم والثغور الامير سيف فصمد للغزو وأمعن في بلادهم . . » . وتحت ناظريه ايضاً ما قاله الثعالبي في يتيمة الدهر : « كان بنو حمدان ملوكاً وامراء . أوجهم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم الرجاحة . وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة عقدهم . . وكان حضرته مقصد الوفود ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ومحط الرحال ، وموسم الادباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وكان اديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . » وتحت ناظريه ايضاً وايضاً دراسات غوستاف سيشلمبر وأندره دايفتش وبقية المستشرقين والمؤرخين الافرنج والعرب ، وكلهم يحدثونه عن الكثير من أعمال سيف الدولة وحروبه مع الروم . فلا غضاضة عليه — والحال كما ترى — اذا هزّ هذا الاتجاه الذي يردده بعض مؤرخي الادب بأن المتنبي هو الذي خلّد سيف الدولة ، وانه لولا المتنبي لكان الامير الحمداني نسياً منسياً » . لا يسبقن الى وهمك أنني من أنصار هؤلاء المؤرخين الذين يعزون خلود سيف الدولة في التاريخ الى المتنبي . فإن للامير الحمداني غزواته وحروبه مع الروم من لدن دخوله حلب عام ٣٣٣ هجرية الى ان احتسب الى ربه عام ٦٥٣ هجرية « فقضى مدافعاً عن فكرة قومية سامية وعن وطن أحبه ورفع مكانته » . ولكنني لا أستطيع أن أبرىء أثر الشاعر الكوفي في سيرورة ذكر الامير الحمداني . ترى ، لو لم تنجب الآداب العربية مبيناً عظيماً اسمه ابو الطيب المتنبي ، أكان اسم سيف الدولة يشع في التاريخ الاسلامي هذا الاشعاع الباهر الذي تلتقي ظلاله القوية في عين كل عربي منذ القرن الرابع الهجري الى يومنا هذا ؟ الراجح عندي أن فضل المتنبي على سيف الدولة عظيم من هذه الناحية ، والاستاذ الكيالي يقول بهذا الفضل حين يعلن « إن كليهما عظيم وان كل واحد كان متمماً لخلود الثاني ، وفي هذا إنصاف الادب والتاريخ معاً »

ههنا خاطر جليل يقوم في ذهني ولا أذكر ان أحداً اشار اليه ، على كثرة الدارسين لحياة المتنبي والمعري وسيف الدولة . واليكه في شيء من الايجاز :

لماذا لم يعرف التاريخ ثناء ولا شبه ثناء من ابي العلاء على سيف الدولة ؟؟

سؤال قد يبدو غريباً للوهلة الاولى ، وقد لا يروقك ان أزج اسم المعري في صدر الحديث عن سيف الدولة ، وقد ترى أن بين الفيلسوف والامير هوة لا تجيز لباحث أن يذكرهما معاً ، فضلاً عن أن يسأل ذلك السؤال الغريب ! والواقع ان النظر السطحي قد يهدي الى مثل هذا الاستغراب . ولكني عارض عليك الآن مقدمات هذا السؤال ، والمراحل التي مررت بها اليه ، فلعل في ذلك ما يشفع في القائه على هذا الوجه ، وما قد يعينك على تلمّس الصلة بين أبي العلاء المعري وبين الامير الحمداني .

١

أنت تعلم يا صاحبي الاديب مدى حب المعري للمتنبي وشدة كلفه به وتعصبه له. تعلم ذلك مما يرويه المؤرخون عن ابي العلاء يوم كان في بغداد من انه حضر مجلس الشريف المرتضي يوماً ، فجرى ذكر المتنبي ، وكان المرتضي ممن يكرهه كرهاً شديداً ، فأخذ يغض من قدره ويعد سقطاته ويذكر له مواضع ضعفه ، فقال ابو العلاء : لو لم يكن له الا قوله : « لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاه . فغضب المرتضي وامر بأخراجه من مجلسه فسحب برجله حتى أخرج . والتفت المرتضي الى أصحابه وقال : أتدرون لِمَ اختار الاعمى هذه القصيدة دون غيرها من شعر المتنبي ؟ قالوا : لا . قال : إنما عرض بقوله :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل

لا ريب أنك تكبر هذا التعريض الواخز حين تذكر منزلة المرتضي الرفيعة في بغداد وقرابته من الرضي واتصاله بقصور الخلفاء ، ولكن المعري لم يأبه لهذه المنازل الكبرى فوخز المرتضي تعصباً للمتنبي ، وعادى اسرته على سمو محتدها . ويزيد في إكبار هذه العداوة أن للمعري قصيدة لا بأس بها في رثاء ابي احمد والد الشريف المرتضي والشريف الرضي ، ولكن هدم هذه الصلة من اساسها أحب الى قلب المعري من تحقير المتنبي على مسمع منه وفي حضرته ! وقد كان هذا الحادث و« والدة لم يلقها » و« ثراء عاد مسفوتاً » من أهم العوامل التي دفعته الى ترك بغداد عاصمة البلدان الاسلامية التي رحل اليها عام ٣٩٨ هجرية فبقي فيها ما يقرب من عامين .

بل انت تعلم تعصب المعري للمتنبي حين تذكر ماجاء في رسالة ابن القارح اذ يقول : « قال المتنبي : « أذم الى هذا الزمان أهيله » صغرهم تصغير تحقير ، وهو سائغ في مجاز الشعر ، وقائله غير ممنوع من النظم ، ولكنه وضع في غير موضعه وخاطب به غير مستحقه ، ومايستحق زمان ساعده بلقاء سيف الدولة أن يطلق على اهله الذم ، وكيف وهو القائل يخاطبه :

أسير الى أقطاعه في ثيابه ... على طرفه من داره بحسامه

وقد كان من حقه ان يجملهم في خفارته ، اذ كانوا منسوبين اليه ومحسوبين عليه » . ولم يرض المعري عن هذا التعريض بالمتنبي يصدر عن رجل كأبن القارح ، فكتب اليه من كلام كثير في رسالة الغفران : « فأما ما ذكره من قول ابي الطيب : أذم الى هذا الزمـان أهيله ، فقد كان الرجل مولعاً بالتصغير ، لا يقنع منه بخلسة المغير ، كقوله :

من لي بفهم أهيل عصر يدعي ... ان يحسب الهندي فيهم باقل

وقوله : مقالي للاحيمق « ياحليم »

وقوله : ونام الخويدم عن ليلنا

وقوله : أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه ، ولا ملامة عليه ، إنما هي عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن »

بل انت تعلم كلف المعري بالمتنبي حين تذكر « معجز احمد » وهو عنوان ديوان المتنبي الذي شرحه المعري ، وما نعرف انه شرح ديواناً آخر غير ديوان ابي تمام والبحتري ، وهولا يزال مخطوطاً تضمه مكاتب مونيخ والاسكوريال والمتحف البريطاني . وفي تسمية الشرح بمعجز أحمد ما يدل الدلالة الواضحة على إعجاب المعري بشعر المتنبي وسحر بيانه . واذا علمنا أن اكثر من ثلث الديوان يتصل موضوعه بشخص سيف الدولة او بأحد أقربائه وقريباته ، حق لنا ان نسأل : لماذا لم يتعرض ابو العلاء المعري للامير الحمداني بخير ولا بشر ؟ فكل شيء في حياة المتنبي وشعره يذكر بسيف الدولة ، ويدعو الى التفكير فيه والبحث عنه ، حتى لقد كان من أثر اتصال المتنبي بسيف الدولة ما قـاله ابو فراس الشاعر الحمداني : « إن هـذا المتشدق — يريد المتنبي — كثير الادلال عليك ، وانت تعطيـه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاثة قصـائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره »

٢

كان عمر المتنبي وسيف الدولة واحـداً ، أعني أن ولادتها كانت في عام واحد ، وذلك حوالي عـام ٣٠٣ هجري . ووحدة السن بين المتنبي وسيف الدولة عامل كبير كان يجب ان يستدعي ذهن المعري وهو المفكر ذو العقليـة التحليلية النافذة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وهذ موقف من المعري غريب ...

٣

ان عروبة المتنبي وروحه القومية في ذلك العصر الذي يعج بالشعوبية أمرٌ لا سبيل الى انكاره . وهذه الروح العربية تلائم نفسية سيف الدولة الذي أخذ على عاتقه حماية الثغور الاسلامية من عدوان الروم وهجمات الشعوبيين . وكل هذا من جانب المتنبي وسيف الدولة يتفق مع نشأة المعري ودمه القضاعي وأرومته اليمانية . فثلاثتهم كما ترى عربيو النزعة يسيرون نحو اتجاه قومي واحد فكان من الطبيعي ان تدعو وحدة النزعة في المعري الى الحديث عن

سيف الدولة والثناء عليه ، ولكنه لم يفعل ، وهذا موضع الشذوذ ..

٤

كانت المعرة قبيل ولادة ابي العلاء بلدة خاضعة لنفوذ سيف الدولة ، وكانت شئونها الادارية ومصالحها السياسية تسير على خير ما يرجو سكانها وأهلوها ثم سادت الفوضى السياسية بعد وفاة سيف الدولة، حتى لقد حوصرت المعرة من جانب صالح بن مرداس، ولم يكف عن تجويعها وفك الحصار عنها الا بعد ان كلمه ابو العلاء بالنيابة عن قومه ، فأرضاه صالح لفضله وعلمه وادبه لا لنفوذه الشخصي في المعرة ولا لدهائه في السياسة. وسبب حصار المعرة كما يقول الدكتور طه حسين(*) نقلا عن الصفدي : ان امرأة من اهل المعرة صاحت بمسجدها الجامع ان صاحب الماخور أراد ان يفضحها وكان مسيحياً فأيقظتهم صيحتها فثاروا الى الماخور فهدموه وهرقوا ما فيه من نبيذ وخمر ، وبلغ الخبر أحد كبار كتاب صالح ، فقبض على سبعين رجلا من سراة المعرة ، وفيهم شفع ابو العلاء الى صالح فقبلت شفاعته . ومن البديهي ان تدعو هذه الفوضى القائمة ابا العلاء ان يترحم على زمن زاهر كانت بلدته فيه ترتع في بحبوحة من الامن والطمأنينة ، وأعني بهذا الزمن عهد سيف الدولة ، ولكن أبا العلاء لم يذكر هذا العهد بكلمة من كلمات الخير ، وهذا مما يزيد في غرابة موقفه من سيف الدولة .

ولم تسد الفوضى المعرة وحدها بل سادت أنطاكية ايضاً، هذه المدينة الزاهرة التي بقيت كثغر من الثغور العربية الى عام ٣٥٣ هجري ثم وقعت في يد الروم وظلت كذلك الى عام ٤٧٧ هجري، حتى لقد كان المسلمون فيها طيلة هذه المدة أقلية خاضعة لكثرة الاروام الذين سكنوها ورحلوا اليها . وقد شاهد المعري كل هذه الاحداث المحزنة التي انتكست فيها الفكرة العربية والسياسة العربية ، فلم يزفر الزفرة الحرّى التي تنم عن هذا المصير الحزين . وكان ابو العلاء في المعرة يوم نشبت الحروب بين الحمدانيين والفاطميين، وذلك بين عام ٣٨٢ و ٣٨٦ هجري . والمعري انما ترك المعرة الى بغداد من جراء تعرض صاحب حلب الى وقفه الذي كان يغل عليه سنوياً ثلاثين ديناراً يعطي نصفها لخادمه ونصفها الآخر يقضي به حاجاته . ويضيف الدكتور طه حسين الى هذا السبب سبباً آخر حين قال(*) : « لم كره ابو العلاء المعرة ، وحرص على تركها ومفارقتها، مع أنها أرأف به وأرحم له ، وأحدب عليه ، وهو رجل ضرير ليس له في بغداد عون ولا نصير ؟ أليس يمكن ان يكون الاضطراب السياسي احد الاسباب التي أخرجته من بلده ، ورحلت به الى بغداد في هذه السنة ؟ لا نشك في ذلك ، ولا بد عندنا من ان المعرة في تلك السنة قد كانت على حال سياسية لم يرضها صاحبنا فانصرف عنها »

٥

كان جد أبي العلاء سليمان بن داود قاضي المعرة وحمص، وكان عمه ابو بكر محمد بن سليمان قاضياً في نفس البلدين ، وكان كذلك والده عبد الله بن سليمان . اما اخواه ابو المجد محمد بن عبد الله وأبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله فكانا يقرضان الشعر عن سليقة شبه مواتية . وعلى الجملة كانت أسرة ابي العلاء على جانب كبير من العلم والثقافة الادبية والدينية ، وهذا الفضل الفكري قد تحدّر الى ابي العلاء فعرف من افراد أسرته ، الكثير من شخوص عصره وان شئت فقل انه اتصل بسامعه شتى الاحاديث عن الشخوص التاريخية في زمنه وقبل زمنه . ولا ريب أن شخص سيف الدولة في طليعة هذه الشخوص التي اتصلت أعمالها بسامع ابي العلاء، فكان من المعهود ان يصدر عنه صدى هذه الشخوص الكبرى في نفسه ومكانها من قلبه ، ولكن الصدى لم يصدر على قلمه ، والاثر لم يستعلن في آثاره ، فبقي سراً من اسرار الغيب ، وعقدة من عقد التاريخ !

٦

لم يكن الزمن ليفصل بين عهد سيف الدولة وبين حياة ابي العلاء ، فقد كان بين موت الامير الحمداني وبين ولادة الفيلسوف المعري مدى سبع سنوات . وكان ابو العلاء نابغة منذ صغره الباكر ، حتى لقد قال عن نفسه انه لم يحتج بعد العشرين الى ان يأخذ العلم عن أحد في الشام ولا في العراق ، وحتى لقد رثى أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره بقصيدة نونية مدروجة في سقط الزند . وشبوب الاحساس عند المعري الصغير مدعاة الى ان يتلقف أخبار امير هاتيك البلاد لقرب أيامه الزاهرة ولوجود من ينقل اليه مظاهر ذلك الازدهار من افراد اسرته . وكانت النهضة الادبية التي بدأت أيام

---

* تجديد ذكرى ابي العلاء ، ص ٦١ و ١٧٤ —١٧٥

(*) تجديد ذكرى ابي العلاء ، ص ٥٧

سيف الدولة بقدوم العلماء الى الشهباء ما تزال على قوتها فما نالها بموت نصيرها أي أثر من آثار الجمود . وقد أخذ المعري علوم العربية في حلب من محمد بن عبدالله بن سعد تلميذ ابن خالويه اللغوي المعروف وهو من تعلم من شدة اتصاله بسيف الدولة واختلافه الكثير على قصر « الحلبة » . وكان حرياً بالمعري ان يرجع الى هذه «المصادر» العملية فيخبرنا عن حقيقتها وعن رأيه في « مؤلفها » الامير !

•

ستقول بلا ريب : ان المعري لم يكن مؤرخاً ولم يعرف عنه الميل الى استقراء الماضي والحاضر ، وانما كان بطبعه فيلسوفاً يعني بفكرة كونية عامة هي مذهبه المعروف الذي درجه في عداد المفكرين ، فمطالبته بالحديث عن سيف الدولة لون جديد من ألوان التنطع ، وضرب من ضروب الاستكراه . وانا أقول ان هذا غير صحيح من كل الوجوه ، فقد تحدث المعري في اللزوميات عن محمود الغزنوي ملك أفغانستان في ذلك العهد ، وكتب الى الوزير المغربي رسالتين : رسالة المنيح ورسالة الاغريض والوزير المغربي هذا هو ابو الحسن الحسين بن علي المغربي كاتب بكجور الذي أغرى ابا الفضائل على غزو حلب . ولا نستطيع ان نزعم ان ذهن المعري لم يلتفت الى شئون السياسة ، فقد مر بنا أنه كلم بالنيابة عن قومه صالح بن مرداس يوم حاصر المعرة فنزل هذا عند فضله وعلمه وقال له : قد وهبتها لك . فكان من حق « عالم المعرة » وقد اتصل بباب من ابواب السياسة ان يتتبع احوال عصره وان يتصل بشخوص عصره ثم يتابع المرتقى حتى يصل الى عصر سيف الدولة الزاهر ، فيدلي الينا برأيه في هذا الامير الحمداني الذي ملأ ربع قرن بالاحداث والحروب والغزوات . . .

ومن الادلة على ان ذهن المعري التفت الى احداث السياسة ونزعات العصر فأرخها اروع تأريخ الابيات المشهورة التالية :

في اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمأذنة يصيح
كلٌّ يعزز دينه ياليت شعري ما الصحيح؟

وقد كنت أظن ان المعري في حداثته لا بد ان يتخذ شخوص عصره أو أحداث زمنه موضوعاً للكتابة وسبيلاً الى التمرن على البيان ، شأنه في ذلك شأن اكثر الناشئين من الادباء في كل بلد من بلدان العالم ، فرجعت الى الذين وصفوا سقط الزند فاذا هو خلوٌ مما رجوت واذا هو مجموعة من قصيدتي المعري في رثاء أمه ، وقصيدته في رثاء ابيه ، وقصيدته في رثاء . بن علي بن المهذب ، وقصيدته في رثاء علي ابي حمزة التي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

وقصيدته التي ردّ بها على ابي ابراهيم موسى بن اسحاق ومطلعها :

عللاني فان بيض الاماني فنيت والظلام ليس بفاني

وقصيدته التي مطلعها

ألا في سبيل المجد ما انا فاعل عفاف واقدام وحزم ونائل

وقصيدته التائية التي بعث بها الى ابي القاسم التنوخي وقصيدته الطائية التي بعث بها الى خازن دار العلم ببغداد ، وقصيدته العينية التي بعث بها الى عبد السلام بن الحسن البصري ، وغير ذلك من القصائد ، وكلها — على انها مزيج من الشعر المنظوم في شتى أطوار حياة ابي العلاء ، وعلى انها تشير الى بعض شخوص عصره — ليس فيها اية اشارة تاريخية الى سيف الدولة . وهذا الاغفال التام للامير الحمداني لا بد ان يكون له سبب معقول أدّى اليه ، فأبو العلاء رجل من اي النواحي أتيته كان فرضاً عليه ان يثني على سيف الدولة اذا كان هذا الامير من قوة الشخصية وروعة الخصائص بالصورة اللامعة التي وصفها المتنبي في شعره الكثير :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفي اذن الجوزاء منه زمازم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ان مخيلة المتنبي المكبرة ، وملكته المعهودة في المبالغة ، وقوة بيانه ، وحبه للمال والمجد والشهرة — كل ذلك عمل عمله الكبير في تصوير شخصية سيف الدولة ، فأضفى عليه هذا الثوب الزاهي الفضفاض الذي يرفل به في التاريخ الاسلامي الى ان يطوي ربك الارض والسماء !

دمشق — محمد روحي فيصل


احمد الصافي بريشة مصطفى فروخ

الله والمعرّي

بلغت مـا يصبو اليه الورى ... وغير ذا مـا اتمنـاه
أرضيت بالشعر البرايا و١٠ ... ارضاه ان لم يرضه الله
الله استاذي وكل الذي ... خط يراعي فهو أملاه
لا مبدعٌ إلاّه لا ناقد ... سواه مـا يأباه آباه
أخجل من عرض فنوني له ... وان تكن بعض عطاياه
أبدلت بالفن خشوعي فان ... يقبل فذا مـا اتوخاه
شوهت فن الله اذ رمت ان ... ازيـد بالفن ٠زاياه
احتقر النـاس واعجابهم ... ومن هم ! لا شيء إلاّه
لولا تجليه على خلقه ... لقلت هم والوهم أشبـاه
الله نور الأرض نور السما ... ما أنا مـا العالم لولاه
أعمى الورى من لا يرى نوره ... ألم يشاهد أين عينـاه
أعمته عيناه وأغفى على ... عمى فلم تصدقه رؤياه
تاه من النور وكم معشر ... ان ترد النور لهم تاهوا
كم تكذب العين بما تدّعي ... فأوضح العـالم أخفاه
أراه في الكون بعين الحجى ... لا أشرك العين بمرآه
اذا ادعى عقلك انكاره ... فانكر العقل ودعواه
معظّمي كوني من فيضه ... مصغّري فهميَ اياه
عجبت من ساع الى غيره ... والكل لفظ هو معنـاه
تأله البعض شعوراً به ... فصاح في جبّتي الله

ولو رآه لهوى مثلما … موسى هوى من طور سيناء
أعرف بالله امرؤ شاعر … يدرك في الكون خفاياه
آمنت بعد الكفر مستغفراً … عن جهل عقلي وخطاياه
يأخذ مصنوع على صانع … ما أحقر العقل وأغباه
وعدت للخالق ادعوه ان … يزيد نوري يوم ألقاه
تمردت نفسي على كل ما … قد خلق الله وسوّاه
حتى بدت للعين انواره … فلم تشوشها مراياه
كهولتي بالله قد آمنت … ضل شبابي ودعاواه
فان تجد ذا شيبة جاحداً … فقل الى الموت أحلناه

•

روح المعري فيّ قد آمنت … فابصرت في الموت عيناه
عاشت بروحي روحه ترتقي … فمذ ممت لاح لها الله
بدأت تلميذاً على عقله … ثم اعتلى عقلي فأعلاه
أنضجت روح الشعر في روحه … فاستيقظت في العقل رؤياه
واستيقظ العقل بما قد رأى … واتحد الرائي ومرآه
وضل اتباع المعريّ اذ … ظنوه قد ضل على ما هو
خالوه من جمودهم جامداً … لقد اساءوا لمزاياه
ما هو الا فكرة تعتلي … حتى ترى في الكون اعلاه
افكارنا افكار قوم مضوا … يتصل الاعلى بأدناه
مراحل الفكر بهذي الدنى … مراحل العمر بدنياه
آخرة المرء كدنياه … ومنتهى الفكر كمبداه
كانت بذوراً وغدت دوحة … تثمر ما البذر خباياه
ما نحن الاّ فكرة لم تزل … ترقى الى ما قدّر الله
رسالة الغفران لم تغتفر … للشعرا كفراً به فاهوا
وجئت في شعريَ مستغفراً … عن المعري وخطاياه

احمد الصافي النجفي

رسالة الغفران ومنابعها

بقلم جبور عبد النور

استاذ الفلسفة العربية

في الكلية العلمانية



في الدراسات والمباحث التي خص بها المؤرخون والنقاد ابا العلاء ، ناحية لا تزال الى الآن على شيء من الغموض ، رغم اهميتها وشدة لصوقها بجوهر الخيال العربي ومادته . هذه الناحية هي مصدر رسالة الغفران ، والمنابع التي استقى منها المعري مأثرته الفنية الكبرى.

من المحدثين من مستشرقين وعرب من عني بأثر الرسالة في الغرب ، ولا سيما في الشاعر الايطالي المشهور دانتي ألغيَري المولود سنة الف ومائتين وخمس وستين مسيحية والمتوفى سنة الف وثلاثمائة واحدى وعشرين ، أي بعد وفاة فيلسوف المعرة بمائتين وثلاث وستين سنة. أشهر هؤلاء العالم الاسباني المعروف بآسين بلاسيوس الذي فتح بدراسته باباً جديداً لدارسي الشاعر الايطالي خاصة ، ولمؤرخي الآداب الاروبية عامة . أما وقد قام هؤلاء الدارسون بقسطهم في جلاء بعض الاثر الذي كان لرسالة الغفران ، أي للمعري ، في العالم الغربي ، فلنعد نحن الى الشرق نفسه الى البلاد العربية ، وما زخرت به حضارتها ومدنيتها من خلق وابتداع ، علنا نتبين المنابع التي استقى منها الشاعر والفيلسوف رسالة الغفران.

لم يتوصل شعرنا في أي طور من أطواره الى ان يجاري الابداع الذي انتهى اليه خيال المعري ، وجماعات المتصوفين وحلقات القصّاصين . ومن الظلم ان نقيس مبلغ انتاج العرب الشعري بما حجزوه في البحور والقوافي . انما علينا اذا اردنا ان ننصف هذه الامة ، ان نعمد الى رسالة الغفران ، والى اقاصيص الجن ، والى اساطير الرواة ، ولا سيما القسم الذي كان منتشراً في البيئات العربية قبل تسرب خرافات الشعوب المجاورة ، لنحكم حكماً صادقاً لا اجحاف فيه ولا محاباة ، على مدى الخلق في خيال العرب . ولعل الدارسين ، بعد استنطاق الآثار القديمة ، والوقوف على ما كتبه مشايخ التاريخ من اغريق ولاتين ، وجمع المعلومات المتفرقة ، والشوارد المتناثرة ، واصلون الى اكتشاف مجموعة من الاساطير العربية متصلة الحلقات ، متماسكة الاجزاء ، لا تقل روعة عن الاساطير العالمية التي كانت ولا تزال الى الوقت الحاضر منبعاً فياضاً يستقي منه الشعراء . بل لعلهم يستنتجون ان هذه الاساطير العربية العتيقة لراقية الى ما يقارب عشرة قرون قبل المسيح كانت البذرة الأم لما عرف العالم الغربي من نوعها.

•

بعث ابن القارح[1] الى المعري بكتاب يذكر فيه الاطوار التي مر بها ، والادوار التي تعاقبت عليه ، ويسرف في نقد جماعة من الشعراء المتشائمين ، وفي حمله على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون ادخال الشبه والشكوك على المسلمين ويستعذبون القدح في نبوة النبيين ، ويتطرفون ويتبذئون ، اعجاباً بذلك المذهب : تيه مغن ، وظرف زنديق[2] . ويستعرض جماعة من الذين كفروا ، فكانت النار لهم عقاباً ، كبشار بن برد ، والصناديقي[3] ، والوليد بن يزيد[4] ، والجنابي[5] ، والحلاج[6] ، وابن الراوندي[7] ، وسواهم كثيرون.

يستشف المطالع من كتاب ابن القارح انه كان في شبابه منصرفاً الى المجون ، يكرع الخمر ، ويعاشر الغواني ، على ان التوبة لحقت قلبه فعمرت صدره بالخوف من الحساب وبالايمان بالخالق.

---

(١) ولد في حلب عام ٣٥١ . درس على ابي عبدالله بن خالويه . وعندما مات استاذه سافر الى بغداد ، ونزل على ابي علي الفارسي . وتردد على كثيرين من علماء المدينة . وكتب حديث الرسول ، ثم سافر الى مصر . وسنة ٣٩٧ حج خمسة اعوام . ورجع الى مصر ، فاذا بحوادث سياسية داخلية ترغمه على الهرب . فتنقل في الحواضر الشامية ، حتى جاء حلب ومنها وجه رسالته الى ابي العلاء المعري وقد تجاوز عمره الحادية والسبعين . قال ياقوت في وصفه : « وشعره يجري مجرى شعر المعلمين ، قليل الحلاوة خالياً من الطلاوة » . (ياقوت : معجم الادباء ج ١٥ ص ٨٤)

(٢) راجع : رسالة الغفران ج ٣ ص ٦ — طبعة كامل كيلاني ١٩٢٥ — اعتمدنا في كتابة بحثنا على هذه الطبعة .

تتمة شرح الهوامش ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ في الصفحة التالية

وصل الكتاب الى المعري حوالي عام ٤٢٣[1] ، وكان في عامه الستين[2] ، وامامه فسحة من الاجل تزيد على تسع عشرة سنة للانتاج النضيج والادب الرفيع . وقد وصل الى النهاية من العلم وفنونه والتأمل ونتائجه . وخبر النـاس وأهواءهم ، وعرف الاصل الذي عنه يصدرون ، والمنبع الذي منه يستقون . فأعجبه أمر هـذا الشيخ السبعيني ، يتغنى بالزهد والزاهدين ، والنبي والصالحين ، بعد ان افنى المنتج من اعوامه في ما لا يصلح نفسه . استيقظت نفس المعري الساخرة لهذا العالم الضارب في الارض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالا ، يتبعه الخوف من مكان الى آخر ، ويتعقبه هزؤ الناس . فالرفيق يسرق له رسالة كُلِّف بحملها . وابنة الاخت تنهب له مالاً جهد في لمه . والذاكرة تخونه فتنسى ما قطع المسافات الشاسعة في جمعه ، وامضى الليالي الطوال في حفظه . فشاء ان يلهو به بعض حين ، وان يكون لهوه به عنيفاً شاقاً ، يجشمه فيه ما لا

(٣) ظهر سنة ٢٧٠هـ. اقام برهة باليمن . خوطب بالربوبية ، وعلم بشيوع المرأة . وفي زمانه كانت القيان يلعبن بالدف ويقلن :

خذي الدف يا هذه والعبي   وبثي فضائل هـذا النبي
تولى نبي بني هـاشم   وقـام نبي بني يعرب
فما تبتغي السعي عند الصفا   ولا زورة القبر في يثرب
اذا القوم صلوا فلا تنهضي   وان صوموا فكلي واشربي . . .
ولا تحرمي نفسك المؤمنين   من اقربين ومن اجنبي
فكيف حللت لذاك الغريب   وصرت محرمة للأبي
أليس الغراس لمن ربه   ورواه في عامه المجدب ؟
ومـا الخمر الا كماء السحاب طلق ، فقدست من مذهب

(رسالة الغفران ج ٢ ص ٣٩ — ٤١)

(٤) خليفة اموي ، اقام في الملك سنة وشهرين . تنسب اليه بعض الاعمال الشاذة كرميه المصحف بالنشاب ، وانفاذه الى مكة بناء مجوسياً ليبني له على الكعبة مشربة ، وانه كان يدين للاله ماني .

(٥) سليمان بن ابي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي الملقب بالجنـابي (٢٨٦ — ٣٣١) ولد في فارس . ظهر بالبحرين عام ٢٨٦ ، وعاث في تلك النواحي فساداً . دخل بغداد ثم الشام عام ٢٨٩ هـ. قتله خادمه عام ٣٣١ هـ. قتل الوفاً من الناس ، واستملك ما لا يحصى من النساء والغلمان .

(٦) متصوف مشهور ، كثير الشطح والاحاديث اللدنية . يقول بالحلول ويدعي ان الالوهية قد حلت فيه . كان مقتله سنة ٣٠٩ هـ. وكان في بغداد قوم ينتظرون رجوعه .

(٧) من اصبهان ، يهودى الاصل . معتزلي المذهب ، كثير التقلب ، توفي سنة ٢٤٥ هـ.

(١) يذكر ابن القارح في رسالته (رسالة الغفران ج ٣ ص ٣١) انه نيف على السبعين . واذا سلمنـا انه ولد عام ٣٥٠ فتكون الرسالة قد كتبت حوالي عام ٤٢٣ هـ.

(٢) ولد الفيلسوف عام ٣٦٣ هـ وتوفي عام ٤٤٩ هـ

يطيق الشيوخ القيام به الا في العالم الآخر . وشاء ان ينتهز فرصته هذه فيفرغ ما جمعه في ذاكرته المعجبة من عويص الالفاظ ، وغريب التراكيب وبعيد المغازي ، وقصي المعـاني . فاجاب على رسالة ابن القارح برسالة طالت وتشعبت حتى غدت كتاباً ضخماً ، عرف باسم رسالة الغفران[1] . برزت فكرتها في ذهن شاعر العرب وفيلسوفها بروزاً مفاجئاً ، سببها عرض من الاعراض ، كما كان ابن القارح في نظر المؤلف عرضاً بين العلماء . تصفح ما كتبه اليه وجالت في خاطره فكرة ما زال الأعمى يجيلها في خياله كل يوم منذ تفتق فهمه على الاديان ، وادرك من أية طينة قد جبل مخاطبه ، وبأي لسان تحاور اجابته . فاستهل المعري الجواب بالثنـاء على الشيخ ابن القارح ، قائلاً انه قد غرس له من اجل كلماته الطيبة شجر في الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق الى المغرب . والولدان المخلدون في ظلالها قيام وقعود يقولون : « نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلي بن منصور نخبأ له الى نفخ الصور » ، وتجري في اصول ذلك الشجر انهار من الحياة والكوثر ، يعمد اليها المغترف بكؤوس من العسجد واباريق خلقت من الزبرجد . . . ودفعه هذا المدخل الخيالي الى تمثل ابن القارح سائراً في الجنان متنقلاً من مكان الى مكان ، متصلاً بمن فيها من السكان . ثم اعاده الى الحشر ، فوصف كيف توصل بعد العناء الشديد والشفاعات الكثيرة الى اجتياز الصراط ، ونقله الى السعير فزار من فيه وتعرف الى احوالهم . . . وبعد ذلك انصرف الى الاجابة على النقاط التي عرض لها السائل في رسالته .

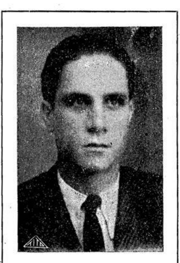
لسنا في معرض تفصيل واطناب ، وانما نحن في موقف اختصار وايجاز ، غير انه من المستحب ان نلم إلمامة خاطفة ببعض ما حوته صفحـات مؤلفه ، فنشرف من نافذته اشرافة متفرج ، لا اشرافة ناقـد .

رفع المعري الستار كما رأينا على غابة من بواسق الاشجار ، حولها الولدان ، وانهار يغرف منهـا بالكؤوس الغالية . وفي تلك السواقي اوان على هيئة الطير السابحة ، ينبع من افواهها شراب لا يدانيه ما ذكره الشعراء . وهناك انهار من عسل مصفى ، ما كسبته النحل الغـادية الى الانوار ، بل قال له الخالق : كن فكان !! . يجتمع ابن القارح هناك بزملائه من علماء اللغة كالمبرد وابن دريد وسيبويه والكسائي وابي عبيدة والاصمعي . وهم على سرر متقابلون

(١) يلاحظ ان اشهر المصنفات الفلسفية الاسلامية وضعت بشكل رسائل كالمنقذ من الضلال للغزالي وحي بن يقظان لابن طفيل ، ورسالة الغفران هذه .

لا عداوة بينهم ولا خصومة ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. وابو عبيدة يحدث الصحب بأيام العرب ، وهم يغترفون من انهار الرحيق.

ويمر في خاطر الشيخ ابن القارح ان يقوم بنزهة ، فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر . يصادف في نزهته الاعشى وزهير ابن ابي سلمى ، وعدي بن زيد. ويمضي في نزهته تلك فيلتقي بشابين يتحادثان ، كل منهما على باب قصر من در ، ويتعرف اليهما فاذا بهما نابغة بني جعدة ونابغة بني ذبيان. ويمر سرب من اوز الجنة ، فلا يلبث ان ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لامر . ومن شأن طير الجنة ان يتكلم ، فيقول الشيخ :


الاستاذ جبور عبد النور

ما شأنكن ؟ فيقلن : ألهمنا ان نسقط في هذه الروضة فنغني لمن فيها من شرب. وينتفضن فيصرن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة وبأيديهن المزاهر وانواع مـا تلتمس به الملاهي ، فيتغنين ويرقصن. ويغرق الجمع في احاديث اللغة والشعر. وتنتهي المنادمة بمشاجرة تنشب بين الجعدي والاعشى. فيقول نابغة بني جعدة : « أقسم ان دخولك الجنة من المنكرات . . . ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت انه غلط بك » ويثب عليه فيضربه بكوز من ذهب. فيصلح الشيخ بينهما ، ويقترح على الحاضرين ان يختار كل واحد منهم واحدة من الاوز فيذهب بها الى منزله. ولكن احدهم يأبى ذلك خوفاً من ان يُعرَفوا فيما بعد بأزواج الاوز ، فتضرب الجماعة عن اقتسام القيان.

وينتقل ابو العلاء ببطله من مشهد الى آخر ، ومن مأزق الى ثان بدعابة وسخرية ، ويريه مشاهد الجنان واعاجيبها ، ويجمعه بن معمع به من مشاهير اللغة والشعر. كل ذلك بما امتاز به من خيال خصب ونقد لاذع.

ولعل من أعجب المشاهد ، وابرع الفصول في الرسالة ، ذلك الذي يمثل الشيخ ابن القارح يوم الحساب ، وقد حُشر مع الناس ، ووجد ملك الخير ان حسناته قليلة كالرياض في العـام الارمل — القليل المطر — على ان توبته عوضت عليه مـا خسره. واقام في الموقف زهاء شهرين ، وزينت له نفسه ان ينظم ابياتاً في رضوان خازن الجنان عملها على وزن : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب وعرفان . . » وجعل القافية رضوان. وزاحم الناس حتى وقف منه بحيث يسمع ويرى ، فمـا احفل به ولا أبه بما يقول . ثم نظم سواها ، ولم يزل يتتبع الاوزان حتى أفناها ورضوان ما فهم مـا يقول ، ولا أذن له بالدخول. فشفع بالملك زُفر ، ثم بحمزة بن عبد المطلب ، فارسله الى علي بن ابي طالب. وفيما هو يسير صادف استاذه ابا علي الفارسي [1] ، وقد تعرّض له قوم يجادلونه ويأخذون عليه تأويل ما قالوه في العالم الارضي على غير ما يريدون. فتدخل ابن القارح في الجدال دفاعاً عن استاذه. لكن المسكين شغل في خطابهم فسقط منه كتاب التوبة الذي لا يمكن دخول الجنة بدونه.

لم ييأس ابن القارح ، بل طاف على العترة المنتخبين ، وتوسل بهم لرفع طلبه الى فاطمة ، عندما تمر بهم. فلما مرت بالحوض تعلق بركاب اخيها ابراهيم ، حتى وقف عند النبي. وكان لا يزال عليه عبور الصراط ، فلم يتمكن لضيقه ، فارسلت اليه فاطمة جارية لتساعده على اجتيازه. فحملته وجازت به كالبرق الخاطف. فلمـا جاز قالت الزهراء : قد وهبنا لك هذه الجارية، فخذها لكي تخدمك في الجنان !!

يطول بنا الكلام اذا استقصينا المشاهد الساخرة في الرسالة. ولكن هذه النظرة السريعة تكوّن لنـا فكرة عن الاسلوب البارع في الهزء الذي تميز به فيلسوف المعرة. كانت نفسه تتبرم بالناس ، وخياله يضيق بالارض ، فجمع الناس بابن القارح ، ونقل الارض الى السماء. وجاء بما ظنه معاصروه تقى وايماناً ، ورأى فيه معاصروه شكاً وكفراً.

•

عدّ الغربيون وصف العالم الثاني ، من جنة وجحيم أمراً معجزاً لا يبلغه الا الخيال المبدع ، الذي لم يكتف بمزج ما يقع تحت حسه من الاعراض والصور واستخراج تشابيه جديدة مبتكرة ، ولم

(١) ابو علي الفارسي (٢٨٨ – ٣٧٧ هـ) اشتهر بعلم النحو. اقام بحلب ايام سيف الدولة ، توفي في بغداد عام ٣٧٧ هـ.

يرتو باستقائه من المنابع المعنوية ، بل غادر دنيا الاحياء ومضى الى العالم الثاني حيث هو واجد منجاً أنفاً يأخذ منه بدون حساب .

والواقع ان النصرانية لم تعن بالحياة الثانية عناية كبرى . او بقول آخر لم تمثل تلك الحياة بصورة مادية ، تحدها الابعاد الثلاثة ، ويحيا فيها الناس من صالحين وطالحين على ما يستحقون من ثواب وعقاب . وانما مثلتها عقلية روحية . وما يرويه الكهنة للمؤمنين ، وما تمثله لهم الرسوم في الكنائس من نعيم او عذاب حسيين ليس الا رموزاً ، ترمي الى التأثير في خيالهم . فهي صادرة عن مبدأ نفساني اكثر منها عن اصل مسيحي . فقد جاء في انجيل متى :

« . . . وفي ذلك اليوم دنا اليه الصدوقيون الذين يقولون بعدم القيامة وسألوه قائلين : « يا معلم قال موسى ان مات احد وليس له ولد فليتزوج اخوه امرأته ويقم نسلاً لاخيه ، وكان عندنا سبعة اخوة تزوج اولهم امرأة ومات ولم يكن له نسل ، فترك امرأته لاخيه . وكذلك الثاني والثالث الى السابع . وفي آخر الكل ماتت المرأة . ففي القيامة لمن من السبعة تكون المرأة لان الجميع اتخذوها . » فاجاب يسوع وقال لهم : « قد ضللتم لانكم لم تعرفوا الكتب ولا قوة الله لانهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ، ولكن يكونون كملائكة الله في السموات[1] . » لذلك اعجب المسيحيون الغربيون بالشعراء الذين جسم خيالهم روحية الحياة الثانية ، وجعلوا للسماء والجحيم أبعاداً ، وللمحشورين ألواناً من اللذة والعذاب لا تختلف عما يقع تحت ابصارنا الا من حيث العظم والاتساع .

أما الاسلام فعلى نقيض المسيحية ، أسرف اسرافاً كبيراً في الكلام عن مادية الحياة الثانية . فاستقى ابو العلاء من المنابع الاسلامية الصافية القسم الاوفر من مواد نعيمه وجحيمه . استقى من القرآن والحديث والمعراج بنوع خاص . ومما كان ينقله المؤرخون انفسهم عن التابعين وتابعي التابعين ، ومما كان يتحدث به اصحاب المواجد والاذواق . فالجنة والنار أمران معلومان ، يعرف المسلم جغرافيتهما تمام المعرفة . لانه وقف على تفصيل خريطتهما مما طالعه في الكتاب والاحاديث والمعراج . وبوسعنا ان نقول بشيء من التأكيد ان المواد البنائية الاولية التي شيد بها المعري ساحة الحشر والنعيم والجحيم موجودة في الكتب الاسلامية التي سبقته . فلا سبيل الى الشك في ان القرآن اوحى اليه الاوصاف الرائعة التي

---

(1) انجيل متى ، الفصل الحادي والعشرون ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

تخلب اللب . لاننا اذا طالعنا الكتاب بشيء من التدقيق والتحقيق وجمعنا الآيات التي تعرض للعالم الثاني ، وحاولنا ان نؤلف منها وحدة وصفية لوحدة مكانية ، تتجلى لنا صورة واضحة مرتبطة الاجزاء والاقسام ، تعود الى ثلاثة ابواب : القيامة والنعيم والنار .

ليس من يعرف الساعة التي تتوقف فيها الكائنات عن الحياة الدنيوية سوى الله . فقد جعل لها ، كما جاء في الكتاب ، وقتاً لا يدركه سواه . فتأتي الناس بغتة ، وهم عنها غافلون[1] . يبدأ الحشر فينفخ في الصور[2] ، لايقاظ الاموات . فاذا ما تعالت الاصوات يأخذ الناس بالانسلال من اجداثهم ليفدوا على ربهم . ويعتري الكواكب والسيارات شحوب ، فيخسف القمر ، وتجتمع الشمس به[3] . غير ان العالم يكون بغنى عن انوارها لان نور الله يشع عليه . ثم يفد الانبياء والشهداء[4] ليشهد لهم الله بصدق ما جاؤوا به . واما المحشورون فانهم يحملون الى الحساب كتبهم ، لان اعمال كل نفس سجلت في كتاب خاص[5] ، فتجازى على الاعمال التي قامت بها في الحياة الدنيا[6] ، فان خيراً ارسلت الى الجنة ، وان شراً انحدرت بها الشياطين الى النار .

اما الجنة القرآنية ففي السماء او السموات السبع[7] ، في القبة الزرقاء . جعل الله بها بروجاً وزينها للناظرين ، وحفظها من كل شيطان رجيم . فاذا استرق السمع اليها احدهم اتبعه بشهاب مبين[8] . جعل الله الجنة للمؤمنين والمؤمنات ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم[9] . تجري من تحتها الانهار[10] وفيها جنات وعيون[11] وانهار من لبن لا يتغير طعمه ، وانهار من خمر ومن عسل مصفى[12] وفيها قصور شاهقة[13] ، ومساكن طيبة[14] يخلد المؤمنون فيها قرب ازواج مطهرة[15] يجلسون في ظل ظليل[16] . يدخل عليهم الملائكة من كل باب . يقولون لهم : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار[17] . وقد نزع الله الغل من صدورهم ، فيجلسون متقابلين[18] لا يسمعون لغواً الا

«١» سورة الاعراف آية ١٨٧ «٢» سورة طه آية ١٠٢ «٣» سورة القيامة آية ٩ «٤» سورة الزمر آية ٦٩ «٥» سورة الاسراء آية ١٣ «٦» سورة النحل آية ١١١ «٧» سورة الحجر آية ١٦ - ١٧ - ١٨ «٨» سورة الحجر آية ١٦ - ١٧ - ١٨ «٩» سورة الرعد آية ٢٣ «١٠» سورة البقرة آية ٢٥ «١١» سورة الجاثية آية ٥٢ «١٢» سورة محمد آية ١٥ «١٣» سورة الفرقان آية ١٠ «١٤» سورة التوبة آية ٧٢ «١٥» سورة البقرة آية ٢٥ «١٦» سورة النساء آية ٥٧ «١٧» سورة الرعد آية ٢٢ - ٢٤ «١٨» سورة الحجر آية ٤٧

سلاماً[1]. وقد يجلسون وازواجهم في ظلال على الارائك. يطعمون الفاكهة[2]، او على سرر متقابلين. يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون[3] بكأس من معين بيضاء، لذيذة للشاربين[4] او بصحاف من ذهب واكواب فيهـا ما تشتهي الانفس، تلذ الاعين، وفيها فاكهة كثيرة يأكلون منها[5]، او يقدمون لهم لحم طير مما يشتهون[6]. وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون[7] او ياقوت ومرجان مقصورات في الخيام[8]، تحلين بأساور من ذهب ولؤلؤ. ولباسهن من الحرير[9]. وثياب المؤمنين سندس خضراء، واستبرق[10].

اما الجحيم التي تقشعر لها الابدان، وتشيب لهولها الولدان، فلها سبعة ابواب. يدخل من كل واحد منها جماعة من الغاوين[11]، وهم من الجن والانس[12]. كلما دخل جنس لعن الجنس الآخر، واتهمه بانه سبب ما يحل به من العذاب الاليم[13]. ويأخذ المعذبون بالشهيق والزفير[14]. يرتدون ثيـاباً قطعت من نار. ويصب فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود[15]. كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها[16]. فاذا ما عطشوا سقوا حميماً يقطع احشاءهم[17]. او يصطرخون: ربنا اخرجنـا نعمل صالحاً. أو ينادون اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء، ومما رزقكم الله، فيقولون: ان الله حرمها على الكافرين[18]. ولا يزالون في عذابهم الى آخر الدهر.

هذه هي الصورة التي يرسمها الكتاب للعالم الثاني. وهي على ما رأينا لا تختلف كثيراً عن الصورة التي جلاها المعري في رسالة الغفران. على ان الفيلسوف قد ادخل في الجو القرآني ابن القارح العجوز وسخر به مـا شاء. بل ربما كان من غايته المكنونة ان يهزأ بأمور عديدة، فترضى نفسه عنه لانه قال ما تريد، وترضى العامة عنه لانه قال ما ارادت. وبين الامرين تناقض واختلاف لم يوفق الى الجمع بين الامرين سوى ذلك الاسلوب البارع، العويص اللفظ، المتقطع الفقرات الموشى بالآيات. والدليل على استقائه الموضوع من الكتاب هو انه عندما يصف منظراً من الجنان او مشهداً من النار، يستشهد على ذلك بآية قرآنية، كأنه يريد ان يؤكد لنا انه لا يخترع اختراعاً، او كأنه يريد ان يجعلنا اكثر ايماناً بما يقول.

والواقع ان هذا الموضوع كان مقرباً الى قلوب المؤمنين. فهم يريدون ان يقفوا على تفاصيل المنزل الذي يسيرون اليه. ويريدون ان يعرفوا مما يتألف. وكيف طريقة الوصول اليه. ومـا هو نوع الحياة فيه. وما هم ملاقون من اللذائذ اذا ضحوا ببعض شهواتهم وميولهم؟ وما هم ملاقوه من انواع العذابات اذا تركوا لاهوائهم العنان؟ يريدون المقابلة والموازنة. فاذا كان ما يوعدون به يفوق كثيراً مـا يتركون يرضون ويؤمنون. لذلك كثرت الاحاديث والروايات التي فصلت العالم الثاني. وتحدث الناس عنه كما يتحدثون عن شؤونهم اليومية. ورووا النوادر، وهزأوا كما هزأ المعري من بعد. ولم تنحصر معرفة جغرافيته في العلماء، وانما انتشرت بين الجميع. وكان اكثر الناس تفقهاً بها الفقراء والمساكين. فشلوا في الحياة فلا اقل من ان يتعزوا بالثانية. حرموا طيبـات المآكل والمشارب فلا اقل من ان يغرقوا في احلامهم، ويتمثلوا انفسهم وقد نزعت عنهم الاسمال وارتدوا الوشي المنمنم، وطهروا من الاقذار والاوساخ، وضمخوا بالطيوب، وجاءتهم الحور العين بمـا يرغبون. وكثيراً ما كان السائل يقف بباب احدهم فيقول: « أطعمونا مما تأكلون، أطعمكم الله من طعام الجنة![1] ».

وجاء في الحديث « ان النبي كان يوماً يحدث — وعنده رجل من اهل البادية — ان رجلاً من اهل الجنة استأذن ربه في الزرع. فقال له: او لست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب ان ازرع. فاسرع وبذر، فتبادر الطرف نبـاته واستواؤه واستحصاده وتكويره امثـال الجبال. فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فأنه لا يشبعك شيء. فقال الاعرابي: يا رسول الله لا تجد هذا الا قرشياً او انصارياً. فانهم اصحاب زرع. اما نحن فلسنا باصحاب زرع فضحك رسول الله[2]. » فان هذا القرشي او الانصاري الذي لم ينس ما كان يعمله في حياته الدنيا، واحب ان يتابع عمله في الجنة يكاد يشبه ابن القارح الذي اضاع عمره في التفتيش

«1» سورة مريم آية ٦٢ «2» سورة يس آية ٥٦ «3» سورة الطور آية ٢٤ «4» سورة الصافات آية ٤٥ - ٤٦ «5» سورة الزخرف آية ٧١ «6» سورة الواقعة آية ٢١ «7» سورة الصافـات آية ٤٩ «8» سورة الواقعة آية ٥٨ - ٧٢ «9» سورة الحج آية ٢٣ «10» سورة الدخان آية ٥٣ - سورة الدهر آية ٢١ «11» سورة الحجر آية ٤٤ «12» سورة الاعراف آية ١٧٩ «13» سورة الاعراف آية ٣٨ «14» سورة هود آية ١٠٦ «15» سورة الحج آية ٢٠ «16» سورة النساء آية ٥٦ «17» سورة الانعام آية ٧٠ - سورة محمد آية ١٥ «18» سورة الاعراف آية ١٢٨

---

(١) الجاحظ: كتاب البخلاء ص ١٩٢ - طبعة مكتب النشر العربي دمشق ١٩٣٨

(٢) صحيح البخاري ج ٩ ص ١٨٥

عن عويص الكلام، وغريب الشعر، فمثله المعري يتابع مهمته هذه في العالم الثاني، ويضيع كتاب توبته لشدة انشغاله بقضايا اللغة.

وكان حديث الاسراء منبعاً آخر للمعري. وهو انه في ليلة الاثنين في السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة اتى جبريل النبي بدابة دون البغل وفوق الحمار، تسمى البراق. فحمل عليه، وانطلق به جبريل حتى اتى بيت المقدس فصلى فيه ركعتين وعرج به الى السموات السبع، فرأى في الاولى آدم، وفي الثانية عيسى ابن مريم، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة ادريس، وفي الخامسة هرون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة ابرهيم، حتى وصل الى سدرة المنتهى[1].

اولع الناس بحديث الاسراء هذا، كما اولع به المحدثون. فحكوه على روايات متعددة وتأويلات مختلفة. وكان من نتيجة تحمس المحدثين ان ظهر بشكل روائي بارع لا يقل روعة عن رسالة الغفران. هذا اذا لم نقل ان وصف النار وانواع العذاب هو اكثر دقة في المعراج منه عند ابي العلاء. واليك مثالا على ذلك عندما يعرض صاحب المعراج للنار فيرسمها بقوله مختصراً: «رأيت سبعين الف بحر من غسلين، وسبعين الف بحر من غساق... وسبعين الف بحر من رصاص مذوب. على ساحل كل بحر الف مدينة من نار. في كل مدينة الف قصر من نار. في كل قصر سبعون الف تابوت من نار. في كل تابوت سبعون الف صنف من العذاب. ورأيت فيها حيات كامثال النخل الطويل. وعقارب كأمثال البغال.» واكثر من في النار — كما يقول صاحب المعراج — من النساء. على بعضهن ثياب من قطران. في اعناقهن السلاسل والاغلال. بعضهن قد احترقت وجوههن. وألسنتهن سائلات على صدورهن. واخريات معلقات من شعورهن. يغلي دماغ رؤوسهن كغليان القدور، هن اللواتي لا يغطين شعورهن من الرجال الاجانب. وفي تنور من نار نساء معلقات بأرجلهن، كن مسلطات اللسان، يشتمن ازواجهن. ورأى امرأة رأسها كرأس الخنزير، وبدنها كبدن الحمار. وعليها الف الف نوع من العذاب، كانت في حياتها الاولى نمّامة توقع العداوة بين زوجها والجيران[2].

على ان الصعوبة التي تعترضنا في جلاء هذه النقطة من التداخل في الاخيلة الشعرية الخالقة، هي في توقيت وضع المعراج. ولعله لم يوضع في وقت معين، وان نسب الى ابن عباس الصحابي المشهور الذي جمع في صدره القسم الاوفر من احاديث النبي واعماله، وحياة المقربين اليه وخصائصهم... وانما اشتركت الاجيال الاسلامية في تأليف هذه الرسالة المعجبة المدهشة حقاً من حيث براعة خيالها. فتناقلها الرواة المتدينون وحدثوا بها الناس. وهم يرمون من وراء زخرف الوصف الى تحميس المؤمنين العاديين، وتثبيت المترددين، بأن يبينوا لهم المقام الرفيع الذي يحتله الاسلام بين الاديان السماوية والرتبة السامية التي ينزل الله فيها الرسول، والحياة الماتعة المشرقة التي تعد لاصحاب الكتب عامة وللمسلمين خاصة، والعذاب المريع الذي يتقلب فيه الكافرون والخاطئون. ولعل السامعين كانوا يصغون الى وصف المعراج باعجاب عظيم، واطراق اعظم. فيتشوقون الى ما يوعدون به، ويرتعشون عند ذكر النيران ويتلمسون اجسامهم برعب وهلع...

من الثابت ان المعري عاش في مثل هذا الجو. وسمع مثل معراج ابن عباس واعجب ببراعة الوصف. وجهد فكره الباطن في ترويض خياله. حتى اذا ظهر ابن القارح في حياة الفيلسوف ادرك ان الفرصة قد حانت لاخراج ما نضج في خياله من صور، وفكره من آراء الى حيز الوجود، فكانت رسالة الغفران.

لا نريد الموازنة. ولسنا في معرض الحكم على ما نسب الى ابن عباس. وان ما يمكن قوله دون مبالغة، هو ان المعراج يبلغ الذروة العليا من الابتداع الخيالي. فيه بعض ما قاله ابو العلاء، وفيه اكثر مما ذكره. ففي سمائه قصور اللؤلؤ والزبرجد والمسك الاذفر، وافراس من نور (ص ٦). وفيه قناديل من جواهر (ص ٢١). ورفارف خضر كمثل القعد يحمل كل واحد اربعة من الملائكة (ص ٢٢). ومن حصباء جنته الدر الابيض والزمرد الاخضر والمسك والعنبر. ومن نسيجها الاستبرق والسندس (ص ٢٦). وفيها الانهار السبعة: نهر من ماء، وثان من لبن، وثالث من خمر، ورابع من عسل، وخامس من سلسبيل، وسادس من رحيق، وسابع من كوثر (ص ٣٧). وفيها من الجواري العين ما لم يبلغ خيال المعري تمثل اشباههن. كتلك الجارية الكحلاء

---

(١) راجع: صحيح البخاري ج ٥ ص ٦٦ – ٦٧. والجامع اللطيف في فضل مكة... لجمال الدين القرشي ص ١٨٢ – ١٨٣

(٢) معراج ابن عباس ص ١٤ – ١٥ – ١٦ طبعة دمشق

النجلاء ، اجمل من الشمس والقمر . خلقها الله من قدميها الى ركبتيها من الكافور الابيض . ومن ركبتيها الى صدرها من المسك الاذفر ومن صدرها الى وجهها من النور الازهر . لو اشرفت على اهل الارض لاضاء من خنصرها المشرق والمغرب . ولو بصقت في البحر المالح لاصبح عذباً (ص ٣٦ – ٣٧) . وفي المعراج فوق ذلك ، مما لا نجده في رسالة الغفران وحدة قصصية وارتباط روائي . ومواقف حرجة . وفيه استعراض تفصيلي لما في الجنان والنار ، ولاحوال الانبياء والرسل ، ووصف دقيق للمخلوقات التي تعمر العالم الثاني . وفيه بداية ونهاية ، ودليل يقود الرسل في رحلته ، ويشجعه في شدته . .

•

لابد لنا في سياق بحثنا من الاشارة الى ما ذكره بعض الدارسين من قرابة بين رسالة الغفران ورسالة التوابع والزوابع التي وضعها الكاتب الشاعر ابو عامر ابن شهيد الاندلسي ، يصف فيها نفسه ، وقد سار برفقة فارس جني الى بلاد الجان ، حيث اتصل بهم ، وتحدث اليهم بامور اللغة والشعر ، وجادلهم ونافسهم . ولم يعد الا بعد ان اجازه نفر منهم ، واعترفوا له بالبراعة والتفوق .

ذكر الاستاذ احمد ضيف في محاضراته بالجامعة المصرية عام ١٩٢٢ ان رسالة التوابع والزوابع هذه ليست سوى محاكاة لرسالة الغفران . وان ابن شهيد يقلد ابا العلاء ، لانه ادرك عصره ، وكانت شهرته قد ذاعت في المشرق والمغرب . وعلق الاستاذ زكي مبارك في النثر الفني (ج ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٧١) على رأي استاذه ، بعد تحقيق بسيط ان ابن شهيد كتب رسالته ما بين عامي ٤٠٣ و ٤٠٧ ، وان ابا العلاء كتب رسالته عام ٤٢٤هـ . وفي رأيه « انه صار من المرجح ان يكون ابو العلاء هو الذي قلد ابن ابي شهيد . وكما كان الاندلسيون يقلدون اهل المشرق في كل شيء . كان اهل المشرق يحرصون اشد الحرص على متابعة الحركة الادبية في الاندلس . بدليل ان رسائل ابن شهيد ذاعت في المشرق ودونها الشرقيون قبل ان يموت ، وقبل ان توضع رسالة الغفران . »

لا نريد ان نعيد التحقيق في تاريخ رسالة « التوابع والزوابع » لان مثل هذا الامر لا يتسع له مثل هذا المكان . وانما يمكننا ان ان نقول بشيء من التأكيد ، دون ان نعنى بسبق احدى الرسالتين للثانية ، ان في حكم الاستاذين كثيراً من الاطلاق ، عندما يؤكدان صلة القرابة بينهما . فرسالة الغفران هي غير رسالة التوابع والزوابع . المعري يرمي في ما كتبه الى ان يسخر بالصورة التي تتمثلها العامة عن الحياة الثانية . وابن شهيد ، اديب من الطبقة الثالثة او الرابعة يكتب فلا يعجب . وينظم فلا يحلق . كثر ناقدوه ، وقل محبذوه . فتخيل ما تخيل ، لينقد خصومه . ويبين لمعاصريه مقامه الرفيع في النثر والنظم بين جماعة الجن انفسهم . وموضوع الرسالة يشبه ما يرويه الشيوخ من احلام يرونها في منامهم ، يثبتون فيها امراً قد اختلفوا فيه . واحاديث الجن والانس ، واختلاط بعضهم بالبعض الآخر ليس جديداً في الادب العربي . ولم يكن مخترعاً في عصر ابن شهيد . فما علينا الا ان نلقي نظرة على فهرست ابن النديم لنطالع مئات العناوين لكتب وضعت في السنين التي سبقته ، تعرض لعلاقة الجن بالانس ، ولمغامرات النوعين ، كل في بلاد الآخر . فلعل ابن شهيد قد اصاب بعض هذه الكتب الكثيرة الذيوع ولعله وقع على مثل رحلته الى بلاد الجن ، قام بها سابقوه من الرواة المحترفين . فسار على خطاهم ، يحاول ان يفجر هناك ما يثور في نفسه من طموح وامل .

•

وبعد فما ابقينا من رسالة الغفران . وقد اعدنا الحجارة الى مقالعها ، والاخيلة الى مساربها ، والفكر الى مطاويها ؟ ما كان المعري ناسخاً ولا ناقلاً . وانما كان كجميع شعراء العالم وفلاسفته ، يقوم صرحه الشاهق المترع بجمال الفن على الحجارة الصغيرة والفسيفساء والزخارف والمعدن المكفت والتيجان والمقرنصات التي جهد العمال البسيطون من قبل في تدويرها وتكويرها وتشذيبها ونقشها وصقلها . جاء المهندس الاكبر ابو العلاء . فألف منها ما نسميه رسالة الغفران .

جبور عبد النور

فصلٌ من كتاب «الأَيكَ والغصُون»

من آثار ابي العلاء النفيسة كتاب « الايك والغصون » المفقود ، ويدعى ايضاً « الهمزة والردف ». وقد ذكر المرحوم احمد تيمور باشا في كتابه عن ابي العلاء ، نقلًا عن ياقوت في كتابه « ارشاد الاديب » ان هذا الكتاب يقع في الف ومائتي كراسة تبلغ اثنين وتسعين جزءاً ويبلغ عدد فصوله ثلاثمائة فصل وثمانية .

ويتناول ابو العلاء في « الايك والغصون » ذكر الدنيا بما يراها جديرة به من ذم وقدح، ويقدم لقارئه عظات ونصائح هي آية في البلاغة والايجاز . وينهج ابو العلاء في الايك نهجه المعروف في « الفصول والغايات » فهما في الاسلوب والاداء صنوان لا يختلفان . والطريف ان ابا العلاء لم يتهم في « الايك والغصون » بما اتهم به في (الفصول والغايات) من معارضة القرآن . وربما كان السبب في ذلك، ما اشتمل الكتاب عليه من تمجيد لله ، وثناء عليه ، وتسبيح بحمده .

والكتاب مفقود الاثر ، لا يعلم احد مقره ولا مثواه ، ولكن الدكتور اسعد طلس استطاع بحكم عمله في معهد الدراسات الشرقية ان يطلع على شذرات فصل من هذا الكتاب ، اورده يوسف البديعي في كتابه المخطوط « اوج التحري » اثناء كلامه عن ابي العلاء وأدبه ويوسف البديعي هذا من ادباء القرن الحادي عشر المغمورين . وقد ذكره محمد المحبي في كتابه « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » وذكر من مؤلفاته « الحدائق في الادب » و« الصبح المنبي في حيثية المتنبي » وقال انه توفي سنة ١٠٧٣هـ .

وكتاب اوج التحري للبديعي من المؤلفات التي تعد الان للطبع في معهد الدراسات الشرقية في دمشق . على ان النسخة المخطوطة التي تعد للطبع مصابة بخرم اتلف قسماً كبيراً من الكتاب .

وها نحن نطرف قراء « الاديب » بهذا الفصل الممتع بعد ان اشار الى بعض ملاحظات عليه الاستاذ عبدالله العلايلي . كما لاحظ ان المعري ابتكر به فناً جديداً في النثر يشبه التسميط في الشعر أي الذي تتنوع فيه القوافي ويلتزم قافية بعينها في نهايات مقاطعه .

لولا ما أصفق المتعبدون عليه (١) من تمجيد الله ،
لوجب ان لا يذكر اسم الله تعالى اجلالا وهيبة ،
وأن لا ترفع أغلة الى السماء إعظاماً وتأثماً .
الخمَـصَة للفحل وجاء (٢) ،
لا يستثيرن غضبك هجاء ،
للاقدار النظرة والفجاء (٣) .

•

اذا نزل قدرك فلا راق (٤) ،
واذا هلك عبادك فأنت باق .
أين المتأسف على قومه ؟ ،
لقد شُغل بلقاء يومه .
افرح بالحسنة اذا صنعتها ،
واندم على صلاتكَ متى أضعتها .
الامل والحرص متواخيان ،
والزهد والعبادة نسيبان .
خير ما تنطق به ثناؤك على خالقك ،
وكيف ثناؤك على ما لا تعرفه ؟ ،
انما ذاك عليه الصنع ،
فمعرفتك وقعت بالافعال دون من فعل ،
والله حكيم والمعرفة بربنا عوصاء .
كلّت الالسن عن صفتك ،
نؤمن بك ونثق بعزتك ،
ونسألك ان توسعنا من رحمتك ،
كذب المادح سوى مادحك (١) ،
سبحانك — رب المملكة — ما لها انقضاء .

•

احذر صديقك وصاحبك ،
مثلما تحذر عدوك ومحاربك .
اذا انتوت (٢) بصديقك نوى فلا تنسه ،
واذكر ملاطفتك اياه وأنسه .

---

(١) ساقطة في الاصل وزيادتها ضرورية ، واصفق اجمع (٢) المخمصة الجوع والوجاء القطع . (٣) أي الامهال والمباغتة .
(٤) المراد بالراقي هنا الواقي

(١) في الاصل مادحيك والتعبير بالمفرد أكثر مناسبة . (٢) أي بعد به البعد .

كاشف صاحبك المعصية وازعجه ،
وأكرم الناسك ولا تهجه ،
وأحسن الى فقيرك وابهجه.
من أراد من الدنيا حظاً هضم نفسه في خدمتها،
ومن ادركها من غير نَصَب فذلك جرى
مجرى الشاذ لا يحتمل قياساً عليه.
كم قوم في حب العاجلة قد اضغنوا ،
او خلّفوها بعد ذلك وظعنوا.
قل ما بدا لك او اصمت ،
كلنا صمت الآخرة يسمت[1] ،
أقبح من الغي الاغواء.

•

اذا سقيت عافيك[2] فاسقه محضا ،
واذا سألت ربك معيشتك فاسأله خفضا ،
ولا تذم صاحبك شتغا[3] وبغضا ،
واغفر له ما اجترم تفضلًا وغمضا.
كيف لا أحذر وأتقي ،
هل خلد احد وبقي ،
يا رب من سعد وشقي ،
لقنا برحمتك خير ما لقي ،
فان الهوة اكول فوهاء[4].

•

اشجع فان أقدار الله لا تعجل الى الشجاع
ولا تنكص عن لقاء الجبان ،
فلا تكن من قوم نخباء[5].

•

اذا رزقت الظفر فأحسن ،
وقيد فرسك وأرسن[6].
وخاصم نفسك فانها عدوة ،
واصبر على أقاربك فان الصبر عليهم مروة،
واعلم ان عبادة ربك جنة مجفوة.

---

(١) أي وجهة الآخرة يتجه. (٢) العافي الطالب للفضل. (٣) اهلاكاً. (٤) واسعة الفم. (٥) نخباء جمع نخيب وهو الجبان الذاهب القلب. (٦) الارسان شد الرسن.

لا تعينن احداً بأمر ،
فتطأ على مثل الجمر.
اصبر على احكم ربك واياك وليت الكاذبة
ولو الغارة[1] وعسى المخلفة ولعل الحالبة ،
وابك على خطيئتك ولا تكونن كالرجل
يبكي العدا.[2]

•

لا تملن من استغفارك ،
وواصل التذكرة ودارك[3] ،
واخف الكلمة في إضمارك ،
ولا تريدن جرائمك باعتذارك.
أعد سنة بعد سنة ،
فر الزمان وانا في سِنة.
ان الله يرفع المتواضع ويعينه ،
ويذل المتجبر ويهينه.
اذا كان جليس الرجل يعينه على طاعة الله،
فالمجالسة افضل من التوحد ،
واذا كان الجليس يغمسك في المعصية فبادر
الاخلاء[4].

•

المؤمن بليغ وكأنه عيي ،
ومحسن في الباطن وكأنه مسيء.
في كل نفس اعجوبة ،
والحقائق عن البشر محجوبة.
من كفر فلا تلاحه[5]،
حسبه سيء صباحه ،
في مغداه ورواحه ،
فكان مثل الكلب الاخرق جازى المطعم
بنباحه ،
لا تغبط النمل براحه ،
وارث له من اجتراحه ،

---

(١) في الاصل الغرارة وبصيغة الفاعل اكثر مناسبة. (٢) الشغل يصرفك عن القصد. (٣) امر من المداركة. (٤) مطاوع بمعنى الاختلاء. (٥) الملاحاة السباب.

لو رضي ببارد من قراحه ،
لرجوت ان يظفر بفلاحه[1] ،
على ان الملك محسن في كل الانحاء.

•

يا نحو يا نحو ،
حق لما كتب منك المحو.
ما أنت وما الحاجة اليك ،
انما يفتقر الى تقوى الله ،
ما اشغلني اذا نودي بي عن احكام النداء.

•

ما ترخيم وضع ،
وكلام ضم وجمع.
جر بالاضافة ونصب على الاغراء.

•

استغفر ربك وتب ،
هل تنفعك هذه الكتب ؟
انظر الى من شئت من اهل الزمن ،
تجده في عناء ومحن.
قضى بالجهل المتكهن ،
فاذا هو بالجهل مثله.
كلنا يظلم ويحوب ،
والرجل الى الهلكة يجوب.
يندم الثمل اذا صحا ،
ويعلم انه جهل فيما انتحى.
اذا لاقيت جارك فحيه ،
وان نزح به الزمن عن حيه.
لو وجدنا غير القناعة لاخذناه ،
أبى علينا الغصن لما جذبناه.
من يذكر الله بلسان ،
ويفعل افعالاً غير حسان ،
فبُعد ذاك من انسان.
الزمن كر وفر ،
خير يطرق وشر.
لله ما أبتكر وأروح ،

---

(١) في الاصل بفلاحه.

القرامطة واثرهم في ادب المعري

بقلم الدكتور اسعد طلس



المعري والمتنبي هما الشاعران العربيان اللذان لم يكتب عن شاعر عربي مثل ما كتب عنهما. اما ابو الطيب فقد كتب عنه القدماء والمحدثون، وحفظ اكثر ما كتب عنه. واما ابو العلاء فقد كتب هو عن نفسه وكتب عنه كثير من القدماء. ولكن كثيراً من هذه الاثار فقد. واما المحدثون الذين كتبوا عنه من عرب ومستشرقين فكثيرون جداً. وقد كان لكل منهم على كثرتهم وجهات نظر مختلفة.

وكثير مما كتبه المحدثون عنه قد اعتراه النقص والطعن، بعد ان اكتشفت آثار جديدة لابي العلاء، ازاحت الستر عن كثير من نواحي ادبه. وبعد ان توضحت اسس كثير من المذاهب الفلسفية الاسلامية كمباحث دي خويه في القرامطة ومباحث ماسينيون في القرامطة والاسماعيلية ومباحث برنارد لويس في الاسماعيلية واخوان الصفاء. فقد ازاحت هذه الدراسات كثيراً من الحجب عن بعض النواحي الفلسفية العلائية. وانا مؤمن اننا حين نعثر على كتاب المجالس المؤيد في الدين ابي النصر ابن ابي عمران داعي الدعاة الفاطمي الذي ذكر المؤيد فيه اسس المذهب الفاطمي واسس الفلسفة التي قامت دعوتهم عليها. انا مؤمن كل الايمان بان ظهور هذه الآثار سيكشف لنا نواحي جديدة كانت غامضة او مجهولة من ابي العلاء. فليس طبيعياً ان يعيش ابو العلاء في قرن تكتنفه مذاهب فلسفية عميقة كمذاهب القرامطة والاسماعيلية وغيرهم من الفرق الاسلامية ولا يفيد من فلسفتهم. ولا يعترض على معترض بان المعري قد هجا بعض رجال الباطنيين والقرامطة بانهم لا يبغون من وراء حركتهم هذه الا الشهرة والا الوصول الى المراكز الدنيوية، وان هذه المذاهب منذ ان قامت حركة الزنج

ان ملء الخلد[1] قروح.
التائب خير من غيره،
رجع عن شر العمل الى خيره.
ان أمر الصمد لمقضي،
وكل ما فعله لمرضي.
أعلمُ وعلمي قليل،
ان ظل الرحمة هو الظليل.
ان السائل اذا حرمته،
فقد أهنت نفسك وأكرمته
اطو صاحبك على غرّة،
واحذر من عدوك شره.
لا تيأس من رحمة ربك فانه كريم،
ولا تأمن غضب خالقك فانه بئيس«١».
على انك اقل في ملك الله من ان ينالك غضبه او رضاه،
لولا تفاضل نفوس البشر وجدوا أكفاء.

•

اذا كتم عنك شيء فدعه،
وصد عما قبح ولا تصدعه.
لا إله الا الله كم اجهل وكم أمهل.
اذا عرضت على فانيتك صداً،
ظننت انك فعلت زهداً.
لو انك وجدت المسلك الى نيلها،
لكنت المتشبث بذيلها.
استح من ربك ومن البشر،
واقلل في دعتك من الاشر.
سم نفسك ما حسن من الصنع،
فانها تألف العادة وتدع النفار.
وهب نفسك من المعدومات فالى العدم عن قليل تصير.
كلنا يعدو لما قضي،
هذا سخط وهذا رضي.
لا تقل الا ما ينفعك،
ولا تسمعن الا ما يردعك.
من متّ الى اهل الخادعة بتركها احبوه،
ومن دافعهم في طلبها سبوه.

ابو العلاء المعري

(١) البقاء الطويل.

(١) في الاصل بئس ولكنه بوزن فعيل اكثر مناسبة.

الى ان قويت حركة القرامطة لا يراد بها الا الفتنة وجذب المغانم الى الناس مموهين :

انما هذه المذاهب اسباب ... لجذب الدنيا الى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لـدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة ... والقرمطي بالاحساء
فانفرد مـا استطعت فالقائل الصادق ... يضحي ثقلًا على الجلساء

فابو العلاء في هذه القطعة وفي قطع كثيرة غيرها تجدها منثورة في ديوان الزوميات يحمل على رؤساء هـاته المذاهب لانهم قوم يستغلون مذاهبهم لجذب الناس اليهم وأكل الدنيا بالدين كما يقول ابو حيان التوحيدي .

فالمعري ينقد سيرة هؤلاء القوم ولا ينقد المذاهب نفسها . وهو يتهجم على اولئك الزعماء لانهم لا يريدون من وراء مذاهبهم هذه الا الدنيا فلا يرقون لدموع النساء ولا يرحمونهن .

وفرق بين المذهب نفسه وبين الرؤساء فقد يكون المذهب رفيعاً سامياً وزعماؤه وقائدو حركته من شر النـاس عملًا وخلقاً، ويوضح هذه الفكره بأمر نجده عند ابي العلاء . وهو ان ابا العلاء حمل كثيراً على المصلين كما حمل على الصائمين والمزكين . ولم يحمل على الصلاة والصيام والزكاة بل انه اثنى عليها ومدحها فحملة ابي العلاء انما هي على المصلين الساهين في صلاتهم وحملته على المزكين انما هي حملة على الذين يزكون وهم مكرهون وحملته على الصائمين انما هي حملة على الصائمين المرائين الكاذبين .

فحملة ابي العلاء على القرامطة والباطنية وصاحب ثورة الزنج وغيرهم لا لانهم كانوا يدعون الى فكـرة معينة بل لان نواياهم كانت سيئة ولان السبيل التي كانوا يسلكونها الى الوصول الى اهدافهم كانت سبيلًا عوجاء .

وما لنا نطيل القول في هذا وهناك سبيل نستطيع بهـا ان نبرهن على ما ذهبنا اليه برهاناً قد لا يأتيه الباطل، وذلك ان ندرس مذاهب القوم وما وصل الينا من آرائهم على قلة ذلك، ونبين ما بين فلسفتهم من صلة وما بين الفلسفة العلائية . نبدأ بحركة الزنج وهي ثورة قوية عامة قام بها الزنوج والعبيد عامة في البصرة وما اليها لمحاربة الظلم الذي كانوا يقاسونه من مواليهم في البصرة ومن كبـار الدولة في بغداد وقد دامت هذه الفتنة نحواً من خمسة عشر عاماً اي من سنة ٢٥٥ هـ — سنة ٢٧٠ هـ .

ولهذه الثورة قيمتها الكبرى من الوجهة الاجتماعية وقد شبهها المسيو ماسينيون بثورة أنوس Eunus التي قام العبيد ضد مواليهم من اهل روما سنة ١٤٠ ق . م . ومثلهـا ثورة سبارتوكـوس Spartacus التي قام بها العبيد ضد موالي روما ايضاً من سنة ٧٣ ق . م . الى سنة ٧١ ق . م . ، وهو محق الى امـد بعيد في هذا التشبيه . فان فتنة الزنج هذه قام بها العبيد الذين كانوا يستخدمون في حراثة اراضي البصرة وما اليها والقيام على امرهـا بقيادة زعيم اسمه علي بن محمد العلوي ونسبته الى علي موضع طعن حتى من مؤرخي الشيعة كابن ابي الحديد فقد رأى علي هذا مـا كان يقاسيه هؤلاء الموالي المساكين من عنت الحياة وخشونتها « فدعاهم وحرضهم على الخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم ان يقودهم ويملكهم الاموال . وحلف لهم بالايمان الغليظة ان لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان الا اتى به اليهم فأتاه مواليهم وبذلوا له عن كل عبـد خمسة دنانير فبطح اصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم او وكلاءهم ثم اطلقهم فمضوا نحو البصرة واخذ يجمع السودان فلمـا كان يوم الفطر خطبهم وصلى فيهم وذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال وان الله تعالى أبعدهم من ذلك وانه يريد ان يرفع اقدارهم، ثم امر الذين فهموا عنه قوله ان يفهموه من لا فهم له من عجمتهم لتطيب بذلك انفسهم ففعلوا ذلك[1] ومـا زال امر العلوي هذا يقوى . ومـا زالت حركته تعظم وتنتشر والثورة قائمة على ساق وقدم في جنوبي العراق وشرقه حتى استولى على البصرة وما اليها فأوقع فيهـا الحرائق والخرائب العظيمة ثم استولى على الاهواز وواسط ورامهرمز وكانت له وقائع كبيرة مع الخليفة العباسي الموفق حتى قتل سنة ٢٧٠ للهجرة .

ويظهر ان هؤلاء الارقاء البؤساء قد كانوا يعاملون معاملة جد سيئة فقد حدثنا المؤرخون انهم كانوا يقترون عليهم في المشرب والمطعم والملبس فكانوا يعطون الواحد منهم حفنة من طحين وقليلًا من التمر الردي في يومه . وكانوا يرون تمر البصرة الزاهي الجميل المشهي امام اعينهم ولا تصل ايديهم اليه مع انهم هم الذين يغرسونه وهم الذين يعنون به وبسقايته وقد ضاقوا بذلك ذرعاً فلما ظهر هذا العلوي ودعاهم الى الخروج جهـاداً بالله ويقول السيد ماسينيون[2] ان المصادر التي بين ايدينا لا تحدثنا شيئاً عن كيفية ادارة صاحب الزنج هذا ، ولكنها على أي حال ادارة اشتراكية تتجلى ظاهرة بتلك الحركة الحربية الطاحنة التي شنهـا صاحب

---

(١) انظر الطبري وابن الاثير في حوادث سنة ٢٥٥ وابن ابي الحديد في شرح النهج ٢ — ٣١٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية النسخة الفرنسية ٤ — ١٢٨٢

الزنج على الخليفة العباسي ولولا ان الخليفة وقف موقفاً حاسماً بنفسه امام هذه الفتنة لكان لها شأن آخر.

هذه الثورة، وان كان التاريخ لم يحفظ لنا الا وجهها السياسي وحوادثهـا الدامية المؤلمة. وان كان الشعراء ايضاً كابن الرومي والبحتري لم يصفا منها الا ناحيتها التخريبية، اقول ان هذه الثورة كانت تعتمد على نزعة طيبة يراد بها تخليص عدد ضخم من البشر يحكمه نفر قليل من السادات ولئن نقد المعري صاحب الزنج وتهجم عليه بما تهجم فانه كان ينقد ما صدر عنه من افعال وحشية من تزيق وتخريب واستباحة حرم. ولكنه كان فيما يظهر معجباً بالفكرة التي كان يحملها صاحب الزنج لانها فكرة تحريرية تدعو الى حياة حرة خالصة من كل ربقة بسنها الظالمون الذين صيروا الناس قسمين: احراراً وعبيداً متذرعين باسم الدين، فيعاملونهم شر معاملة:

اسأت بعبدك في عسفه　　وحملت عيرك ما لم يطق
وسوف يجازيك رب السماء　　فشمر لاحكامه واتطق

•

اذا كسر العبد الاناء فعدّه　　اذاة له ان الاناء الى كسر
رفيقك اسرى في يديك فلا تكن　　غليظاً عليهم واتق الله في الاسر

لا شك عندنا في ان الفكرة التي تذرع بها العلوي قد اعجبت ابا العلاء فاعتنقها مذهباً ودعا اليها في جمهوريته كما يرى القاري فيما بعد.

امـا القرامطة او التعليمية كما يسمون ايضاً فقوم ظهروا في القرن الثالث للهجرة بعد ان قضي على حركة الزنوج ولا نعرف عن حقيقة مذهبهم الاجتماعي شيئاً كثيراً لان اكثر آثارهم ابيدت ولم يبق بين ايدينا شيء فيه غناء. على انفيا بقي مما كتبه خصومهم من المؤرخين او رجال الملل والنحل ما يكشف لنـا بعض النواحي عن امرهم.

حركة القرامطة كما تجلت لنا فيما قرأناه عنهم هي حركة اصلاحية واسعة تمتاز بنواح علمية واجتماعية وسياسية ودينية. اما من الناحية العلمية فقد عنيت عناية كبيرة بنشر الثقـافة الهيلانية Hellénistique وامـا من الناحية الاجتماعية فقد نظمت العمال نقابات نقابات ووحدت صفوفهم، كما عمدت الى المثقفين فجمعت امرهم وسارت بهم في سبيل ارادتها لهم واما من الناحية السياسية فتمتاز بدعوة سرية واسعة ترمي الى احقـاق حق العلويين والاسماعيليين. واما من الناحية الدينية فتمتاز بتلك الطرق التحليلية المنظمة، والمكيفة بمـا يليق مع كل الطبقات وكل العناصر وكل المذاهب بأسلوب مبني على العقل والتسامح والمساواة. هذه نظرة مجملة على الحركة القرمطية من نشأتها ونشاطها وأساليبها في دعوتها.

فأنت ترى ان القوم لم يكونوا كما صورهم لنا رجال التاريخ الموجود بين ايدينا من انهم قوم سفاكون هداءون يقتلون الحجيج ويهدمون المساجد، ويخربون بيوت الله. وما الى ذلك من الصور البشعة التي نجدها في الطبري وابن الاثير ومن بعدهما من المؤرخين الاسلاميين. وانما هم قوم لهم عقائد اجتماعية وطرق اصلاحية كانوا يعملون على نشرها. فهم قوم ضاقوا ذرعاً بالحالة التي صار اليهـا الاسلام في القرن الثالث من تطور عجيب وانقلاب واسع فلذلك ثاروا على هذه النظم وارادوا ان يبدلوهـا تبديلاً يلائم العصر الجديد والروح الجديدة. هؤلاء هم القرامطة والاسماعيليون الاول في رأينا. ولو اتيح لنا ان نظفر ببعض المصادر القديمة عنهم لظفرنا بشيء ذي خطورة.

هذه نظرة مجملة القيناها على القرامطة وتاريخهم. واما عقيدتهم ومذهبهم الفلسفي فاكثر غموضاً ايضاً. وقد استطعنا بعد مراجعة كثير من كتب العقـائد والفرق الاسلامية ان نهتدي الى بعض النقاط من حقيقة عقيدتهم. وها نحن اولاً نعرض على القاري الكريم بعض ما نعتقد ان ابا العلاء قد استفاده من طريقتين في بناء صرح فلسفته العلائية.

ان العقل هو الحكم الفصل في كل الامور من اعتقـادات واحوال معاش فمن ساير العقل فهو على صواب ومن خالفه فهو على ضلال. وان (الآله) هو آله المقول أي هو ما هدى اليه عقل كل عاقل.

ان القرآن والحديث ليسا عند ظاهر الفاظهما وان وراء هذه الالفاظ حقائق ينبغي على الانسان ان يفتش عنها.

ان اجلّ العلوم وأشرفها واسماها معرفة الله سبحانه وما عدا ذلك فلا خطر له. ان عابد الله سبحانه لا يعبده حق عبـادته الا بنفي الحدود والصفات والنعوت عنه سبحانه.

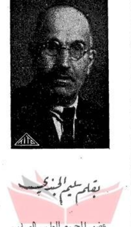
ان النبوات كلها نوع من السياسة العـادلة وضعت لمصلحة المعاش وامور الدنيا.

ان اكثر الناس شرير خبيث مفتون بالزخارف. والامور الباطلة ولكن قد يهتدي الى السبيل المستقيم اذا اراد.

وهذه نظرة اخرى على المذهب القرمطي الذي لا نشك من ان ابا العلاء قد افاد منه كثيراً في فلسفته العلائية.

دمشق　　اسعد طلس

ابو العلاء شاعر عالمي



بقلم سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي

في دمشق

ذهب بعض العلماء الى ان الشعر علم يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه.

وقد اوتي ابو العلاء من حدة الذهن وجودة الطبع والذكاء النادر والرواية الواسعة والدربة البعيدة المدى والبراعة في صوغ الكلام وتنسيقه ما هو غني عن الابانة والايضاح.

فقد توفر لديه من هذه الاسباب ما جعل في نفسه ملكة قوية يستطيع ان يكون بها من المجودين المبرزين في الشعر. وذهب فريق من الادباء المحققين الى ان الشعر كلام موزون يشتمل على شيء من الصور الخيالية. وابو العلاء اوسع الشعراء خيالاً وفي شعره من الصور الخيالية الرائعة ما يقصر عن ادراكه المتطاول

وقد يتجلى ذلك في مثل قوله يصف منهلاً وما يكتنفه من الاهوال:

كأن الصبا فيه تراقب كامناً　　　يثور اليها من خلال اكامه

يمر به رأد الضحى متنكراً　　　مخافة ان يغتاله بقتامه

وقد دل على شدة ظلمته بما لا يمكن ان يدل عليه بأحسن من قوله:

بلاد يضل النجم فيها سبيله　　　وتثني دجاها طيفها عن لمامه

حنادس تعشي الموت لولا انجيابها　　　عن المرء ما هم الردى باخترامه

رجا الليل فيها ان يدوم شبابه　　　فلما رآها شاب قبل احتلامه

وقوله يصف خرقا (فلاة واسعة):

ولو نشدت نعشاً هناك بناته　　　لماتت ولم تسمع له صوت منشد

وتكتم فيه العاصفات نفوسها　　　فلو عصفت بالنبت لم يتأود

ولم يثبت القطبان فيه تحيراً　　　وما تلك الا وقفة عن تبلد

وقوله يصف مطايا قطعت مفاوز بعيدة صعبة:

فكم جاوزن من بلد بعيد　　　وسائر نطقنا هيد وهاد

ومن غال تحيد الريح عنه　　　مخافة ان يمزقها القتاد

وكن يرين نار الزند فيه　　　فلم يبصرن اذ ورت الزناد

لو ان بياض عين المرء صبح　　　هنالك ما اضاء به السواد

وفي لزوم ما لا يلزم صور بديعة تتمثل في قصيدة الديك والحمامة وفي سقط الزند آيات رائعة من هذا النوع في الدرعيات وغيرها ومن كانت رسالة الغفران ورسالة الملائكة من آثار خياله لا يكثر عليه ان يأتي بالحقائق الرائعة من صور الخيال في شعره.

فابو العلاء شاعر واسع الخيال في شعره صور بديعة وامثلة رائعة منه واذا لم تكن في الشاعر قدرة على اختراع المعاني المبتكرة وتوليد معنى من معنى وكان لا يقوى على التصرف في المعاني الموروثة عمن تقدمه زيادة ونقصاً وكان عاجزاً عن صرف معنى من وجه الى وجه آخر فهذا وزان وليس بشاعر لانه لا يستطيع الا المحافظة على الوزن:

ومن نقب في شعر المعري وجد فيه كثيراً من المعاني التي لم يسبق اليها كقوله:

والحسن يظهر في شيئين رونقه　　　بيت من الشعر او بيت من الشعر

وقوله:

والخل كالماء يبدي لي ضمائره　　　مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

افنى قواها قليل السير تدمنه　　　والغمر يفنيه طول الغرف بالغمر

وقوله:

ولو يرجى مع الشركاء　　　خير لما كان الاله بلا شريك

وقوله:

فداه من كالنبت اضيافه　　　اذ يشرب الماء ولا يطعم

وقوله:

وكلامك المرآة تصدق في الذي　　　تحكي وانت الصارم المصقول

والعيس اقتل ما يكون لها الصدى　　　والماء فوق ظهورها محمول

وقوله:

ارى الاري تغشاه الخطوب فيثني　　　ممرا فهل ابصرت من مقر يحلو

وقوله:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطء ما اظن الارض الا من هذه الاجساد
وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الاباء والاجداد
سران اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

الى غير ذلك مما تراه في اضعاف شعره. فابو العلاء شاعر مخترع مبتكر وفي كلامه كثير من المعاني التي سبق اليها ولكنه تصرف فيها فكسبها جمالاً حتى فضل السابق اليها قال البحتري:

اخجلتني بندى يديك فسودت ما بيننا تلك اليد البيضاء
صلة غدت في الناس وهي قطيعة عجب وبر راح وهو جفاء

وقال ابو العلاء:

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم والعذب يهجر للافراط في الخصر

وقد استوفى في الشطر الاول جميع معنى البحتري وسلم كلامه مما يوهمه كلام البحتري بحسب الظاهر من اطلاق التسويد على اليد البيضاء، والقطيعة على الصلة والجفاء على البر.

واخرج الشطر الثاني مخرج المثل البديع وبيت المعري في جملته اوجز لفظاً واكثر معنى واحكم تأليفاً واصفى ديباجة واعم فائدة واطيب نغمة في السمع وقال المتنبي يصف سيفاً بالمضاء:

لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

وقال ابو العلاء في ذلك:

بكاء محين لا في المنايا بسيفك لا يكون له معاد

وبيت ابي العلاء اشد اسراً واكثر مبالغة واجزل معنى واروع خيالاً واطرف واظرف. فابو العلاء مقتدر على التصرف في المعاني تصرفاً يورثها رونقاً وطلاوة وقد وقع في كلام قوم. انه كان يقلد المتنبي ولم ار من اوضح نواحي هذا التقليد ولا من بين مواطنه.

ونحن اذا تأملنا شعر المعري تراءى لنا انه اخذ من كلام غيره لغرض ما. وهو تارة يصرح باسم من اخذ منه كقوله:

من قال صادف لثام الناس قلت له قول ابن اسلت قد ابلغت اسماعي

فان آخر البيت من قول ابي قيس الاسلت:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلاً فقد ابلغت اسماعي

وتارة يتصرف بالالفاظ ولا يصرح باسم صاحبها كقوله:

كأن الصبا القت اليّ عنانها تخب بسرجي مرة وتناقل

والشطر الاخير من قول النابغة:

فسليت ما عندي بروحة عرمس تخب برحلي تارة وتناقل

وقد ابدل فيه رحلي وتارة، بسرجي ومرة، ولم يصرح باسم صاحبه وهذا نادر في شعره وابو العلاء شارك المتنبي وغيره في بعض اغراض الشعر ولكنه لم يسلخ معنى تاماً لشاعر قط وانما كان يتصرف بالمعاني فيزيد وينقص وهذا سبيل الشعراء قديماً وحديثاً.

ألا ترى ان امرأ القيس وصف الجسم بالطراوة واللين حتى انه ليتأثر بما لا يتأثر بمثله عادة فقال:

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الاتب منها لاثرا

فألم بهذا المعنى جمهور من الشعراء كحسان وعمر بن ابي ربيعة والمتنبي وغيرهم.

ووصف الافوة الاودي الطير التي تتبع الغزاة فاقتفى اثره فيها عدد كبير من الشعراء منهم النابغة وابو نواس ومسلم وابو تمام والمتنبي والمعري وغيرهم وقد يوافق المتأخر منهم المتقدم في جهة ويخالفه في اخرى ولم يقل احد من العلماء ان واحداً من هؤلاء الشعراء كان يقلد امرأ القيس او الافوة الاودي، لان المعاني مطروحة في الطريق كما قال الجاحظ وفي وسع كل احد ان يتناول منها ما اراد. وانما يتفاوت الشعر بحسن التأليف وكمال المعنى والاخيلة البديعة والسلامة مما يخل بالفصاحة.

وكان ابو العلاء يحفظ الشيء الكثير من شعر الجاهليين والاسلاميين حتى تأثر به فكان يطبع على غرارهم في كثير من اغراض الشعر لا سيما المدح والفخر ولذلك يكثر في قصائده ذكر السيف والرمح والدرع والقوس والسهم والمفاوز والاودية والنعام والوعول ونحو ذلك حتى يخيل الى قاريء شعره انه اعرابي عريق في اعرابيته. وكان يجود في وصف المحسوس منها اكثر من البصراء مع انه لم ير شيئاً مما يصفه.

وكان ابو الطيب مغرى بوصف الحروب وما يتصل بها وبأماكنها فتصدى ابو العلاء في شعره الى شيء من هذا فجاء بعض الصور مقارباً لما في كلام المتنبي لان صور الحروب كانت في ذلك العهد محدودة متقاربة فربما ظن ظان ان ابا العلاء قلد صاحبه فيه وهذا وهم لان كلا الشاعرين يجري في شعره على منهاج الفحول المتقدمين وان كان يخالفهم في تعميق التفكير ودقة التصوير وروعة الخيال وارسال المثل والحكمة والغوص على المعاني الدقيقة.

وهذا مثال مما تلاقى فيه المعري والمتنبي من الاغراض واختلفا فيه اختلافاً جعلهما كأنهما لم يتلاقيا. وصف المتنبي الغبار الذي تثيره سنابك الخيل فقال:

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغي عنقا عليه لامكنا

ووصفها ابو العلاء فقال:

وبنت حوافرها قتاماً ساطعاً لولا انقياد عداك لم يتهدم
باض النسور به وخيم مصعداً حتى ترعرع فيه فرخ القشعم
وسما الى حوض الغام فاوه كدر بنهال الغبار الاقتم

فكلاهما وصف الغبار ولكن ابا الطيب جعله كثيفاً متماسكاً تستطيع الخيل ان تعنق عليه ولكنه لم يتجاوز الارض الا قليلا . وابو العلاء شارك المتنبي في وصفه وزاد عليه في بقائه حتى باضت فيه النسور وترعرعت افراخها وزاد عليه ارتفاعاً حتى خالط السحاب وكدر ماءه وليس على هذا مسحة التقليد وانما اشتركا في الموصوف وفي بعض الصفات واختلفا في الالفاظ وجهات الوصف .

وقد وصف كل منهما الخيل بجدة السمع فقال المتنبي :

وتنصب للجرس الخفي سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا

وقال ابو العلاء :

كأن اذنيه اعطت قلبه خبراً عن السماء بما يلقى من الغير
يحس وطء الرزايا وهي نازلة فينهب الجري نفس الحادث المكر

فقد جعلها ابو الطيب تسمع ما يناجي به الانسان ضميره كما تسمع الاصوات العالية لفرط حسها وشدة سمعها وهو معنى بديع وفيه مبالغة شديدة وابو العلاء رفعها عن الضمير وجعلها تسمع ما يحدث في السماء وتحس وطء المصائب حين نزولها ، وانها لشدة جريها تنجي صاحبها مما يقع من السماء . وكلا الشاعرين مجود مبدع ولكن بيتي المعري اكثر طرافة واغرب . وقال في موضع آخر في جواد .

يحس اذا الخيال دنا الينا فيمنع من تهدنا الخيالا

فقد جعله يحس بالخيال وهو مبالغة لطيفة ووصف المتنبي الخيل بجدة البصر فقال :

وتنظر من سود صوادق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا

ووصف المعري المطايا بذلك فقال :

وكن يرين نار الزند فيه فلم يبشرن اذ ورت الزناد

فقد جعلها تبصر النار وهي كامنة في الزند قبل ان يورى وهو اوجز لفظاً واشد مبالغة من قول المتنبي ولا يظهر أثر التقليد في شيء مما ذكرنا وهذا سبيله في اكثر ما تلاقى فيه هو والمتنبي . واذا كان الاشتراك في الغرض او الوصف يعد تقليداً فكل الشعراء مقلدون الا اولهم في الوجود . فابو العلاء شاعر غير مقلد والشاعر اذا لم يكن في آبائه واهل بيته شاعر قبله يقال له شاعر فاذا كان ابوه شاعراً فقط قيل له الثنيان . فان كان ابوه وجده شاعرين قيل له معرق فاذا عم الامر جميع أهل بيته او اكثرهم قيل لهم بيت شعر .

وابو العلاء وابوه وجده وجد ابيه . واخواه واولادهم واحفادهم كلهم شعراء ولو سامح التاريخ لوجدنا في اهل بيته مئات من الشعراء . فابو العلاء شاعر معرق ومن بيت شعر واذا تصفحنا تاريخ الشعراء منذ نشأة الشعر في العرب الى هذا اليوم تبين لنا ان الشعراء اربعة شاعر قصر شعره على اغراض نفسه واهوائها فهو شاعر فردي ومن هذا النوع عمر بن ابي ربيعة من شعراء الغزل وعمر بن الفارض من شعراء التصوف . ومن طبع على غراريهما . وشاعر اضاف الى اغراض نفسه ما يتعلق بقبيلته فهو شاعر قبلي او شاعر قبيلة كالنابغتين الذبياني والجعدي والاخطل وجرير . ومن احتذى على مثالهم .

وشاعر تجاوز ذلك الى ما يتعلق بأمته كالفرزدق فانه تصدى الى غير قبيلته والى اعمال الخلفاء والولاة والعمال ولكنه لم يتعرض الى غير العرب فهو شاعر امة . وشاعر تناول في شعره امته واماً مختلفة وبحث عن عاداتها وعقائدها واخلاقها وسياستها ولم يقصر شعره على ما جرت به عادة الشعراء بل تعدى ذلك حتى تناول ما في الطبيعة وما وراءها فهذا شاعر عالمي ولا اعلم احدا احق بهذا اللقب من ابي العلاء . بل لا اعرف من يشاركه في هذه المنزلة فابو العلاء شاعر عالمي .

وكانت العرب لا تعد الشاعر فحلا حتى يأتي بشيء من الحكمة في شعره . وقد عدوا النابغة فحلا بقوله :

نبئت ان ابا قابوس اوعدني ولا قرار على زأر من الاسد

وعدوا الاعشى فحلا بقوله :

قلدتك الشعر يا سلامة ذا فا ئش والشيء حيثما جعلا

ولا اعلم ماذا يعد ابو العلاء وفي شعره مئات من ابيات الحكمة الرائعة ولا اقل من ان يكون فحلا فهو شاعر فحل .

وتصدى ابو تمام والمتنبي في شعريهما الى شيء من مسائل الحكمة وآراء الحكماء مما يشبه اقوال الحكماء عند التكلم في الاخلاق والمواعظ فعدا من الحكماء وابو العلاء تناول في شعره انواع الفلسفة وان تفاوت مقدار ما ألم به من كل نوع وله آراء يؤيدها ونظرات يقيم الدليل عليها وسبيله في ذلك سبيل الحكيم اذا حاول ان يقرر مذهباً او يؤيد رأياً وما في كلامه اضعاف ما في كلام ابي تمام وابي الطيب معاً فهو شاعر حكيم ، وحكيم شاعر .

ويظهر للمتأمل اذا انعم النظر في شعر ابي العلاء انه شارك الشعراء في جميع الاغراض التي نظموا فيها الشعر (ما عدا الهجاء فانا لم نجد له ابياتاً مستقلة هجا بها انساناً معيناً) ، وانه زاد عليهم بما ادخله على الشعر من مسائل العلم والفلسفة ونقد العادات والاخلاق

والمزاعم . وقد وقع شيء من هذا في كلام غيره الا انه قليل تظهر عليه مسحة التكلف .

اما ابو العلاء فقد استطاع بلباقته وحذقه ان يروض الشعر حتي اخضعه لقبول الحكمة والعلم واستمد من مسائله ومصطلحاته معاني بديعة وحكما رائعة وتشبيهات محكمة باسلوب تهوي اليه افئدة الادباء وينحدر الى قرارات النفوس بسهولة فانظر الى قوله :

بت كالواو بين ياء وكسر ... لا يلام الرجال ان اسقطوني

وقوله :

وجدتني اللجين او الثريا ... وتصغير المصغر لا يجوز

وقوله :

ستتبعه كعطف الفاء ليست ... بمهل او كثم على التراخي

وقوله :

واكثر مني على عيبي رجال ... كما بني القريض على الزحاف

وقوله :

كالبيت افرد لا ايطاء يدركه ... ولا سناد ولا في اللفظ اقواء

وقوله :

لا تقيد علي لفظي فاني ... مثل غيري تكلمي بالمجاز

وقوله :

نطقت السن الحمام وبالا ... يجاز جاءت وكثرة الاطناب

وقوله :

والحر يجزي بالصنيعة مثلها ... فكأن فعلها نكاح شغار

وقوله :

قرن بحج عمرة وقريننا ... غراما فآه من قوأر قوارن

وقوله :

هي الدنيا اذا طلبت اهانت ... وعالت والفريضة ذات عول

وقوله :

وان سألوا عن مذهبي فهو خشية ... من الله لا طوقا ابث ولا جبرا

وقوله :

ان كان من فعل الكبائر مجبرا ... فعقابه ظلم على ما يفعل

وقوله :

سما نفر ضرب المئين ولم ازل ... بجمدك مثل الكسر يضرب في الكسر

وقوله :

ظلوا كدائرة تحول بعضها ... من بعضها فجميعها معكوس

وقوله :

جرت القضايا في الانام وامضيت ... صدقا باسوار ولا اسوار

وقوله :

والعمر مقصوم على الاكواب با ... لجزء الاقل وليس بالاعشار

وقوله :

وايسر كون تحته كل عالم ... ولاتدرك الاكوان جرد صلادم

وقوله :

وهواك عندي كالغناء لانه ... حسن لدي ثقيله وخفيفه

فقد ذكر في هذه الابيات شيئاً مما يتعلق بعلم الصرف والنحو والعروض والقوافي والمعاني والبيان والفقه والفرائض والتوحيد والحساب والهندسة والمنطق والفلسفة والموسيقى ولا تكاد تجد علما معروفاً في عصره الا وفي كلامه شيء من الاشارة اليه . ولقد افتن في نقد السياسة والاخلاق والمجتمع والعقائد والعادات ولعله اول من وضع قنابل مدمرة في قوالب يتهافت عليها الناس فتنبه الغافل وتوقظ النائم وتعلم الجاهل . فهو اول شاعر اثار الرعية على الرعاة ونبههم الى ان الامراء اجراء لهم فقال :

مل المقام فكم اعاشر امة ... امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

واول من نبه الابناء الى ان آباءهم جنوا عليهم لانهم القوهم في هذه الحياة المؤلمة من اجل لذاتهم فقال :

على الولد يجني والد انهم ... ولاة على امصارهم نقباء

واول من صرح بان بعض المذاهب لم تتخذ اسبابا للتقرب من الله بل :

انما هذه المذاهب اسبا ... ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

وامثال هذه القنابل المثيرة كثيرة في شعره لايساعد هذا المقام على استيعابها وقد اتى من كل نوع منها بالعجب العجاب حتى كاد يكون ابا عذرتها ولا يغالي من يقول ان هذا النمط بديء بابي العلاء وختم به .

فهو في هذه النواحي مجدد في الشعر وقد ملأ زاوية منه كانت خالية .

ويتحصل من مجموع ماتقدم ان ابا العلاء شاعر مجيد واسع الخيال مخترع مقتدر على التصرف في المعاني غير مقلد معرق من بيت شعر عالمي فحل حكيم مجدد جدير بكل ما في هذه النعوت من معنى .

دمشق ... سليم الجندي

امُّ حُصَينٍ في ضِيافة القَوافي

بقلم رئيف خوري

اذكر في الحكايات ان بدوياً قعد وجماعة يرتجلون الرجز ، وقد اخذوا على انفسهم ان لا يقول واحدهم اكثر من شطر ، شرط ان يلتزم في آخر الشطر القافية التي بني عليها القصيد ، دون ما تكرير للفظة سبق بها . وبدأ بادئهم فاذا به تضيق الدنيا عليه ، فلا يختار للقافية الا كلمة على حرف الثاء ، من الحروف كلها . فلما دار الدور الى صاحبنا الاعرابي كانت الدنيا قد ازدادت عليه ضيقاً واوشكت ان تخنقه فلم يجد له متنفساً في ما بقي له على القافية الا لفظة « ثلاث » فأنشد مضطراً : وامرأتي طالقة ثلاثا

ثم انفجر صائحاً وفي صوته مثل البكاء : ويحي! طلقت امرأتي بقافية . ومن يدري ، فربما كان الامر مؤامرة على الاعرابي لقطعه عن زوجته . ولكن الذي لا ريب فيه ان بين القافية والشاعر خصومة مبدئية هي المهرة الجموح التي لا بد له من ترويضها وركوبها . وقد ينجح في هذا الترويض فتسلس له القياد ، وقد لا ينجح فتكون هي قائدته ، بل ربما انجر لها انجراراً ، ودفعته من اضطراره اليها كما دفعت الاعرابي ان يطلق زوجته الانسانة ليتزوجها ويقيم معها في بيت — بيت شعر ! وقليل من الشعراء من يهدم بيته من اساسه ويستغني عنه وعن العيشة مع مثل هذه الزوجة الشرسة .

وما اتصور ان شاعراً — لا سيما عربياً — كان ابداً موفقاً في كل بيت من بيوته مع زوجاته القوافي . ولذلك جعل البصراء في فن القريض من صفات الشاعر ان القوافي تطيعه . فكأنهم جعلوا الشاعر زوجاً متعدد الزوجات يحترمنه ولا تحدثهن النفس بعصيانه والا غضب وخرب البيوت عليهن ، فربما عاد فبنى لهن بيوتاً جديدة او طردهن وترك البيوت انقاضاً . ولذلك ايضاً استخف النقاد بالشاعر الذي قلقت عليه قوافيه ، فكأنهم انزلوه منزلة الزوج الذي تركبه زوجاته .

وبعد فاين نحن ? فالمفروض اننا نتحدث عن ابي العلاء المعري . بين يدي « رسالة الغفران » عدت اليها بعد مفارقة ليست باليسيرة ، ووقفت طويلاً كما وقفت المرة الاولى عند النمر بن ثولب العكلي ، وببيتيه الشهيرين :

ألمّ بصحبتي وهمُ هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلا مصفى اذا شاءت وحوارى بسمن

فلقد ذكر ابو العلاء ان الراوية خلفاً الاحمر — والظاهر انه كان رجل مشاكل — خطر له ان يوقع المسكين النمر بن ثولب في ورطة ، فتصور ان المرأة التي يتغزل بها ليست ام حصن بل ام حفص ، فاذا كان الشاعر يستطيع ان يطعمها مع العسل المصفى والحوارى (أي : الخبز) ? ان ام حصن هذه لذات دلال لا تتساهل في ما يقدم لها وفي ما تتناول من طعام . والشاعر حين بسط لها مائدة عليها العسل المصفى والخبز والسمن حفظ لنفسه منسحباً ، فاوسع مجالاً لرضاها ، بدليل قوله : « اذا شاءت » . فلو ان اسمها انقلب من ام حصن الى ام حفص فهل تنقلب اخلاقها ، فترضى بما يقدمه لها الشاعر او بما تضطره القافية الى تقديمه من طعام ? وأي امرأة انقلبت اخلاقها بانقلاب اسمها ? فيا لها من مجاذبة ، بل غيرة عنيفة ، اثارهـا خلف الاحمر بين زوجة النمر بن ثولب الاولى وزوجته الثانية ، القافية ! ثم يا لزوج المسكين النمر بن ثولب !

على ان خلف الاحمر زعم ان الورطة ليست بالعقدة التي يستحيل فكها . فاقترح على الشاعر ان يتقدم الى ام حصن بعد ان تصير ام حفص ، بالعسل المصفى والخبز واللمص (أي : الفالوذج) ولكن لعل ام حفص لاتهضم معدتها اللمص ، ولعلها تصيح بالنمر بن ثولب : انك مجبر على اطعامي اللمص بأمر من زوجتك الثانية القافية . فوالله لا ذقته ، فاذا طال الجدال وتأزم ، فربما تنمرت ام حفص على زوجها النمر فقذفت في وجهه قصعة الفالوذج ، فلم يبق له الا ان يطلقها او يطلق ضرتها القافية .

واحب ابو العلاء ان لايقف عند حد خلف الاحمر في هذا العبث القاسي بالنمر بن تولب وهذا الاحراج له في موقفه بين زوجتيه. فتصور ان زوجة النمر، الانسانة، انما هي ام جز. لا ام حصن ولا ام حفص. واقترح على الشاعر ان يطعمها الكشك مع العسل والخبز. والكشك هو اللحم الذي شوي حتى يبس. فاذا ابت فليطعمها الوز، وهو اللحم المشوي الذي لم يفرط في شيه. فاذا رفضت فليطعمها النس. وهو في الحقيقة ليس طعاماً بل التأجيل في الموت، أي: العمر الطويل. فاذا اصرت على الرفض فليقل لها: النس. ايضاً اللبن الكثير الماء، فان احببت جئتك بقصعة منه: فاذا مضت في عنادها فليقل لها: والنس. ايضاً الخمر. فاذا صاحت به: ويحك! وهل علمت احداً يأكل العسل والخبز بالخمر، فليجبها: حدث محدث انه رأى ملك الروم يغمس خبزاً في خمر ويصيب منه فاذا اوغلت في عنادها فليطعمها الز. من قولهم لزأ اذا اكل لما بَعُد. ولسنا ندري أي صنف من أصناف الاكل هذا. فاذا بلغت الغاية في عنادها فابو العلاء يكف عن الاقتراحات ويترك الشاعر المسكين يعالج مصيبته بين زوجتيه ام وز. والقافية.

ثم يكر الكرة من جديد، فيبدأ بتغيير اسم الزوجة الى ام حرب، ويقترح اطعامها الصرب او الارب او الكشب، مع العسل المصفى والخبز. والصرب هو اللبن الحامض، والارب هو العضو المقدد او المشوي، والكشب هو اكل الشواء. ويستمر ابو العلاء في تحويل اسم الزوجة من أم كذا الى أم كذا، وهو ابداً فاتح اعجب مخازن الاعاشة واعجب المطاعم، اعني القاموس. فلا يفتأ يحمل الشاعر هذا الصنف او ذاك من المآكل ليضعه بين يدي زوجته، الى جانب العسل المصفى والخبز. وكأني بابي العلاء يتمثل في سره ويضحك من هذا الشاعر المسكين الذي تقسره احدى زوجتيه القافية، على ان لا يطعم زوجته الاخرى الا طعاماً مقرراً. وكأني بأبي العلاء ايضاً يتمثل في سره ويضحك من سخط زوجة الشاعر أم كذا، او ام كذا، لانها لا تستطيع ان تأكل الا حسب القافية، وسواء أكانت هذه القافية اسمها او اسم صنف من الطعام فهي، أي: الزوجة الانسانة، ضحية مؤامرة متينة الحبك دبرتها ونفذتها الاسماء. فاذا كانت تدعى ام حرب، مثلاً، اتفق عليها الحرب والارب والكشب، اذا امتنعت عن اكل اللبن الحامض جاءها العضو المشوي او المقدد، واذا امتنعت عن اكل العضو المشوي او المقدد، تصدى لها اكل الشواء ايضاً، والا فهو اللبن الحامض من جديد. فيا للكيد ويا للنكاية! وما ازعج ان يدعى انسان — لا سيما امرأة مدللة — الى بيت — بيت شعر — فتجلس الى المائدة في ضيافة القافية المستبدة، والقافية من تعنتها وتشبثها بارادتها جديرة ان تطعم ضيفها كل شيء، حتى ذلك الذي لا يسمى في كلام مكتوب.

وما اشك لحظة في ان ابا العلاء لم يكن جاداً حين زعم عن عبثه ببيتي النمر بن تولب العكلي انه «عرض في قول نام كخيال طرق في المنام.» فلقد احس ابو العلاء احساساً قوياً بذلك الكيد — بل الغلظ — الذي يتعرض له الشاعر من زوجاته القوافي، فلا يرى له بداً من ان يطيق ويداري ويذعن ويحتال. وهذا هو في رأيي معنى عبثه ببيتي النمر بن تولب العكلي. فصحيح انه اعجبه ان يلهو بجعل يوقف النمر بن تولب مواقف حرجة بين يدي زوجته على المائدة. وصحيح انه اعجبه ان يشاهد زوجة النمر في نقمتها على القافية، وغيرتها من هذه الضرة التي تستبد بها وبزوجها. ولكنه مع ذلك اراد بالنتيجة ان ينبه القوافي الى سماجتها احياناً.

كان ابو العلاء، فيما ارجح، يعرف قصة صاحبنا الاعرابي، الذي ذكرنا حديثه في مطلع هذا المقال، وكان يعلم كيف اضطر المسكين الى طلاق زوجته بتضاء من القافية. وكذلك كان ابو العلاء يشفق على النمر بن تولب رغم لهوه وعبثه به. ولم تكن لابي العلاء زوجة من الناس، فيخشى وقوع الغيرة بينها وبين القافية. غير ان صدره كان موغراً على القوافي فهل اراد ان يثأر لصاحبنا الاعرابي، أم هل اراد ان يعوض فائتا على النمر بن تولب لما اخذ نفسه بلزوم ما لا يلزم؟

كأني بأبي العلاء يقبض كفه ويرفعها في الهواء مهدداً التوالي: انكن زوجات عاصيات. وانا ادري كيف اؤدبكن! سأحبس الواحدة منكن في البيت حبساً شديداً، وسأكلفها لا شرطاً واحداً من شروط الزوجية، بل شرطين!

رئيف خوري

الوصف النفسي عند ابي العلاء



بقلم ابو مدين الشافعي

ان اهم ميزة يجب ان يمتاز بها الشاعر هي الوقوف على بعض الحالات النفسية ومحاولته وصفها والتعبير عنهـا . وقد استطاع كبار الشعراء ان يقدموا للانسانية اعنف العواطف التي تصادف كل نفس وتهز كل قلب وتغمر كل شعور . وقدموها لنا في صورة الفاظ موزونة تارة ، ومنثورة تارة اخرى . وكثيراً مـا يركن الناس على اختلاف طبقاتهم الى عبارات شعرية ليستوضحوا شعوراً كان غامضاً لديهم ، او ليتلذذوا بمشاركة الغير لهم في شعور كانوا يظنون انهم انفردوا به . غيران الشعر الحقيقي قد اختلط بالشعر المزيف ، اذ استطاع بعض المتطفلين على الشعر ان يحاولوا وصف حالات نفسية لم يشعروا بها ، ولم يعرفوها قط ، ولجأوا الى استعمال الالفاظ التي استعملها كبـار الشعراء الذين رجعـوا الى الشعـور واصطدمت نفسهم اصطدامات احدثت ثورات نفسية نتجت عنها صيحات شعرية . وهكذا تكون لدينا وصف نفسي حقيقي ، ووصف نفسي مزيف . وان كان في استطاعة كل شخص ان يشعر بالحالات النفسية القوية والخفيفة، غير انه لايستطيع تصويرها الا الذين اتيحت لهم فرصة الرجوع الى النفس وتتبع نظراتهـا وتموجاتها التي هي شبيهة بالتموجات الموسيقية المنسجمة ، كما قد لاحظ ذلك ابو العلاء المعري وعبر عنه في قوله :

وهواك عندي كالغناء لانه   حسن لدي ثقيله وخفيفه

لقد اشتهر ابو العلاء بالفلسفة والتفكير ، ولا ادري كيف يمكن الجمع بين الفلسفة والشعر اللهم الا اذا اعتبرناهما كوسيلتين للوقوف على حقائق نفسية دقيقة تدركها الفلسفة معاني لطيفة ، ويراها الشعر عواطف رقيقة . وموضوع الفلسفة قوالب ثابتة ، وموضوع الشعر موجات متقلبة . وما خيل الينـا فلسفة عند ابي العلاء هو نفحات نفسية اوحتهـا انفعالات وقتيـة تتشابه تارة ، وتتعارض تارة اخرى ، واشعاره التي سارت سير الحكم مشبعة بروح عاطفية هي روح الحزن والتشاؤم فهي وليدة انفعال وشعور ، لا نتيجة تفكير وتأمل . واعتزاله الناس وتقشفه لم يكونا شبيهين بحالة الفلاسفة الرواقيين ، وانما كانا نتيجة حالة نفسية تدل على الضعف والخوف من الحياة .

وبقدر ماكان المعري بعيداً عن الفلسفة ، كان قريباً من الشعر فكما اننا لا نجد عنده اية نزعة ايجابية ، وان كل ماظهر عليه من ابتعاد عن الحياة لم يكن عن ارادة، وانما كان عن ضعف في الارادة، فكذلك نجد المعري يطلق لنفسه العنان في الانتقال من عاطفة الى اخرى ، وقد نجده في القصيدة الواحـدة يصف حـالتين نفسيتين فأكثر . كما نلاحظ ذلك في قصيدته :

طربن لضوء البارق المتعالي   ببغداد وهنا ما لهن ومالي

ففي هذه القصيدة لا نجد المعري يتجلى لنا كشاعر فحسب ، بل اننا نجد في هذه القصيدة مثالا عاليا للشعر الكامل الذي يصف بكل اخلاص وبكل دقة تطور الحالات النفسية وتقلباتها ، فهو يتتبعها بكل امانة وكل سذاجة دون ان يدخل فيهـا اي تنظيم او توجيه . قال هذه القصيدة وهو راجع من بغداد الى وطنه بعد فراق شعر فيه بالحنين الى الوطن . يذكر انه ظهر في برق الافق ، فكان ذلك محركا لنفسه الهـادئة ، كما احدث البرق اضطراباً عند الابل ، وكان ذلك كافياً لبعث الشاعر على الدخول الى نفسه ومراقبة مشاعره واحساساته، وتساءل ما لهن (للابل) ومالي . وذهب يؤول ما يراه في الابل من حركات يجعلها ترمي الى الغاية التي كانت تشغل ذهنه كما يؤول النائم الاصوات والمنبهات الخارجية تأويلا يشغل باله ، بل انه يرى ان الابل التي صارت تسرع في سيرها خوفاً من البرق انما تريد ان تطير لتصل في اقرب وقت الى وطنها . ونزعة الفرح والشعور براحة الرجوع ، وقرب الوصول ، كل ذلك جعله يفكر في تهديد هذه الابل رغم انها تقوم بعمل يرتاح له وهو سرعة السير للوصول الى الوطن فيقول :

وكم هم نضو ان يطير مع الصبا   الى الشأم لولا حبسه بعقـال

ولولا حفاظي قلت للمرء صاحبي   بسيفك قيدهـا فلست ابالي

نجده في هذين البيتين يصف حالة نفسية خفية نشعر بها عندما نكون في حالة السرور ، وحالة التمتع بشيء نخشى ان نحسد عليه فلا نريد ان نظهر ذلك السرور . ولهذا يميل الانسان غالباً الى ان يخلط السرور المطلق بشيء من الالم، فكثيراً ما تتلذذ الام بداعبة

ابنها عن طريق اغضابه ، كما ان المحب قد يلجأ الى اثارة غيرة حبيبه شاعراً بلذة من تضايقه . وفي الحال تغمر الشاعر عاطفة اخرى هي عاطفة الشفقة على الحيوان، ويستغرب كيف جاءته هذه الفكرة الغريبة ، فكرة ضرب هذه الابل التي تنقله الى وطنه :

أأبغي لها شرا ولم ار مثلها   سفاين ليل او سفائن آل

ويطيل التأمل في حال هذه الابل التي ينسب اليها شعوره وعواطفه ، اذ يستوحيها عطفه وحنينه ، شوقه وغرامه :

وان ذهلت عما اجن صدورها   فقد الهبت وجداً نفوس رجال

ولا يمكنه ان يقول اكثر من هذا في الشعور الغريب الذي يغمرنا دائما في حالة انفعال شديد سواء كان انفعال خوف أو انفعال شوق وحب فاننا نشعر بضيق في التنفس ، وكأن الصدر يكون محتوياً على لهيب يميل الى الخروج ، ولا يمكن الصبر معه :

تلون زبورا في الحنين مترلا   عليهن فيه الصبر غير حلال

ويسترسل طويلا في وصف شوقه وألم فراق الوطن ، ويرجع بتفكيره الى خروجه من وطنه معللا ذلك بأن الاقدار هي التي ساقته الى بغداد مبررا عمله دفعاً للندم :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليه الدهر منذ ليال

غير انه لم يفلح في محاولته طرد الشعور بالندم ، اذ انه بعد حالات شعورية جديدة مرت عليه يصرح :

ندمت على ارض العواصم بعدما   غدوت بها في السوم غير مغال

وهذه اصدق صورة لنفسية شاعر يساير شعوره واحساسه ، ويظهر في ذلك موقفه سلبيا محضا لا فاعلية فيه ، بل كله انفعال ونجد ذلك يتجلى في انتقاله من حالة الشوق القوي نحو الوطن المتمثل في قوله :

فهل فيك من ماء المعرة قطرة   تغيث بها ظمآن ليس بسال
دعا رجب جيش الغرام فأقبلت   رعال ترود الهم بعد رعال
يغرن علي الليل اذ كل غارة   يكون لها عند الصباح توال

نجده ينتقل الى حالة عاطفية اخرى مغايره تماماً للاولى ، فان رؤية تخيل الهلال ترتبط في ذهنه بمعنى الجمال والمرأة ، ويقول في هذا :

فذكرني بدر السماوة بادنا   شفا لاح من بدر السماوة بال
وقد دميت خمس لها عنمية   بادماها في الازم شوك سيال

واسترسل في وصف عواطف حبيبه نحوه ، وقد يخيل للقاريء انه لا توجد صلة معقولة بين موضوع العاطفة الوطنية وعاطفة الشوق الغرامية والحقيقة انه توجد هناك علاقة نفسية اذا تأملنا حالة الشعور بالغربة والانفراد ، فانا نرى من المعقول ان يشعر الشخص في مثل هذه الظروف بحاجة ماسة الى المرأة وعطفها . ونراه يصور لنا حبيبه حزيناً باكياً على فراقه ، ونراه هنا يعبر عن انبل شعور عرفته الانسانية وهو الاهتزاز لعطف المرأة على الرجل ، ومشاركتها له في الشعور بالحزن او بالفرح فلم يذكر اي صفة جسمية لحبيبه ، وانما صوره باكيا :

فان صاحت للناظمين دموعنا   فأنت منا والكئيب حوالي
جهلتن ان اللؤلؤ الذوب عندنا   رخيص وان الجامدات غوالي

وبينما هو يتكلم عن عاطفته الغرامية ، نراه ينتقل الى عاطفة اخرى هي الشعور بالعزة والكرامة ، وليس هناك اية علاقة منطقية تبين تسلسل التفكير ، وان كانت هناك علاقة سيكولوجية ، فالتسلسل قائم على الصلة التي تربط الحب بالشعور بالقوة والرجولة . ان لذة الحب لا تتم لرجل ما لم ير نفسه مدافعاً عن المرأة ، قادراً على حمايتها في الحس والمعنى . وهذه العلاقة هي التي جعلته بدون شعور ينتقل فجأة من موضوع الحب الى الفخر والحماسة :

أأخواننا بين الفرات وجلق   يد الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم اني على العهد سالم   ووجهي لما يبتذل بسؤال

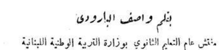
ويزيد في الحماسة ، وقد عرف بهذا في قصيدة مشهورة ، وينتهي بأبيات قوية يظهر فيها عزته وحماسته .

أروح فلا اخشى المنايا وأتقي   تدنس عرض او ذميم فعال
اذا ما حبال من خليل تصرمت   علقت بحبل غيره بحبال
ولو انني في هالة البدر قاعد   لما هاب يومي رفعتي وجلالي

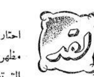
وبهذا تتم الدورة النفسية التي اثارها برق فظهرت عواطف متضاربة كانت كامنة وظهرت بصورة طبيعية لا تكلف فيها . واذا استثنينا ابيات الحماسة ، والبيت الذي يقول فيه (فهل فيك من ماء المعرة قطرة ...) نلاحظ ان الاسلوب فيه شيء من التعقيد ، وفي اللغة شيء من الغموض وهذا دليل آخر على سلبية الشاعر الذي لم يحاول ان يبحث او ينظم ، فاني ارى في هذه القصيدة صورة صادقة للشعر الحي كمرآة للنفس البشرية تنعكس عليها كل حركاتها الطبيعية ومختلف الموجات الانفعالية ...

الجزائر   **ابو مدين الشافعي**

لسانسيه في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول



بقلم واصف البارودي
مفتش عام التعليم الثانوي بوزارة التربية الوطنية اللبنانية



احتار، فحير العالم في حيرته !... وهذا اروع مظهر للعبقرية الخالدة في البشر ! تلك العبقرية التي تفرض نفسها على الاحياء فرضاً، لا يتجلى في الطقوس والشكليات وحسب، بل وفي تغلغل آثارها الى طيات القلوب وتلافيف الادمغة وفي استيطانها اعماق الافئدة، حيث تعمل على توجيه الحياة وتكييفها.

أكان عالماً ام فيلسوفاً ؟ اديباً أم حكيماً ؟ أم هؤلاء جميعاً ؟..

أكان ذا قلب كبير يفيض رحمة وحناناً على الانسانية، أم كان ذلك القلب بركاناً يقذف حمم البغض والحقد، أم كان الاثنين معاً ؟

هل آمن المعري ايماناً صادقاً، أم ألحد وكان زنديقاً مارقاً؟..

وما وصلت بي هواجسي الى الحاد ابي العلاء وزندقته حتى رأيتني أذهل عن نفسي لاجدني في المعرة امـــام ضريح حكيمها.

وما تأملت الضريح برهة قصيرة حتى تمثل امامي شيخ مهيب الطلعة ينظر اليّ نظرات تدل على الالم والحزن. فارتعت مستوحشاً تلك النظرة الحادة تنبعث عن عينين، يسراهما غائرة كأنها حفرة ويمناهما ناتئة قد اختلط سوادها ببياضها وتلونت في بعض نواحيهـــا بالدم ! فمددت يدي لامسك بالشيخ مستغيثاً، فاذا بها تقع على لا شيء. واذا بي ادرك انني امام شبح الروح. ولم يهدأ روعي الا عندمـــا سمعت صوتاً أجش حلو النبرات ينشد:

غريت بـذمي امة | وبحمد خالقهـا غريت
وعبدت ربي مـا استطعت ومن بريته بريت
وفرتني الجهـال حاسدة علي ومـا فريت

ثم يقول: ألا تزالون تغرون بذمي ؟ «[1] ولو اني لا اشعر بمـــا يقال فيّ، لا رحت من انكاري وتلافي. وكنت كالوثن، سواء عليه ان وقر من الوقار، وان اوقر من الاوقار... وكيف اغتبط اذا تخرص علي، وعزيت المعرفة الي، ولست آمناً في العاقبة فضيحة غير مصاقبة.» جعلت نفسي في حياتي رهين المحبسين، بل ورهين المحابس الثلاثة:

لفقدي ناظري ولزوم بيتي | وكون النفس في الجسد الخبيث

ولم ينقذني ذلك كله من الظلم والاذى !

عذيري من الدنيا عرتني بظلمها | فتمنحني قوتي لتأخذ قوتي

وقد اخذت قوتي جميعها، وكانت ضجعة الموت التي استراح جسمي فيها، وانطلقت روحي في الآفاق، فقلت: عسى تستريح هذه الروح استراحة ذلك الجسم المضنى !.. فما بالي « كلما رغبت في الخمول، قدر لي غير المأمول » وها انا اشعر وكأن الدنيـــا قد اقسمت على الاستمرار في ايذائي، وبعد ان انتقلت الى الدار الآخرة، وبعد انقضاء الف عام على جناية ابي علي. فما معنى هذه المهرجانات التي تقام لتكريمي، اذا كنتم في القرن العشرين تنظرون الي بالعين التي كان يرمقني بها ابناء عصري وخاصة الاخصام والحاسدون؟ فكأني بهذه الدنيا تنقم علي ابقائي لذلك الجسد الخبيث في احضانها. بل وكأني بها على ما يتراءى لي، تريد ان لا تعترف بانفصالي عن سلطانها. فهي ترى انها لا تزال صاحبة الحق في ظلمي مادامت تحتفظ بالجيفة الخبيثة، وحبذا لو حرقوها وذروها في الهواء.

انها تغري ابناءها بي وبذمي وظلمي، ومنهم من يستكين دون ان يعلم ان باستكانته هذه يهبها ذاتيته وكرامته لتتصرف بهـــا تصرف كل خادعة ماكرة. ولا تستولي الدنيا على احد الا بطريق التقليد الاعمى. فلذلك تجد هؤلاء يقلدون من سبقهم وليس لذاتيتهم اثر ما في تفكيرهم وفي تصرفاتهم.

رماني اهل الحسد بالزندقة، فما بال هؤلاء يتبعونهم وهم يشمخون بانوفهم مدعين الاصالة في التفكير والاستقلال في الرأي؟

حـــاول اهواني قوم | فما واجهتهم الا باهوان
يخرشوني بسعاياتهم | فغيروا نية اخواني
لو استطاعوا لوشوا بي الى المريخ في الشهب او كيوان

(١) الكلام الموضوع بين الاقواس هو من رسالة الغفران

فلا تكن ، يا بني ، من هؤلاء ، بل احترم نفسك ، واتبع ما يرشدك اليه عقلك فهو خير مشير والظن كاذب خادع .

كذب الظن ، لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

فوالله ، يا بني ، لم اك زنديقاً وانما هم :

تستروا بامور في دياناتهم وانما دينهم دين الزنادیق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل اولى باكرام وتصديق

« واني المكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول ، وانها مما يؤثر لي شغول واذا نقمت الدنيا علي واغرت بي بعض ابنائها فلأنني رأيت حقيقتها بعين بصيرتي و كشفتها للناس . فهلا تنتقم بعد ان فضحتها واظهرت كوامنها ؟ ورياء ذويها واهل الحظوة فيها . « واذا رُجع الى الخلائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تديناً وانما يجعل ذلك تزيناً . يريد ان يصل به الى ثناء او غرض من اغراض الحالية ام الفناء ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . . . »

وكيف يراد مني السكوت عندما ارى متظاهراً ببعض الطقوس التعبدية يظلم جاره ، فلا اقول :

توهمت ، يا مغرور ، انك دين علي يمين الله ما لك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

وصدقني يا بني انه :

اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

فقلت صدقت يا سيدي ، فنحن لا نأخذ عليك اقوالك هذه التي اصبت بها وبامثالها كبد الحقيقة ، على الرغم مما فيها من السخرية الكاوية ، ولكننا نأخذ عليك نبذك الاديان وسخريتك منها .

فاحتدم الشيخ غيظاً وقال : أأنا الذي نبذ الاديان أم انتم الذين :

نبذتم الاديان من خلفكم وليس من الحكمة ان تنبذا
لا قاضي المصر اطعتم ولا الحبر ولا القس ولا الموبذا

فقلت : أو لست القائل يا مولاي :

في اللاذقية فتنة ما بين احمد والمسيح
قس يعالج دينه والشيخ من حنق يصيح
كل يعزز دينه ياليت شعري ما الصحيح

فاجاب : نعم ، وماذا تريد بذلك ؟

فقلت : ألم تسخر هنا بالمسيحية وبالاسلام وتشك بحقيقتهما ، وخاصة عندما قلت : يا ليت شعري ما الصحيح ؟

وهنا ابتسم الشيخ مستغرباً وقال : أهكذا تفهمون اقوالي ؟ ليس لاستفهامي هذا ، ولا لسخريتي هنا اية علاقة مع الدين وحقائقه وانما قصدي من يدعون تعزيزه . أهم يريدون تعزيز دينهم حقاً بما يعملون ، ام هم يغذون الفتنة ؟ فانا اشك هنا بنيات القوم لا بالدين ، واسخر منهم ، وحاشا ان اسخر بحقائق الدين وانا القائل :

اما المجاور فارعه وتوقه واستعف ربك من جوار الملحد
ليس الذي جحد المليك وقد بدت آياته بأخ لمن لم يجحد
واری التوحد في حياتك نعمة فان استطعت بلوغه فتوحد

وهنا قلت : فاذا امكن ان نفسر هذه الابيات على هذا الوجه ، فكيف نفسر قول مولاي :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين وآخر دين ، لا عقل له

فاجاب : لا بد لتفسير هذين البيتين من ان اذكر لك ما قبلهما :

ان هللت افواهكم فقلوبكم ونفوسكم دون الحقوق مهللة
لا تأمنوا برق الغمام فانما تلك السيوف من القضاء مسللة
قال افتكار في الحوادث صادق جمل الصعاب من الحذار مذللة
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين ، لا عقل له

فانت ترى انني اسخر في مطلع الابيات بمن يهلل فمه ولم يخشع قلبه . ثم تأمل عندما اقول : « قال افتكار في الحوادث صادق » ، فانا اصور اذن امراً واقعاً المسه واشعر به ، ولا اتعرض لحقائق الاديان ومثلها العليا . بل انا ادافع عن هذه اذ اقول : « هفت الحنيفة » والحنيفة هي دين التوحيد الذي كان عليه ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد والانبياء . وهو الدين المستقيم . وهفا الطائر اذا خفق بجناحيه وطار . فكأني اقول : طارت حقائق الدين ومثله العليا من القلوب ، وبقي منها الفاظ ترددها الافواه عند المسلمين والنصارى واليهود والمجوس . فاصبح الدين بذلك تقليداً يأخذه الجاهل الغبي ويتبرأ منه العاقل الفطن .

وهذا تصوير للواقع . وهل يعقل ان اعطل هذه الظاهرة الاجتماعية كحقيقة ازلية لازمة للبشر ، وقد كنت من الممجدين للخالق ، جل اسمه ، ومن المتعبدين صوماً وصلاة ونسكاً . وهنا توقف الاستاذ ثم قال : يكفيك الآن ما سمعت ، وارجو ان يسمح بوعد آخر فاجلي لك كثيراً من الحقائق . ويهمني ان تعلم انني لا ابريء نفسي من الخطأ والهفوات ، فلست بمعصوم ، « الا ان التوبة كأنها مصباح ابيل ، رفع لسالك السبيل . » والله هو التواب الرحيم .

وما انهى الشيخ حديثه حتى شعرت انني اعود لنفسي وانا اردد قوله :

اذكر الهك ان هببت من الكرى واذا هممت بهجعة ورقاد
واحذر بجيئك في الحياة بزائف فالله ربك انقد النقاد
تغشى جهنم دمعة من تائب فتبوخ وهي شديدة الايقاد

واصف البارودي

تشاؤم ابي العلاء

بقلم عبد الغني العطري



كره المعري الحياة منذ نعومة اظفاره ، عندما عرف مبلغ الكارثة التي حلت به في طفولته ، فأودت بباصرتيه ، وحرمته التمتع بجمال الوجود وفتنة الحياة . ولكن ابا العلاء حاول بالرغم من ذلك ، ان يرفه عن نفسه ، وان يسكب على روحه وقلبه برد الطمأنينة والسرور ، وان يطرف نفسه جهد المستطاع ، بعالم البهجة والفرح ، وان يسير في الحياة سيراً طبيعياً ، غير عابيء بالنقص الذي يحول بينه وبين الحياة العادية الكاملة . وقد رووا انه تحقيقاً لهذه الرغبة طلب العلم في سن الصبا واول الشباب ، ورحل من اجل ذلك الى حلب وانطاكية واللاذقية . ثم انه فجع بأبيه وهو ما يزال في الرابعة عشرة . ولكن فجيعته بأبيه — على فداحتها — لم تحل بينه وبين متابعة دروسه وحياته العادية التي عاشها . ويروي المترجمون لابي العلاء انه سافر بعدها الى الشام واطلع على ما فيها من دور علم ومكتبات ، وعاد الى المعرة وعاشر الناس كسابق عهده . ثم انه شد الرحال الى بغداد واقام فيها عاماً ونصف عام ، وتمنى ان يقضي ما تبقى من عمره فيها .

ولكنه فوجيء ذات يوم بنبأ مروع اهتز له كيانه ، وارغمه على العودة الى مسقط رأسه دون مهل ولا ابطاء . ولما كان في الطريق علم بان امه التي ترك بغداد لرؤيتها وهي مريضة ، انتقلت الى دنيا الخلود .

فازداد كرهه للناس ، وسئمت نفسه الحياة ، واجتوت مصاحبة البشر . فوجه الى اهل المعرة قبيل وصوله اليها ، رسالة ينبئهم فيها بما عزم عليه من لزوم بيته ورغبته باعتزال الناس . وكانت رسالته ثم عزلته بدء المرحلة الثانية من تشاؤمه ونقمته على البشر وسوء ظنه بهم .

وقد رأينا في المرحلة الاولى ما عاناه ابو العلاء في التغلب على نوازل الدهر واحداث الزمان . فقد صبر على عماه صبراً جميلاً ، وقاوم طبيعته التي جعلت منه مخلوقاً « انسي الولادة وحشي الغريزة » — كما يقول عن نفسه — مدة ثلاثين عاماً ، واحتمل مصابه بأبيه بنفس مطمئنة وصبر عجيب . وصبر عدا ذلك على فقره . ولما عاد من بغداد صفر اليدين من المال ، وعرف مبلغ مصابه بأمه ، وانه فارق بغداد التي استأثرت بقلبه وحبه ، كي يودعها وهي في اواخر ايامها فكان ان خسر بغداد وافتقد الام . لما احس بذلك كله تغلبت عليه غريزته الوحشية . وكانت حماسة الشباب قد فترت في صدره ، والرغبة في التغلب على احداث الزمن قد اضمحلت في نفسه ، فاستسلم الى نزعته الجديدة الملحة في العزلة وكراهية الحياة والبشر .

واغلب الظن ان ثمة عوامل نفسية دفعت ابا العلاء في طريق الاغراق بالتشاؤم وكره الحياة . واول هذه العوامل ان ابا العلاء كان حائراً متشككاً فقد لزمته الحيرة في اكثر آرائه ، وربما في اعماله ايضاً . حمل على الديانات ونقد الانبياء فمدح الديانات واثنى على الانبياء أطيب الثناء . وانكر البعث ، ولكنه اعترف بوجوده ايضاً . ودعا الى محاربة اللذات ، واحياناً يقول انه لم يعرض عنها الا عجزاً .

فهل نستطيع ان نجد تعليلاً لهذه الآراء المتناقضة في الانبياء والديانات والبعث والخالق سوى الحيرة والشك ؟ يقول علماء النفس : ان الحيرة والقلق في حياة الانسان مدعاة للتشاؤم والالم . واغلب الظن ان الامر عند ابي العلاء كذلك . وقد كان امر البعث من اكثر الامور التي شغلت عقل ابي العلاء . فهو لم يكن يدري هل بعد الممات نشور ، ام ان من مات فات ؟ ولكم تمنى ان يبعث ميت من لحده ليخبر الاحياء بما بعد الموت . وقد اكثر ابو العلاء من ذكر البعث والتكهن عن حقيقته واحسب انه كان من اجله يقضي الاماسي والاصباح في حيرة ما بعدها حيرة ، وعذاب ما بعده عذاب ، وقلق ما بعده قلق .

لنتصور ابا العلاء ، وما يضطرب في نفسه من القلق والعذاب حين يقطع برأي ثم يعدل عنه الى غيره . لنتصور مثلاً حين يقول :

افيقوا ، افيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء

ويقول :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطروه
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالمحال فكدروه

ولكنه لا يلبث ان يندم على ما قال : ويمتدح الاسلام والانبياء ، ويأمر بالصلاة والصيام وذكر الله :

اركع لربك في نهارك واسجد   ومتى أطقت تهجداً فتهجد

وانظر اليه كيف يبالغ في الندامة ، ويخاطب الجاحد مبرئاً نفسه من الجحود ! :

اذا كنت من فرط السفاه معطلا   فيا جاحد أشهد أنني غير جاحد

هكذا تلازم الحيرة ابا العلاء ، وهكذا يتردد بين الالحاد والايمان ، وشتم الانبياء والرسل والديانات وبين مدحها ، وانكار البعث والاعتراف به .

يقول « اميل فاكه » : ان الشك من مظاهر التشاؤم ، بينما الطمأنينة واليقين من دواعي التفاؤل . وهو رأي ينطبق على ابي العلاء أشد الانطباق . وينطبق عدا ذلك على الكثرة من المفكرين والعظماء . ولكننا نرى في احوال قليلة ان الشك يدفع بصاحبه الى السخرية والهزل ، كما هو الحال عند اناتول فرانس . على ان الفرق بين شك ابي العلاء . وشك فرانس نظرة الاول الى الحياة نظرة جدية عريقة ، ونظرة فرانس اليها على نقيض ذلك .

وعامل آخر له أثره في تشاؤم ابي العلاء ، هو المرأة . فقد انفق ابو العلاء الثانين من عمره كلها ، دون ان يرقص قلبه فيها لموعد غرام . والبعد عن المرأة وحده يكفي ليستلب التشاؤم والكآبة في قلب الرجل ذي الرجولة الكاملة .

فاذا أضفنا الى هذين العاملين من عوامل تشاؤمه غريزته التي اعترف بوحشيتها ، هذه الغريزة التي دفعت به الى العزلة ، بعد ان جهد في مقاومتها ثلاثين عاماً ، وأدركنا مبلغ حزنه على امه ، وفقره ، وفشله في بغداد ، وفقد باصرتيه ، وشعوره بالنقص والمذلة والانكسار ، واذا نظرنا في هذه العوامل جميعها ، وأمعنا فيها التصور والنظر ، أدركنا ان ابا العلاء لم يكن مسرفاً في كل ما صدر عنه ، من تشاؤم وسوء ظن بالبشر .

زعم الكثيرون من دارسي ابي العلاء ان السبب في تشاؤمه هو عماه . ولست من الذين يأخذون بهذا الرأي اذ اني لا أرى ان فقد البصر وحده مدعاة للتشاؤم واليأس من الحياة . ولا ريب ان فقد البصر بلاء عظيم ، بل لعله اعظم بلاء يحل بالانسان . ولكني مؤمن بأن البلاء يخف وقعه وأثره في النفس مع الزمن . فما بالك بانسان لم يتذوق النعمة كي يفتقدها ؟ وأنا اقول ، وأثق مما اقول ، ان فجيعة ابي العلاء في امه اشد وقعاً وتأثيراً في نفسه من فجيعته ببصره ، لانه لم يتذوق نعمة البصر ، ولم يعتد على التمتع بجمال الوجود ، وانما نشأ وانفق عمره على وتيرة واحدة . أما فجيعته بأمه فكانت أشد وقعاً عليه من فقد بصره . واذا ذكرنا اسراعه في العودة من بغداد ليتزود برؤياها قبل ان تموت ، واذا قرأنا رثاءه لها بقصيدتين من حر شعره ، واذا قرأنا قوله فيها « . . وحزني لفقدهـا كنعيم أهل الجنة كلما نفد جدد » . اذا فعلنا ذلك كله لم نرتب بأن فجيعة ابي العلاء بأمه كانت أعظم من فجيعته ببصره .

ومن الجدير بالملاحظة ان فقد البصر ليس دوماً سبباً للتشاؤم ، ونحن نرى في الزمن الغابر كثيرين من العميان ، ومع ذلك كانوا يحيون حياة عادية مترعة بالمباهج واللذات والافراح . ودليلنا على ذلك بشار بن برد في الزمن القديم ، وبيير لويس وطه حسين في العصر الحاضر ، وكلهم عميان عاشوا ، في سرور ولذة واطمئنان .

وربما كان من الطرافة بمكان الاشارة الى ان ابا العلاء كان يستسلم الى تشاؤمه ، ويجد في هذا الاستسلام لذة ومتعة . ولست ابالغ اذا قلت انه كان يجهد دوماً لتغذية تشاؤمه بأساليب شتى . أنظر قوله :

اراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفس في الجسم الخبيث

تأمل السجن الثالث الذي يدعيه ابو العلاء ، وامعن النظر في عجز البيت الثاني ، وفي احتقار ابي العلاء لجسم الانسان . الست تعترف بعد هذا بأنه يتكلف التشاؤم ، ويحاول تغذية هذا التشاؤم وايجاد مادة صالحة او غير صالحة له ؟! . .

وبعد . . . فقد كان من نتيجة هذا التشاؤم ان اسودت الدنيا في عين ابي العلاء ، فهجاها وافتن في هجائها افتناناً عجيباً ، حتى قيل ان ابا العلاء لم يعرف بخصلة كما عرف في ذم الدنيا . وقد دعا مراراً وتكراراً الى تعطيل الحياة وقطع النسل ومحاربة الزواج . ثم اخذ ينظر الى الحياة والبشر نظرة هدامة ، فرأى ان الانسان شرير مغرق في الشر ، وانه لا أمل في صلاحه واستئصاله بذور الشر والاذى منه . تلك البذور التي توارثها جيلاً بعد جيل . ولم يدع ابو العلاء فرصة تعرض الا واغتنمها وذكر مساوىء البشر ولؤم الانسان وغدره . ولا يستثني احداً في ذلك ، بل يرى نفسه في طليعة البشر لؤماً :

كلاب تغاوت او تعاوت لجيفة   وأحسبني اصبحت الأمها كلبا

وتمنى لو كان آدم طلق زوجه او حرمها على نفسه كيلا يكون على الارض انسان :

يا ليت آدم كان طلق امهم — او كان حرمها عليه ظهار

تمنى ابو العلاء ذلك ... ولكن ما فائدة التمني ؟ وهل تغني الحسرة عما فات ؟ أغلب الظن ان أبا العلاء فكر في ذلك – بعد ان ايقن ان آدم لم يطلق عرسه ، وان الله رزقه منهما اولاداً كثيرين من ذكور واناث فزوج الاخ من اخته حتى كثر البشر ، وصار النسل كله فاجراً – فرأى ان الفساد متأصل في الانسان ، وان لا امل ولا رجاء في صلاحه ، وكيف يصلح وقد سن ابو البشر الشر لبناته وبنيه ، ورضعوا لبن اللؤم والغدر والاذى منذ ابعد الاجيال والعصور ؟ :

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا — فلا ترومن للاقوام تهذيباً

وبلغ من سوء ظن ابي العلاء بالبشر انه لم يعد يؤمن بوجود الرجل الصالح الجيد :

قالوا فلان جيد لصديقه — لا تكذبوا ما في البرية جيد

وكيف يؤمن بوجود الرجل الصالح فيها وهي في رأيه :

قد فاضت الدنيا بأدناسها — على براياها واجناسها
وكل حي بهــا ظالم — وما بها اظلم من ناسها

وصار الحكام والولاة والامراء شياطين مسلطة ، وصار « في كل مصر من الوالين شيطان » ، فمل ابو العلاء المقام في امة «امرت بغير صلاحها امراؤها » واصبح يرقب عيده الاكبر ، يوم يرحل عن هذه الدنيا المليئة بالشرور والآثام :

انا صائم طول الحياة وانما — فطري الحمام ، ويومذاك اعيد

ويشتد ابو العلاء في تشاؤمه من الحياة وكرهه لها ، وازدرائه اياها ، فما يستطيع بعد ان يرى هذه الدنيا ، وما يطيق ان يحتمل اذاها وغدر ساكنيهــا . فينصح للناس ان يحتقروا الحيــاة وان يستجيبوا لنصحه ، ويتمنى – ويا خيبة ما تمنى ! – ان يعطل البشر هذه الحياة . ولكن كيف يعطلون الحياة ، وما الوسيلة الى ذلك؟

هنا يطل ابو العلاء ، ويتمنى ان يكف النـــاس عن الزواج .

ولكن امن السهل ان يستجيب الناس الى هذه الدعوة ، والمرأة بهجة الحياة وزينتها؟ هنا يقف ابو العلاء حائراً من جديد ، لا يدري اي سبيل يسلك للايقاع بين الرجل والمرأة . فنراه يفتن في الكشف عن عيوب المرأة ، والحاق كل نقيصة فيها ، كي يجتويها الرجل ، ويكف عن التفكير بها ، لانها لا تحفظ عهداً ، ولا تعرف شرفاً ولا عفة الا فيما ندر والنادر لا حكم له . انظر اليه هنا كيف يصور رغبات المرأة وضآلة قيمتها وجدواها في المجتمع . وانظر اليه كيف يصف احلام المرأة وامانيها في الحياة ، وانها لا تعبأ الا بما يشبع نهمها ! .. وانظر اليه عدا ذلك ، كيف يقسو عليها قسوة جاهلية فيحلل ما حرم الله ويدعو الى وأدها حية ، لانها لا تصلح لشيء ، وانما هي اداة فتنة وغي وضلال :

يردن بعــولة ويردن حلياً — ويلقين الخطــوب ملومــات
ولسن بدافعات يوم حرب — ولا في غارة متغشمات
فوارس فتنة اعلام غي — لقينك بالاساور معلمات
ودفن ، والحوادث فاجعات ، — لاحداهن احدى المكرمات

ولكن كيف يتنازل الرجل عن غرامه بالمرأة ، وفيها سر الحياة ؟ هنا تصدم هذه الحقيقة ابا العلاء ، ويرى انه لا بد من ادخال بعض التعديل على رأيه ، فيتمنى – ويا لخيبة ما تمنى ! – ان يتزوج الرجل – اذا لم يجد بداً من الزواج – بامرأة عقيم لا تحمل ولا تلد :

نصحتك لا تنكح فان خفت مأثماً — فأعرس ولا تنسل وذلك احزم

ولا يكتفي بذلك ، بل يتجـاوزه الى الطعن على النسل ، والحملة على الاولاد ، لانهم مبعث شقاء الوالدين :

واكثر النسل يشقي الوالدان به — فليته كان عن آبائه دفعا

ويتمنى لو مات الوليد ساعة وضعه « ولم يرتضع من امه النفساء » ولكنه لا يلبث ان يحمل الوالد وزر جنايته على ولده

هذا جناه ابي علي — وما جنيت على احد

●

هذه طرق من تشاؤم ابي العلاء ، ودوافعه ، ولا شك انه تشاؤم هدام مهما اولناه . ولو اتيح لهذه الآراء ان تخرج الى دنيا الحقيقة والتنفيذ ، لكان فيها القضاء العاجل على البشرية والوجود . ولا ريب انها صدرت عن نفس يائسة لم تر جمال الحياة ، ولم تنظر الى العالم الا بوجه متجهم يخفي ما فيها من مواطن الجمال والفتنة والسحر . ولكن الغريب في الامر ان فريقاً من كرام الباحثين يحـــاول ان يثبت ان ابا العلاء لم يكن متشائماً ! ولسنا نحاول الرد على هذا الفريق ومناقشة اقواله ، لاننا لا نرى في هذه الاراء ، اكثر من « تظرف » ومحاولة فاشلة للعثور على مادة جديدة في ادب العلاء .

دمشق — عبد الغني العطري

الألوان في أدب المعري

بقلم بهيج عثمان

سكرتير تحرير الاديب





كانت العين للانسان سبيلًا رئيسياً من سبل الاحساس بالجمال والاستمتاع به ، فانها عند الفنان خاصة اداة اولى للوصف .

فالفن الجميل منه السمعي كالموسيقى والآداب ، ومنه البصري كالنقش والرسم والتصوير الذي يعبر عن الجمال بالخطوط والظلال والالوان ، وقد يستعين الفن السمعي بالبصري فيعرض الصور المرئية والاوصاف الحسية، التي هي من صميم الفن البصري ، عرضاً مميعاً ، وتصبح عنصراً هاماً من عناصر الاسلوب في الادب . وقد تقصد هذه الصور لذاتهـا فتتجمع وتأتلف موضوعاً مستقلًا له خصائصه من موضوعات الادب ، كما كانت اسلوباً من اساليبه .

وابو العلاء الذي اصبح منذ سنته الرابعة رهين هذا المحبس ، عندما اصابه الجدري وغشي يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى جملة، أغمض عينيه دون جمـال الطبيعة وهو لا يعرف ، كما قال ، من الالوان الا الاحمر، لانهم ألبسوه حين جدر ثوبـاً معصفـراً . ويضيف ابو العلاء : « ولا أعقل غير ذلك » . ويقول في احدى رسائله الى داعي الدعاة : « ... وبصري عن الابصار كليل ، قضي عليّ وانا ابن اربع لا افرق بين البازل والرُبع » أي لا افرق بين الكبير من الجمـال الذي بلغ تسع سنين والصغير الذي لا يزال في سنته الاولى .

وهكذا حيل بينه وبين وسائل الوصف واجادته ، ولكن هذه المأساة في ابي العلاء ، جعلت منه رجلًا يحرص على الامتياز في نفس الميدان الذي ضاع منه سلاحه ... فخاض موضوع الوصف ، وتناول ما يحتاج الى الابصار ، وردد ذكر الالوان كثيراً ، واسرف في ذلك اسرافاً جعل القارىء يشعر بمحاولة المعري شعوراً قوياً .

وهو في تناوله الموضوعات المبصرة ، كغيره من الاكفاء ، يقلد الشعراء السابقين في تصويرهم ، ويؤدي هذه الصور المبصرين من غير تجربة ولا رؤية فيعتمد على الشعراء الذين اتقنوا الوصف وبينوا خصائص الالوان وجمالهـا ، وصلة كل منها بالمعاني . فقد يذكر النجوم او الخيل او الاشجار ، وغيرها مما سبق ان وصفها العرب او شبهوا بها وليس يكون منه ذلك الا تقليداً وسماعـاً ، فلم ينطبع في نفسه انطباعاً داخلياً ، فهذه التشبيهات والاوصاف اقرب الى ان تكون اسلوباً من اساليب اللغة او تشبيهاً من تشبيهات الشعراء منهـا الى أي شيء آخر .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن قصور الكفيف عن اجادة الوصف الشعري فيقول : ان اجادة الوصف الشعري لشيء من الاشياء تقتضي ان يحدق الشاعر فيما يريد تحديقاً يظهره على دقائقه في نفسه رسماً يمس عواطفه وخياله حتى ينطلق لسانه بوصف هذا الشيء نقلًا عما تركت صورته في خياله وقلبه ، من الشكل المفصل والتأثير الشديد ، ومن الواضح ان ضريراً كأبي العلاء ليس له الى ذلك من سبيل » . فلا بـد اذن لابي العلاء من الاستعانة بكبـار الشعراء الذين تقدموه فيما ينقل الينا في شعره من صور ملونة ، ونحن نعلم انه انصرف في فترة من حياته الى شرح ديوان البحتري في كتابه « عبث الوليد » ولعل اتقان البحتري للصور المرئية وجمال وصفها عامل هام في اقبـال المعري على البحتري ، ولكن ابن الرومي قد وصف ايضاً .. غير ان صوره كانت شديدة التعقيد ، يضني المبصر متابعتها ... وكذلك شرح ابو العلاء شعر ابي تمام في كتابه ذكرى حبيب ، وشعر ابي الطيب في « معجز احمد »

فهؤلاء الشعراء يتحدثون ، كما يتحدث الناس ، عن جمال الازهار واخضرار الاشجار ، ونضرة الطبيعة ، في الربيع ، وعن السحاب يخفق فيه البرق ، والغيم ينتشر في انحاء السماء ، وقطرات المطر تنتثر وحبات البرد تتساقط ، في الشتاء ، وعن الحسان الفاتنات موردة خدودهن

لامعة ثغورهن ، في كل حين ، وعن كل ما يكتنف حياتنا من جمال وبهاء ، وظلال واضواء ، يتحدثون حديث العارف الخبير ، يرى هذه المحسوسات امام عينيه فيصفها وهو يحس جمالها واثرها في نفسه وما يسبغ عليه من متعة ولذة ونعيم . . .

يقرأ ابو العلاء كل ذلك ، ويفيد منه ما شاء ان يفيد ، ويدرك ما سمحت له طبيعته ان يدرك ، ويثبت في شعره ما استطاع من تحديد الالوان الظاهرة ، ولكنه يفوته الشكل والهيأة ويقصر في دقة تمثيل الصور واثر كل ذلك في نفسه ، فهو ينقل عن ذاكرته التي حفظت . . . وليس عن العين التي ابصرت . . .

ومن اجل ستر هذا القصور ، والتعويض عن هذا النقص ، اتبع ابو العلاء طرقاً شتى ، فأما ان يحمد الله على العمى ، واما ان يتساءل ما نفع ادراك هذه الالوان ، واما ان يتقدم بحشد متزاحم من الالوان . . .

قال ابو العلاء : « انا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر » وهذه ليست اكثر من عزاء عن هذا الحرمان الذي اصيب به ، يتسلح به ابو العلاء امام المبصرين ، ويحاول ان يظهر نفسه غير مبال لهذه النكبة ولا مكترث لها . وتذكرنا هذه الكلمة بكلمة اخرى تحمل المعنى نفسه ، قالها قبله بشار : « الحمد لله الذي اذهب بصري لئلا ارى من أبغض » .

ويعلل ابو العلاء سبب حمده الله على العمى فيقول :

قالوا العمى منظر قبيح   قلت بفقدي لكم يهون
والله ما في الانام شيء   تأسى على فقده العيون

بل انه يجعل من هذه النكبة فائدة هي الذكاء وادراك الاشياء فيقول :

سواد العين زار سواد قلبي   ليتفقا على فهم الامور

وقد يسلك الطريق الثاني فيتساءل عن قيمة ادراك اللون الظاهر والصورة الخارجية فقد يتشابه الشيئان ولكنهما في الواقع متباينان كل التباين :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه   ان السماء نظير الماء في الزرق

وكثيراً ما يكون البصر هو سبب الخداع والانحراف عن الصواب ، فلا بد اذن من بصيرة باطنة تدرك المعاني فقال :

رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن   ولم يروك بفكر صادق الخبر
والنجم تستصغر الابصار صورته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

فاذا كان ابو العلاء قد حمد الله على هذه النكبة من ناحية ، واوضح قصور العين وخداعها من ناحية اخرى ، فانه وجد نفسه مضطراً ان يساهم الى ابعد مدى في القيام بما تقوم به العين الباصرة عند زملائه الشعراء ، فاسرف في ترديد الالوان مهما كانت المناسبة ضئيلة تافهة .

فاذا اقتبس معنى من شاعر سابق ، فما اكثر ما يزيد عليه تشبيهاً معتمداً على ذكر الالوان ، فيأخذ من المتنبي قوله :

وقد يتقارب الوصفان جداً   وموصوفاهما متباعدان

ويقول :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه   ان السماء نظير الماء في الزرق

فيضيف على المعنى الذي قاله المتنبي توضيحاً يعقله من يرى زرقة الماء وزرقة السماء .

واذا قال المتنبي :

واذا خفيت عن الغبي فعاذر   ان لا تراني مقلة عمياء

قال ابو العلاء :

وكم عين تؤمل ان تراني   وتفقد عند رؤيتي السوادا

فقد قلب هذا التركيب وادخل فيه ذكر السواد ، وكثيراً ما اكتفى المعري من العين بذكر « سوادها » فقط .

وربما بلغ بأبي العلاء التكلف الى اقحام مجموعة من الالوان وايرادها دفعة واحدة كما يقول :

كأن الانجم السبعة في لعبة بقارا   خزامى واقاحي وصفراء وشقارا

فهذه المجموعة من الازهار المختلفة الالوان ، المتعددة الاشكال ، كلها موصوفات مبصرة . ثم انظر الى هذا السيف الذي يتلون الواناً للاقران في غمرة الحرب فهو تارة يشبه الماء وتارة يشبه النار يتراءى للناظرين على الوان مختلفة كما يقال عن تلون الغول في القفر :

تلون للاقران في هبواته   تلون غول القفر للعاجز المجع
تقول بدا في سندس او مورد   من اللبس او عصب يروقك اونصع

فمتى ظهر هذا السيف قلت لبس سندساً اخضر او ثوباً وردياً او ابيض ناصعاً لتجمع هذه الالوان كلها فيه . . .

وليس من الغريب ان يذكر المعري في شعره الالوان المعروفة ، فان هذا طبيعي ، بل لعل الغرابة في عدم ذكرها . ولكن يلاحظ من يتصفح شعره ، وخاصة الشعر الذي نظمه في الطورين الاول والثاني من حياته ، انه يكثر ترديدها كثرة ملفتة . ولن نبحث هنا عن كثرة ما ردد من سواد الليل ونضرة النهار وبياض الشباب وبيض الاماني وحمر المنايا وخضر الحرير . . . انما يعنينا ان ننوه بتعبيره بالالوان عن معان شتى ، فاذا اراد ان يتحدث عن شجاعة رجل امهله الدهر اياماً وبسط له في الطمأنينة ثم أهلكه كر الايام والليالي قال :

أمهله الدهر فاودى به   مبيضه يحدى بمسوده

واذا اراد ان يحيي من يتحدث عنها تحية محب ليس ماء الفرات

بأطيب منها مع انه صاف سائغ عبر عن صفاء الماء بالزرقة فقال :

تحية ود ما الفرات وماؤه بأعذب منها وهو ازرق سلسال

اما شيب ابي العلاء. فكم يبدو جميلًا من خلال هذه الصورة الملونة :

غصن الشباب عصى السحاب فلم يعد ذا خضرة اذ كل غصن اخضر
قد اورقت عمد الخيام واعشبت شعب الرحال ولون رأسي اغبر

وقد يتكلف ذكر بعض الالوان، وهو حريص على ايرادها، فيبدو تشبيهه غريباً عن الدقة بعيداً عن الاحكام ، كما يقول :

سوى ان السفين تخال فيها بيوت الشعر شكلا واسودادا

فهو يصف بحر الروم ، ويشبهه كبرّ بلاده ، والسفن القائمة في عرض البحر تشبه بيوت الشعر على البر في شكلها ولونها الاسود . . فهل ينطبق المشبه به على المشبه ؟ وهل وجه الشبه قريب معقول ؟

ولما طرب مرة ، واعجب ، شرب الماء ، وكره شرب الخمر ، فلما اراد تسجيل ذلك ، ترك اسماء هذه الموصوفات الصريحة وذكر اوصافها اللونية فقال :

فاغتبقنا بيضاء كالفضة المحض وعفنا حمراء كالارجوان

وعندما اراد ان يقول : اسل عن بلادك فقد امكنك مرعى وماء، فاشرب من الماء وارع في هذا المرعى طيب النفس ، قال :

فآبك هذا اخضر الحال،عرضاً وازرق فاشرب وارع ناعم البال

ويقول :

وقد اغتدي والليل يبكي كاسفاً على نفسه والنجم في الغرب مائل
بريح اعيرت حافراً من زبرجد لها التبر جسم والجين خلاخل

اي انني اغتدي بفرس كالريح مسرعة ،وقد اعيرت هذه الفرس حافراً كانه الزبرجد صلابة وخضرة لون ، وان الفرس اشقر محجل ، فجسمه « تبر » « وخلاخله لجين ».

وعندما لا يعقل هذه الالوان ، والفروق الدقيقة التي تميز بعضها عن بعض فانه يظن ان سواد الليل كسواد السحب سواء بسواء ، وكلاهما كسواد الزنج تماماً . . .

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان

ويصف ليلة اخرى :

كأنها هي اذ لاحت كواكبها خودٌ من الزنج تجلى وشحت خضضا

فكلتا ليلتيه عروس (او خود) من الزنج ، والنجوم التي تبدت في السماء قلائد من جمان على صدر تلك العروس ، او وشاح من خرز ابيض . . . وتشبيه الليل بالزنجي معروف لدى السابقين من الشعراء ، وقد زاد عليه ابو العلاء قلائد من النجوم او وشاحاً من الخضض . فهل لمبصر ان يلائم بين هذا الخيال الذي نقله ابو العلاء وبين الصورة الواقعة ؟ وكيف يتسنى للنجوم ان تتجمع لتكون قلادة على صدر حسناء ابي العلاء . . . ؟

وقد عرف ابو العلاء ان الناس يصفون السحاب بالسواد ايضاً ، كما يصفون الليل بالسواد ، وقد شبه الليل بالزنج، فطبيعي اذن ان يكون السحاب كالزنج في خيال ابي العلاء . . . فيتحدث عن السحب يصفها بأوصاف شتى ويعطف على هذه الاوصاف تشبيهاً آخر :

او نسوة الزنج بأيمانها المرقص قضب ذهبيات

فهذه السحب كأنها نسوة من الزنج ترقص ، وهذا اللمعان الذي يرافق البرق مثل تلك القضبان الذهبية التي تحملها هؤلاء النسوة . . . والمبصر يدرك نبو هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة . .

ولعل عدم الاحكام في فهم الالوان وادراكها يبدو شديد الوضوح في هذا التساؤل في تشبيه بياض شيبه ، بهذه المجموعة التي يجمع بينها « بياض » ابي العلاء :

اضياء النهار ام وضح اللؤ لؤ ام كونه كثغر الحبيب

فالنهار واللؤلؤ وثغر الحبيب يتساوى لونها في خيال ابي العلاء، ولونها كلها كلون الشيب . . .

واذا كانت الالوان تدل ، عادة ، على ذوق الرسام وهواه ومزاجه ، فان ابا العلاء كان مكثراً من الالوان القاتمة ، في حين اننا لا نكاد نحس له شعوراً قوياً نحو الالوان الزاهية الضاحكة وما تحويه من معان مغرية فتانة ، بل تتناول ، اذا مارسها ، الوصف الظاهر على نحو تقليدي مألوف ، وعلى النقيض من ذلك اذا تحدث عن الليل الملفع بطيلسان اسود، فلهذا اللون القاتم المظلم اثر يتجاوز اللون الى الشاعر « فالظلام ليس بفاني » ويرى ابو العلاء خيال من يرغب في لقائه ينتظره و :

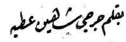
يود ان ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

وقد يكون هذا اللون سبيلًا ينتقل منه الشاعر الى الوصف المعنوي ، وفيه يجيد الكفيف وصف اللذة والالم والفرح والترح والوان الاهواء النفسية التي لا تحتاج الى عين بقدر ما تحتاج الى شعور وبصيرة . . . فلا يكاد يصف ابو العلاء شمعة صفراء حتى يقارن بينها وبينه ويستمر في الحديث عن آلام نفسه :

وصفراء لون التبر مثلي جليدة على نوب الايام والعيشة الضنك

ولعل حرص ابي العلاء على وصف الليل وتكرار هذا الوصف بألوان شتى، الى جانب انه قريب الى نفسه وانه يلائم هواه ، راجع الى شعوره بأن هذه الاداة التي يتميز بها عنه الناس تلغى عند اشتداد ظلام الليل ، ويكاد يقف عملها . . . فهو في ظلام الليل مثل غيره . . . ، او قل ان شئت انه يملك عيناً باصرة . . .

لغة المعرّي



استاذ اللغة العربية في الكلية العلمانية

□

ان لغة المعري ، اقرب الى لغة الجـاهليين والاسلاميين منها الى لغة شعراء وأدباء العصر العباسي. فاننا نرى عنده من جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب ما لانرى مثله عند معاصريه. ذلك لان ابا العلاء كان – مع اشتغاله بالنظم والكتابة – منصرفاً في الوقت نفسه الى اللغة درساً وتدريساً ، في حين ان اقرانه من الشعراء انما كانوا ينظمون الشعر في اغراضهم المتنوعة من مدح ورثاء ووصف وما أشبه ، دون ان ينهمكوا بمباحث اللغة ، او يلتف الطلاب حولهم للاخذ عنهم ومناقشتهم في مواضيعها. اما رهين المحبسين فقد كان متفرغاً للبحث في اسرارها والوقوف على اساليب البلغاء من رجالها الاقدمين حتى بات كأنه انتقل الى زمانهم ، فأصبح لا يجري قلمه الا بما كانت تجري ألسنتهم واقلامهم في الالفاظ والتعابير ، ولا يفترق عنهم الا بما يودعه تلك القوالب من آراء وخواطر هي نتاج دروسه الفلسفية. واننا اذا امعنّا النظر في ميزات ابي العلاء اللغوية نجدها تنحصر في ثلاث خصال: اولاهـا كثرة محفوظه من اللغة. فانه لم يرو الرواة ان احداً بلغ من استيعاب الالفاظ مـا بلغه ابو العلاء. ولا شك ان لقوة ذاكرته العجيبة اليد الطولى في ذلك. وحسبنا ما ذكره في هذا الصدد تلميذه ابو زكريا التبريزي اذ قال:

« ما اعرف ان العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها ابو العلاء. ثم استشهد على ذلك بان جمـاعة ممن كانوا يقرأون عليه ارادوا ان يختبروا علمه ويمتحنوا ثقته فوضعوا حروفاً وألفوها كلمـات. ثم اضافوا اليها كلمات اخرى من غريب اللغة وسألوه عن جميع ذلك. فكان اذا مرت به كلمة مما وضعوه أنكرها واستعادها مراراً ثم قال: دعوا هذه. واذا مرت به كلمة لغوية شرحهـا واستشهد عليها. حتى اذا انتهوا اطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: كأني بكم وقد وضعتم هذه الكلمات لتخفوا بها معرفتي وثقة روايتي. والله لئن لم تكشفوا لي الحال لافارقنكم. فقالوا: والله ان الامر كما قلت وما عدوت ما قصدناه. فقال: سبحان الله ، والله ما اقول الا ما قالت العرب. والرائد لا يكذب اهله ».

واذا قيل: لعلّ في هذه الرواية شيئاً من المبالغة. قلنا: ان في ما وصل الينا من آثار ابي العلاء شواهد عديدة مقنعة تدل على تفوقه في استظهار الغريب من الفـاظ اللغة. من ذلك ما ورد في رسالة الغفران حين ذكر بيتين للنمر بن تولب وهما:

ألمّ بصحبتي وهم هجوع | خيال طارق من ام حصن
لها ما تشتهي عسلاً مصفى | اذا شاءت وحوارى بسمن

والكن ما نفعها ؟ ..

ومن الغريب ان حرص ابي العلاء في شبابه على ترديد الالوان في شعره او تشبيه اوصافه بها ، واسرافه في ذلك ، يختفي في شعره المتأخر ويعود طبيعياً جداً ... ولكن اذا عرفنا ان إلحاحه بذكر الالوان راجع الى منافسته المبصرين في الموضوع الذي يجيدون ، ندرك سريعاً سبب كفه عن التلوين ، فقد تشكلت منافسته اخيراً في انواع اخرى . بز المبصرين في لزومياته في اللغة ، وبز المبصرين في رسالة الغفران في موضوع يستوي هو معهم فيه ، فهو اعمى لا يرى العالم الآخر كما انه لم ير الشعراء الاقدمين الذين قابلهم فيه ، ولكن كل قراء رسالة الغفران عميان عن هذا العالم الاخر ، فلم يروه كما انهم لم يروا الشعراء المتقدمين الذين فيه ...

بهيج عثمان

فقد ذكر عندئذ قصة كانت بين خلف الاحمر واصحابه ملخصها: ان خلفاً قال لاصحابه: لو انه وضع ام حفص موضع ام حصن ما كنتم تقولون في البيت الثاني فسكتوا. فقال خلف: «وحوارى بلمص». واللمص الفالوذج. قال ابو العلاء ويُفرّع على هذه الحكاية فيقال: لو كان مكان ام حفص ام جزء وآخره همزة ما كان يقول في القافية. فانه يحتمل ان يقول: وحوارى بكشء. من قولهم كشأت اللحم اذا شويته حتى ييبس. ويقال كبشأ الشواء اذا اكله. او يقول: بوزء. من قولهم وزأت اللحم اذا شويته. ولو قال حوارى بنسء لجاز، واحسن ما يُتأول فيه ان يكون من نسأ الله في اجله اي لها خبز مع طول حياة. ثم قال والنسء اللبن الكثير الماء، والخمر ولو حمل على هذا المعنى لجاز. ثم انتقل الى حرف الباء فأتى بثلاث كلمات صالحة لذلك ثم مضى الى آخر حروف الهجاء، مورداً لكل حرف عدة كلمات ومفسراً كل واحدة منها.

وميزة ابي العلاء الثانية، هي: ولعه بالتحقيق. فان له من التحقيقات الصرفية والنحوية والعروضية وغيرها ما قلما نقف له على مثيل. ومن طالع رسالة الغفران يجده انما يجتهد فيها بان يُنطق الشعراء والعلماء في الدار الاخرى بما يرى انه الحق في ما يتعلق بشيء من كلامهم. كما في المحاورة التي اجراها بين ابن القارح وعدي بن زيد في الجنة اذ قال الاول للثاني: لقد هممت ان اسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه وهو قولك:

ارواحٌ مودعٌ ام بكور   انت فانظر لأي حال تصير

فانه يزعم ان (انت) يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك (فانظر) وانا استبعد هذا المذهب ولا اظنك ازدته. فيقول عدي بن زيد: دعني من هذه الاباطيل.

وكذلك محاورته مع النابغة الذبياني اذ قال له: كيف حسن لك لبك ان تقول للنعمان بن المنذر:

زعم الهمامُ بأن فاها باردٌ   عذبٌ اذا ما ذقته قلت ازدد
زعم الهمام ولم اذقه انه   يشفى ببرد لثاتها العطش الصدي

ثم استمر بك القول حتى انكره عليك خاصة وعامة، فيقول النابغة: «لقد ظلمني من عاب علي ولو انصفني لعلم انني احترزت اشد احتراز وذلك ان النعمان كان مستهتراً بتلك المرأة، فأمرني ان اذكرها في شعري. فأدرت ذلك في خلدي فقلت: ان وصفتها وصفاً مطلقاً جاز ان يكون بغيرها مقلقاً وخشيت ان اذكر اسمها في النظم فلا يكون ذلك موافقاً للملك لان الملوك يأنفون من تسمية نسائهم. فرأيت ان اسند الصفة اليه فاقول «زعم الهمام» اذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع ان صفتي على المشاهدة. والابيات التي جاءت بعد داخلة على وصف الهمام. فمن تأمل المعنى وجده غير مختل. وكيف ينشدون: «واذا نظرتَ رأيت اقمر مشرقاً» وما بعده. فيقول الشيخ: ينشد: «واذا نظرتَ. واذا لمستَ. واذا طعنتَ. واذا نزعت» على الخطاب. فيقول النابغة: قد يسوغ هذا ولكن الاجود ان تجعلوه إخباراً عن المتكلم لان قولي: «زعم الهمام» يؤدي معنى قولنا «قال الهمام» فهذا اسلم».

اما ميزة ابي العلاء الثالثة فهي: التعمق في الاستقصاء. فانه كان اذا مرت به الكلمة لا يتعداها حتى يوفيها حقها من البحث ويحيط بكل ما له علاقة بها. يظهر ذلك من جوابه الى ابي الحسين النكتيّ البصري الذي كان قد كتب اليه كتاباً اخطأ فيه في اسمه وكنيته فسماه محمداً بدلا من احمد وكناه بابي العلى بالقصر بدلا من ابي العلاء بالمد. فكتب اليه جواباً يشغل نحو خمسين صفحة من مجموعة رسائله التي طبعت في بيروت سنة ١٨٩٤ وقد شرحها المرحوم والدي. ولم يترك ابو العلاء في هذا الجواب شيئاً من الاحكام التي تتعلق بتغيير الاسماء والكنى والتصرف بالالفاظ وما يعتريها من الضرورات الا ذكره وأيده بالشواهد العديدة. ثم قال: «ولعل سيدي الشيخ ظن اني مكني بعلى التي هي من حروف الخفض ولو كان كذلك لوجب ان يقال ابو علي... وان كان تأول اني مكني بعلا الذي هو فعل ماض فهو في التعرية من الالف واللام مثل الاول»

يتبين لنا مما تقدم ان انهماك ابي العلاء الدائم باللغة ومباحثها، وكثرة محفوظه من الفاظها، وولعه بالتدقيق والاستقصاء فيها، كل ذلك جعل الفاظها الغريبة غير غريبة لديه، فصار يستعملها في شعره ونثره ذهاباً مع سليقته، وارواء للذة يجدها في نفسه، دون ان يتعمد اخفاء شيء في مطاويها كما ذهب البعض. وهذا ما يجعلنا نعارض الدكتور طه حسين في قوله:

«لم يرد ابو العلاء ان يظهر في كتابه «اللزوميات» مقدرته اللغوية وبراعته في قرض الشعر كما ظن طائفة من الناس. وانما سلك هذا المسلك في ما نعتقد ليكون ادعى الى ايثار الغريب والاستكثار منه حتى تخفى اغراض الكتاب على كثير من الناس لم يكن يحب ان يظهروا عليها، وهذا فيما نرى علة حبه الرمز والايماء وايثار الالفاظ الجافية للمعاني الغريبة. فمما لا شك فيه ان الرجل كان يود لو عمي امر كتابه على ناس من المشددين في الدين حتى لا يتخذوه وسيلة الى اهدار دمه وازهاق نفسه. فلا جرم آثر من الالفاظ والاساليب ما يصعب فهمه على هؤلاء الناس».

قلنا: اننا لا نوافق الدكتور على رأيه هذا. اولاً: لان ابا العلاء جاهر بما يعتقد، وانتقد كل ما اراد ان ينتقد، بتعابير صريحة ليس فيها غموض ولا ابهام. كقوله في الطعن بالاديان:

هفت النصارى والحنيفة ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا ... دِين وآخر دين لا عقل له

وقوله في انكار البعث:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحُق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ثانياً: لان اكثر ما نرى فيه لابي العلاء تعابير غامضة والفاظاً غير مأنوسة انما هو في مواضيع ليس فيها كبير حرج، ولا هي مما يحتاج معه الى التعمية والالغاز.

فضلًا عن ان ابا العلاء لم يلتزم ما لا يلزم (أي يتقيد بحرف آخر قبل حرف الروي) في ديوانه اللزوميات الذي خصصه بالمواضيع الفلسفية فقط بل انه قد لازم هذه الخطة في اكثر نثره المسجع. وقد كان كثير التمسك بالسجع حتى لا يكاد يفارقه. وقد قال في رد له على داعي الدعاة بمصر الذي عاب عليه ذلك:

« ان الناس في الاسلام قد استحسنوا السجعات وكثرت في خطبهم ومراسلاتهم فقل ما يُخطب بخطبة على منبر الا وفيها سجع» الى ان قال:

« ولو علمت الحمائم الساجعة ان الله سبحانه او نبيه يكره سجعها على الغصون لخرست عنه وتبرأت منه».

على انه لو اقتصر ابو العلاء على السجع فقط لهان الامر ولكنه ضم اليه لزوم ما لا يلزم. وهاك مثالا على ذلك قوله في رسالة المنيح:

« لو ان شوقه الى حضرته الجليلة تمثل، فمثل، وتجسم، حتى يتوسم، لملأ ذات الطول والعرض، وشغل ما بين السماء والارض»

ومنها: « ما خبر عبده حتى اختبر، ولا عبر الا بعدما اعتبر. شاهدنا فيا ممعناه المعنى الحصير، في الوزن القصير، ان تغزل لخنين العود، او تجزل فهدير الرعود».

ثم انه قد لا يكتفي بلزوم ما لا يلزم فيضيف اليه كثيراً من انواع البديع المتعمدة كالجناس والطباق والمقابلة والترصيع وغير ذلك.

ولكن شدة حرصه على السجع كثيراً ما ألجأته الى استعمال الفاظ غير مأنوسة وحملته على تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم فجاء نثره في كثير من الاحيان مملوءاً من التكلف. والغريب ان ابا العلاء نفسه ذم السجع في رسالة المنيح اذا جاء متكلفاً. وقد فاته ما في كثير من كلامه من هذا التكلف.

ولم يتبع ابو العلاء طريقة ابن العميد في انشائه بل اختط لنفسه طريقة جديدة هي وسط بين طريقتي الجاحظ وابن العميد. وله نثر لا يلتزم فيه السجع وخصوصاً اذا كان كلامه في موضوع علمي او قصص تاريخي فيجيء نثره اذ ذاك عذباً سهلًا يستسيغه السمع وترتاح اليه النفس. نورد مثالا على ذلك بعض فقرات من رسالته الى اهل معرة النعمان حين رجوعه من بغداد يخبرهم بعزمه على العزلة قال::

« وجدت اوفق ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الاروى من سانح النعام. وما ألوت نصيحة لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزي، فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه، بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً وعده اذا تم رشداً. وهو امر ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذي الحقب القادمة وسليل الفكر الطويل. وما سمحت القرون[1] بالاياب حتى وعدتها اشياء ثلاثة: نبذة كنبذة فتيق النجوم[2]، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القوب[3] وثباتاً في البلدان حال اهله من خوف الروم».

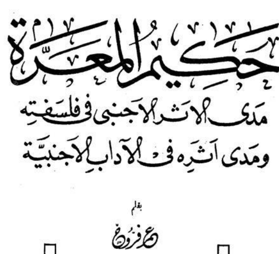
وهذا شأنه ايضاً في شعره. فان اجود منظوماته ما ترك فيه القيود التي فرضها على نفسه وعمد الى جلاء افكاره بدون تكلف ولا تعمل. وهو وان لم يكن بالامكان وضعه الى جانب المتفوقين من فحول الشعراء الذين تقدموه في الزمن كأبي تمام والمتنبي والبحتري وابن الرومي ممن لم تسمح له حالته وطريقة معيشته من الانصراف الى المواضيع التي طرقوها ولا سيما ما يقتضي منها سعة في الخيال فانه قد أخرج في ما عالجه من المواضيع الاجتماعية والفكرية آيات بينات جعلته في منزلة الشاعر الفيلسوف المتفرد.

وخلاصة القول انه اذا كان بين الناس خلاف في ما يتعلق بآراء ابي العلاء، فمنهم من يخطئه، ومنهم من يدافع عنه، فان هنالك امراً لا يختلف فيه اثنان وهو ان ابا العلاء علم من اهم اعلام اللغة، وان لما تركه من الآثار مقاماً رفيعاً في عالم البلاغة.

جرجي شاهين عطيه

---

(١) القرون النفس
(٢) النجوم ما دون الشجر من النباتات والفتيق المشقوق ونبذ الشيء طرحه.
(٣) القائبة البيضة والقوب الفرخ والانقضاب الانقطاع.



حينما يقرأ احدنا قول كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) حكيم الصين الكبير: « اذا كنا قليلي المعرفة بانفسنا او بما نحن عليه، فكيف نستطيع ان نصل الى معرفة ما كنا فيه او ما سنصير اليه »، ثم يجد في لزوميات المعري:

ارواحنا معنا، وليس لنا بها علم، فكيف اذا حوتها الاقبر ؟

لا يتردد في القول بان الحكيم العربي ترسم الحكيم الصيني، وحينما يرى ايضاً بان فلاسفة شرقيين من الصين والهند سبقوا ابا العلاء الى القول بفساد الطبيعة البشرية وبرحمة الحيوان وبقطع النسل وبانكار البعث، ويرى ان الاتفاق شديد بين آراء فيلسوفنا وبين آراء الجينيين من الهنود في الزهد، وآراء البوذيين في العدم وآراء البراهمة في انكار النبوة يعجب لهذا التوافق الغريب ويتساءل عن مدى الاثر الاجنبي في فلسفة الشاعر العربي. الا ان الآراء على كثرتها في شعر المعري لا تنتظم في سلك يرجع الى مذهب بعينه، وانما هي آراء من مذاهب مختلفة اخذها المعري متفرقة لانه استحسنها في اوقات مختلفة. ذلك لان المعري لم يعتنق مذهباً دينياً او فلسفياً مخصوصاً، بل كان يستعرض آراء اهل المذاهب ونظم اصحاب الفلسفات، فاذا استحسن فيها شيئاً اخذه. اضف الى ذلك ان عبقرية المعري كانت في التحليل والنقد لا في الانشاء والتنظيم.

•

واذا كان الاثر الاجنبي لم يظهر واضحاً متبلوراً في فلسفة المعري، فان فلسفة المعري ظهرت واضحة متبلورة في انتاج اديبين كبيرين: في رباعيات عمر الخيام الاديب الفارسي، وفي الكوميديا الالهية لشاعر ايطالية الاول دانتي اليغييري.

توفي عمر الخيام نحو عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) اي بعد وفاة المعري بنحو خمسة وستين عاماً، وكان كالمعري كثير التشاؤم محباً للنقد والتهكم مندفعاً في التفكير الحر، ولكنه بدلا من ان ينزوي في بيته ويزهد في الحياة انصرف الى اللهو وتطلب المرح وشرب الخمر خاصة. وقد تساهل عمر الخيام في الفروض الدينية اذا استطاع ان يفعل خيراً – كما احب المعري ايضاً – ونظر الى جميع الناس نظرة واحدة لا يفضل سيداً على عبد ولا رجلا على امرأة مما يطول تعداده، فأكتفي من آرائها المتشابهة بما يلي: قال المعري في قصيدته التي يرثي بها صديقاً له:

خفف الوطء ما اظن اديم الارض الا من هذه الاجساد
وقبيح بنا، وان قدم العهد، هوان الآباء والاجداد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالا على رفات العباد !

فأخذه الخيام وقال(١):

* طأ برفق هذا التراب فقدماً كان انسان عين ظبي غرير
* لا تطأ ويحك النبات احتقاراً فهو نام من مزهر الخد نضر

وكذلك قال المعري:

* فهل جاء من جدث ميت فيخبر عن مسمع او مرى.
* لو جاء من اهل الردى مخبر سألت عن قوم وارّخت:
هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى في النار نوبخت ؟

فاخذها الخيام وقال:

ما شهد النار والجنان فتى، اي امرىء من هناك قد جاء ؟

وآخر ما اريد الاستشهاد به في هذا الباب قول المعري:

فألفيت البهائم لا عقول تقيم لها الدليل ولا ضياء
واخوان الفطانة في اختيال كأنهم لقوم انبياء
فاما هؤلاء فاهل مكر واما الآخرون فاغبياء
فان كان التقى بلهاً وعياً فاعيار(٢) المذلة اتقياء !

فانظر كيف تعلق الخيام بهذا المعنى حرفاً حرفاً:

كن حماراً في معشر جهلاء ايقنوا انهم اولو العرفان
فهمُ يحسبون للجهل من ليس حماراً خلواً من الايمان

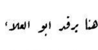
*

واذا كان الخيام قد غرف من شعر المعري، فان دانتي قد اغترف من نثره وقلد « رسالة الغفران ».

---

(١) اشعار عمر الخيام مأخوذة من ترجمة احمد الصافي النجفي، راجع «حكيم المعرة» للدكتور عمر فروخ (بيروت ١٩٤٤) ص٨٩–٩٤

(٢) اعيار جمع عير: حمار



تقول الرواية التاريخية ان ابا العلاء دفن في ساحة من دور اهله ، وقد زار القفطي المعرة بعد قرنين من وفاته (٦٥٠ هـ) فوجد القبر « لا احتفال به ورأى عليه خبازى يابسة والموضع على غاية من الشعث والاهمال . » ويقول الذهبي « وقد رأيت القبر بعد مائتي سنة من روئية القفطي فرأيت نحواً مما حكى . »

وبقي القبر مهملا الى ان عزمت الحكومة السورية منذسنوات قليلة على تشييد ضريح لائق بصاحبه . وقد تم البناء على الطراز العربي القديم . وفي الضريح مدرسة لها مسجدها ومكتبتها وازوقتها . وهي تتألف من صحن واسع فيه حديقة حسنة التنسيق في جنوبه ايوان جميل حيث يوجد القبر ، والى جانبي القبر بابان يؤديان الى مسجد ضخم في جانبه الايمن غرفتان وفي جانبه الايسر مكتبة واسعة . والرسم الذي تراه في أعلى هذه الصفحة هو القبر كما رسم اخيراً .

كتب المعري رسالة الغفران يصف فيها الجنة والنار واحوالها وضمنها شيئاً كثيراً من آرائه الفلسفية والدينية والادبية والقى عليها كثيراً من التهكم المضاف الى المرح . وبعد ثلاثة قرون يطلع الشاعر الايطالي دانتي « بالكوميديا الالهية » على العالم الادبي ويحملها في وصف الجنة والنار ووصف احوالها واحوال من فيها ويضمنها آراءه كما فعل المعري . ولا ريب قط عند الدارسين ان دانتي تناول اسس رسالته من الاسلام : من القرآن الكريم في وصف الجنة والنار وفي اسراء الرسول من مكة الى القدس . ثم من قصة المعراج التي تصف عروج محمد صلى الله عليه وسلم الى السماء ، ثم من الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي حيث يصف رحلة له الى الحضرة الالهية .



الدكتور عمر فروخ

ومع ان ثمة فروقاً بين رسالة الغفران وبين الكوميديا الالهية — بدأ المعري رحلته بالجنة وبدأها دانتي من جهنم ، ثم ان رسالة دانتي اكثر تفصيلا واشمل موضوعاً وكذلك يذهب دانتي بنفسه في تلك الرحلة بينما المعري يبعث فيها صديقه ابن القارح — فان اوجه الشبه والتقليد كثيرة جداً وسأقتصر على اشهرها :

(أ) كلا الشاعرين اتخذ رسالته سبيلا الى اظهار مقدرته الادبية واللغوية ومعرفته بالتاريخ ، والى التعبير عن فلسفته الدينية .

(ب) وكلا الشاعرين اتخذ الأشخاص الذين لقيهم هنالك من البشر المعروفين في ايامه او قبل ايامه ، او من الجن . . .

(ج) وكلاهما جعل اهل الجنة جماعات جماعات ، وجعل اهل النار افراداً افراداً .

(د) وكلاهما وقف على الاشخاص الذين لقيهم يحادثهم ويناقشهم في امور جرت لهم في الدنيا او صاروا اليها في الآخرة . ولقد قلد دانتي في ذلك المعري تقليداً تاماً : كان يسأل عن نفس ما فيهدى الى مكانها او يرى امامه فجأة نفساً لا يعرفها فيسألها اسمها . وكثيراً ما تجد احاديث دانتي مع اصحابه احتذاء تاماً للاحاديث التي يجريها المعري على لسان ابن القارح مع اهل الجنة والنار .

(هـ) ويدهشك ان ترى المطابقة التامة بين دانتي وابي العلاء حينما يأتيان الى قوم قد خفف الله عنهم العذاب او بعضه . ان المعري يضع في الجنة قوماً جاءوا قبل الاسلام كعبيد بن الابرص معاصر امريء القيس وكان أسن منه ، وكزهير ابن ابي سلمى ، ويضع فيها ايضاً عديّ بن زيد النصراني . وقد سأل المعري عبيد بن الابرص عن سبب غفران الله له فقال : « انني دخلت الهاوية ،

وكنت قد قلت في الحياة :

من يسأل الناس يحرموه ، وسائل الله لا يخيب !

وسار هذا البيت في آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ويخفف عني العذاب ... الى ان شملتني الرحمة » ... فاذا سمع الشيخ ذلك (يعني ابن القارح) – طمع في سلامة كثير من اصناف الشعراء .

ويجري ابو العلاء على لسان عدي بن زيد النصراني السبب الذي نجاه الله به من النار ويجعله يقول : اني كنت على دين المسيح ، ومن كان من اتباع الانبياء قبل ان يبعث محمد فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للاصنام . اما الاخطل فيضعه المعري في جهنم ويبين له سبب ذلك على لسان ابن القارح فيقول : جاء الاسلام فعجزت ان تدخل فيه ولزمت اخلاق سفيه وعاشرت يزيد بن معاويه ... (وقلت) :

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقائم كالعير ادعو ... قبيل الصبح : « حي على الفلاح »
ولكني سأشربها شمولا ... واسجد عند منبلج الصباح

ويقلد دانتي في ذلك المعري تماماً فيضع في « الاعراف » عن اطراف الجنة قوماً سبقوا ظهور النصرانية كسقراط وافلاطون وارسطو ويوليوس قيصر ، او قوما جاءوا بعد ظهورها ولكنهم خدموا المدنية والعلم وكانوا اولي شهامة منهم ابن سيناء وابن رشد وصلاح الدين الايوبي ، بينما هو قد وضع في الجحيم رأساً نفراً من الامراء النصارى .

ان هذا التساهل الديني ، وهذا الفكر الحر استحسنها دانتي في كتابه وقلد فيهما حكيم المعرة .

وهنالك امر آخر يجدر بالذكر وهو ان « الاعراف » فكرة اسلامية بحتجاء بها القرآن الكريم وعنى بها « سوراً بين الجنة والنار » يوضع عليه النفر الذين لا يستحقون النار باعمالهم ولا يستأهلون الجنة . ولقد اتخذ المعري « الاعراف » في رسالة الغفران وجعلها باحة بين الجنة والنار وضع فيها الجن واسكن فيها الحطيئة الشاعر المخضرم الهجاء . اضف الى ذلك ان النعيم والعذاب الجسمانيين هما من خصائص الخلود الاسلامي في الجنة والنار ، وقد تناولها دانتي من الاسلام .

ويدهشك ايضاً ان يكون دانتي قد لقي قبل ان يصل الى الجحيم اسداً وذئبة وفهداً ، ثم اذا قرأت رسالة الغفران رأيت الاسد يلتقي ابن القارح قبل النار مباشرة .

وهنالك مطابقة تامة ايضاً بين حديث المعري « على لسان ابن القارح » وحديث دانتي مع آدم كلاهما رأى أبا البشر في الجنة وحادثه وسأله عن اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله .

هذه كلمة موجزة في وجوه الشبه العامة بين رسالة الغفران لشاعر المعرة وحكيمها وبين الكوميديا الالهية لزعيم الشعر المحدث في الغرب وحامل الادب الاوروبي من العصور الوسطى الى العصور الحديثة .

اذا تأملنا هذا الاثر البالغ الذي تركه ابو العلاء في الشرق والغرب ، ادركنا قوة هذه العبقرية التي تجلت في حكيم المعرة وحق لنا ان نفتخر كما يفتخر الغربيون بكبار شعرائهم وفوق ما يفتخرون ، ذلك لان شاعرنا هو الذي اوحى الى شعرائهم هم ، ما استطاعوا ان يخلدوا به على وجه التاريخ .

عمر فروخ



حكيم المعرة

الدكتور عمر فروخ – ١٠٤ صفحات – مطبعة الكشاف ، بيروت

لعل بعض القراء ينتظرون مني وصفاً خارجيا دقيقاً لهذا المؤلف الصغير القيم ، كأن اذكر لون الغلاف وعدد الصفحات وقطعها ، وما الى ذلك . . .

ولعل قراء آخرين ينتظرون مني اختصاراً اميناً لهذا الكتاب ، اي شرحاً موجزاً لفهرسته . .

خاب اذن ظن اولئك وهؤلاء ! فانا اكرههم ، ولهم ملء الحق في ان يكرهوني !.. انا أكره القراء الذين لا يقرؤن . بل ينتظرون من ناقد مثلي ان يختزل لهم الكتاب اختزالاً يغنيهم عن مطالعته . فقد سئمنا الادب المنقول . واني لذاكر لك – لو كان هنا مجال للذكر – اسماء العشرات من « المتأدبين » يعرفون محتويات الكتب كما يعرف الصيدلي محتويات قواريره . . . من العناوين ! فادا اجهدوا انفسهم ، فمن طريق النقد الرخيص في الصحف السيارة ! . . .

لست اذن لأصف كتاب الدكتور فروخ وصفاً خارجيا دقيقاً كما يصف المستنطق جثة القتيل قبل الامر بتشريحها . ولست جاعلاً من هذا المقال خلاصة لذلك الكتاب ، يزدردها القارئ كما يبتلع الحبوب الكيماوية : خلاصة الكبد والطحال والغدد الكلوية . ولكني سأقف من هذا الكتاب موقف منصف ، وموقف متطلع . . .

واقول انصافاً للكتاب ان معظم النقاد الذين تناولوه قد ظلموه ظلماً صريحاً عندما قرروا انه كتب لطلاب البكالوريا . فاذا كانت لهؤلاء الطلاب فائدة جمة بمطالعة « حكيم المعرة » فالفائدة مضمونة كذلك لكل مطالع ، ولكل متأدب ، بل لكل اديب نال من درس المعري قسطاً وفيراً ، واذا كان الكتاب يستعرض آراء المعري في معظم ميادين الفكر ، في الايمان والملائكة والرسل والشرائع والمذاهب ، والتقوى ، والعقل والمجتمع ، والطبيعة البشرية ، والسياسة والادارة ، ورجل الدين والعامة والمرأة والزواج والنسل ، والزهد والجسد والروح ، والفلسفتين الاخلاقية والطبيعية – فانه يستعرض كل ذلك بلباقة وتمحيص ، مستوحياً جهد الاستطاعة ، فكرة رئيسية تسيطر على هذا الكتيب وتجعل منه خطوة جريئة ، لعلها الاولى من نوعها في الادب العربي ، وعلى الاخص فيما كتب عن المعري .

هذه الفكرة ، هي التي اوقفتني من الكتاب موقف متطلع . فقد حاول المؤلف ترتيب اللزوميات ترتيباً تاريخياً ، ولعل من الصواب ان نستدرك فنقول انه اشار الى وجوب ترتيب اللزوميات ترتيباً تاريخياً ، واعطى الخطوط الرئيسية لهذه الطريقة ، وذكر فوائدها ، وتخلص من كل ذلك الى القول « ان محاولة ترتيب اللزوميات ترتيباً تاريخياً ، والفصل بين آراء المعري الاصيلة وبين آراء المتفلسفين والمتكلمين التي استعرضها المعري في لزومياته ، ثم فهم معنى الشك الفلسفي ، كل هذه تنفي التناقض الذي يتهم به بعضهم حكيم المعرة . »

انا لا اعتقد مع المؤلف ان التناقض الظاهر في اقوال المعري يزول تماماً بفهم اللزوميات فهماً صحيحاً ، مبنياً على ترتيبها التاريخي ، وعلى الفصل بين آرائه الاصيلة وبين آراء المتفلسفين والمتكلمين ، وعلى فهم معنى الشك الفلسفي . حتى لو تركنا الى جانب ذلك نسبة معلومة لتطور الافكار ، لبقي تناقض في بعض اقوال المعري . فليس كل ما قال المعري وليد الفكر ، بل فيه ما هو وليد الحس والعاطفة ، التي تصطبغ بلون الساعة ، ساعة الفرح الذي يوحي الايمان ، وساعة اليأس الذي يودي الى الكفر ! ولكن التناقض في اقوال المعري ، اذا لم يزل تماماً بفضل درس اللزوميات درساً تاريخياً ، فلا شك انه زائل الا اقله ، وان المعري يظهر بعد ذلك وجهاً مستقراً صريحاً واضح القسمات بيّن الملامح ، اي بعيداً كل البعد عما يصوره بعض المرجفين !

والواضح ان ابا العلاء لم ينظم اللزوميات تباعاً حسب الحروف الهجائية ، كما هي مرتبة في الطبعة التي بين يدينا . ولا يعقل ، مهما افترضنا من الالتزام والعنت عند رهين المحابس الثلاثة ، ان يكون حاك لنفسه محبساً رابعاً ، هو النظم المنقطع على قافية واحدة – الهمزة مثلا – الى ان يتم له ما شاء منها ، ثم الانتقال الى الحرف الذي يلي ، وهكذا دواليك . وانما كان ابو العلاء ينظم ملتزماً ما لا يلزم ، فتأتي القافية كما تأتي ، ثم بعد ان تم له ما اراد على كل روي ، في حالاته الاربع (الضم والفتح والخفض والسكون) عاد فجمع لزومياته بسلك القافية غير آبه لتاريخ نظم كل منها .

وقد ذكر الدكتور فروخ ادلة منطقية وادلة حسية تؤيد هذا الرأي ، منها ما يتعلق بحياة المعري ، ومنها ما يتعلق بحوادث تاريخية محققة التاريخ ذكرها المعري في لزومياته . . . فليعد اليها القارئ الطُلَعة في كتاب الاستاذ فروخ . وليكتف القارئ الذي لا يريد ان يقرأ بما اقدم له من القشور . . .

ويلذ لي بشكل خاص ان امتدح لغة الكتاب الصحيحة السلسة ، وذوق المؤلف بانتقاء الاشعار ، واختيار المواضيع واختصارها دون بترها وكل من تاه يوماً في دهاليز المعري المتشابكة ، يعرف ان عمل المؤلف لم يكن بالامر اليسير !

وهنا اترك القارئ ، او اصرفه عني لمطالعة الكتاب ، واتوجه للمؤلف ملقياً على عاتقه عبئين ثقيلين : الاول ان يعمد الى ترتيب اللزوميات على النحو الذي دعا اليه ، ترتيباً تاريخياً كاملاً ما استطاع الكمال ، مدققاً على المخطوطات المختلفة ، ويطلع علينا بعد ذلك بطبعة نهائية للزوميات . والثاني ، ولا يمكن القيام به الا بعد الفراغ من الاول ، هو كتاب ضخم في « فلسفة ابي العلاء » . وبعد ذلك – وبعد ذلك فقط – يمكن المؤلف ان يطالبني بكتاب موضوعه « ابو العلاء ، الاديب العالمي » !

سليم حيدر

رجعة الى العلاء

للاستاذ عباس العقاد – طبعة جديدة في دار احياء الكتب العربية

لعل من مظاهر الطرافة في دراساتنا الادبية الحديثة ان كتابها وهم يجنحون الى اتخاذ المنهج العلمي اساساً لبحثهم ، لم يقفوا عند لون واحد من الوان الدراسة يعكفون عليه دون سواه : بل ظهرت نزعة الى التفنن في اساليب دراستهم لشخصياتهم .

وانك لتلمس في هذا التفنن الذي لا بد منه ليكون للدرس الادبي روح وحياة ، تلمس فيه رغبة صادقة بان يقرب الباحث ما بين الادب العربي القديم وبين الذوق الحديث . فكثيراً ما تشدق بعض المتعصبين للحديث بان تراثنا الفكري يستغلق على الفهم وانه اثر قد طواه الزمن اذ طوى الجيل الذي انتجه والذي قرأه من العرب الاوائل .

والواقع ان اعراضهم عن تراثنا ان هو الا ثمرة جهلهم لروائعه . وان هذا الجهل هو الذي يسوقهم الى هذا القول الزور . . . واحسن ما يدحض مثل هذه الآراء وما يبرز تلك الخصائص الانسانية التي ينعم بها تراثنا الفكري وادبنا العربي هو تفنن الباحثين في بعث شخصياته المبدعة في صور حية تجعلهم يعيشون معنا بفكرهم وادبهم مثلما عاشوا مع من سبقنا من الاجيال العربية .

وهذا ما صنعه العقاد في كتاب « رجعة ابي العلاء » .

فان ابا العلاء يبرح مع العقاد عصره الغابر ليدخل بشخصيته الشاعرة المتفلسفة تيارات عصرنا نحن . . . فيعيشه حيناً مطوفاً متجولاً في عالمنا الحديث : مستطلعاً مظاهر الحياة فيه : متتبعاً ناقداً ما اوجده من مذاهب الفكر والسياسة : ويبعث معه افكاره حيثما ذهب ، وكأنما صيغت لتعالج مشكلات القرن العشرين ! وكأنما الحياة الانسانية وان تغيرت اشكالها وتجددت مظاهرها مصونة الجوهر في نفس العقاد وفي فكر ابي العلاء . .

وكأن هذه الوثبة الزمنية الخارقة التي قد يقف الناقد مشدوهاً امامها انما ارادها العقاد ليبرز لنا العنصر الانساني المتجدد مع الدهر في عبقرية ابي العلاء . . .

فذلك هو العنصر الذي يلامس جوهر الحياة وينفذ الى اغوارها : فتلتفت الانسانية اليه لترى نفسها ماثلة فيه مها تداولها الزمان واينا حل بها المكان .

وان ايضاح هذا العنصر في فكرنا العربي : الذي لن يفتأ يغذي عقولنا وعقول البشرية جمعاء هو الذي نحتاج اليه في نهضتنا الحديثة لانه يزيد ايماننا بانفسنا ويقوي ثقتنا باننا نستطيع اليوم وفي الغد ان ننتج للانسانية مثلما انتج لها المعري بالامس . . .

ويخيل الي ان هذا هو المعنى الاول الذي نستوحيه من كتاب العقاد . ويؤكد لدينا هذا المعنى ان المعري وقد دعي للطواف حول العالم على « بساط الريح » يأبى ان يحور شيئاً من شخصيته : ويظل « ابو العلاء هو ابو العلاء » . ويعرض عن كل اغراء من تلميذه بان يغير شيئاً من شخصيته القديمة بعد ان رجع الى الدنيا جديدة ولايقبل منه الافكرة الطواف حول هذا العالم الحديث .

ويأبى ان يقول كلمته في « حكم السيف » وفي « المستشرقين » وان يزور « بلاد الشمال » وان يشاهد في الاندلس اللواتي كتب عليهن « جر الذيول » وقد أصبحن محاربات ؛ وان يكون « تلاقٍ » بينه وبين شوبنهور في بلاد الجرمان ؛ وبينه وبين « خليفة دانتي » في ايطاليا ؛ وان يشهد « حكماً وحكمة » في بلاد الانكليز ، وان يدلي بـ « لعب العبقرية » لمؤتمر الفلسفة والاديان الذي دعي اليه اثناء جولته ؛ وان يسخر من « الاختراع » في اوروبا الذي صير الانسان كالآلة التي اخترعها ؛ وان يذهب الى « اقصى الغرب » ليشاهد آثار سياسة روزفلت في اميركا ؛ وان يقصد من هنالك الى « اقصى الشرق » وبلاد الهند وفارس والعراق حيث يراود ذهنه « زهدان » زهد الهند وزهد نجد وان يعود بعدها الى « مصر » .

نعم انه يأبى هذا الطواف الطويل الا وهو محتفظ بشخصيته الاولى التي كونتها في رأي العقاد اسباب خاصة من « تربية اسرته » ومن « خليقته العربية » ومن « فقد بصره » ومن « كبريائه وعزة نفسه » و « ضعف بنيته » فوسمتها بشيمة مميزة غلبت حياته هي « السمت والوقار او هي كما نقول في لغة العصر الحاضر ادب البيئة واصول اللياقة » ص ٢٢

ولولا هذه اللياقة لكان ابو العلاء شخصية غير التي عرفها التاريخ ولحقق للانسانية نموذجاً جديداً في الفكر والحياة بين « النواسية » و « الخيامية » .

ولولا حيرتنا في بعض المواطن في تمحيص الرأي لمؤلف القرن العشرين او لحكيم القرون الوسطى لا عتقدنا مع العقاد ان المعري قد رجع الينا حقاً بعد غيابه الطويل .

واخيراً نذكر لدار احياء الكتب العربية في القاهرة فضلها في طبع الكتاب – طبعة جديدة – رجعت به الى الحياة الادبية مثلما رجع العقاد الى الدنيا بابي العلاء . . .

حسن صعب
ليسانسيه في الآداب

اليانصيب الوطني

جرى سحب الاصدار الرابع لليانصيب الوطني ، فرأينا الحظ هذه المرة يبسم ايضاً لطبقات المستخدمين والعمال ، فهناك :

السيد عبد الحميد بن احمد الحاج مهنته حجار في معرة النعمان سوريا . يحمل الورقة ذات الرقم ٧٨٢٧٠ ربح ٤٠٠٠ ليرة .

السيد جورج سليم الدهان بيروت . موظف في ادارة المصرف الوطني للتجارة والصناعة . يحمل الورقة ذات الرقم ٤٧٠٩٤ ربح ٤٠٠٠ ليرة لبنانية . السيد ميشال غنطوس . موظف في احدى الدوائر الرسمية ربح ٤٠٠٠ ليرة لبنانية تحت رقم ٦٨٠٥٥ السيد ميشال كوكوني مستخدم في احدى المحلات التجارية ربح ٤٠٠٠ ليرة لبنانية تحت رقم ٢٦٤٨٩ .



وترى الى جانب هذا الكلام صورة احدهم السيد جورج سليم الدهان